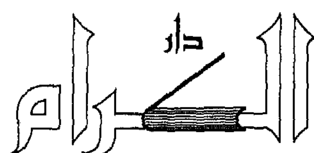
الرسالية في الثورة الحسينية

الكتاب الذي أحرز الجائزة الثانية في مسابقة
التأليف عن الامام الحسين (ع)

تأليف
د. حسين الحاج حسن



للطباعة والنشر والتحقيق

الرسالية في الثورة الحسينية

الطبعة الأولى
١٩٩٣ - ١٤١٣

دار الكرام للطباعة والنشر والتحقيق
بيروت - لبنان - ص - ب ٩٤٤٢/١١ - تلفون: ٨٣٧٧٥٥ - فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٠١٠١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين الذي اهتدينا إلى نوره بفضل الهداة المهديين الأئمة المعصومين (ع) إنهم مفاتيح الخير والحق والعلم لكل المتعطشين إلى جميع ألوان المعارف اليقينية والعلمية والفلسفية من أجل حياة أبقى وأرقى وأنقى.

إنهم مشاعل نور استخلفهم الله عزّ وجلّ على هذه الأرض فأدّوا رسالاتهم، وضحّوا بكل طاقاتهم، وأصلحوا ما استطاعوا إصلاحه في مجتمعاتهم فجادوا بأموالهم وأهلهم وأصحابهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله، وتثبيت شريعة الله، ومحاربة أعداء الله.

ومحطّتنا اليوم عند كوكب جاد بنفسه من أجل الحق «والجود بالنفس أسمى غاية الجود» من كواكب الإسلام، عظيم عظيم، وكريم كريم، عرف الحق فتمسّك به، وجاهد من أجل إحقاقه بصدق وإخلاص ووفاء، ووقف المواقف البطولية النادرة في التاريخ الإنساني بعزم وجدّ وسخاء.

هو ابن الأكرمين الحسين بن علي، إمام الشاهدين والشاهدية، وابن بنت رسول الله (ص)، من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

أقدم شكري الجزيل إلى اللجنة الكريمة التي عقدت العزم على تنفيذ هذه المباراة الخيّرة وأفسحت لي المجال للتعبير عن أفكار كنت أختزنها في صدري منذ زمن طويل، وعواطف أثقلت قلبي منذ سنين.

أقدم شكري وامتناني لكلّ من سعى بهذا العمل الجليل جزاهم الله خيراً

وأمد في أعمارهم، وأجرهم على الله العلي العظيم، إنه يجزي المحسنين الخيّرين، وآمل أن أكون عند حسن الظن والله نعم المولى ونعم النصير.

حسين الحاج حسن ـ شمسطار ـ

١٣ ذي القعدة ١٤٠٩
١٦ حزيران ١٩٨٩

الإهداء

إلى الشباب المؤمن بالله العلي العظيم، وبالإنسانية الكريمة، وبالنظام الخالد المتمثّل بالإسلام وبقادته الكرام محمد وآله عليهم الصلاة والسلام ورحمة الله وبركاته.

وإلى الشباب المثقّف ثقافة واعية يقف عند كل ظاهرة من ظواهر المجتمع وقفة تأمل وتفكير في أسباب تلك الثورة الحسينية، وآثارها الإنسانية ونتائجها الإيجابية، ليتبيّن خيرها من شرّها، ويكشف حقّها من باطلها.

وإلى الشباب الحرّ الطالب للعلم والمعرفة بواقع الأحداث وحقائق التاريخ بعيداً عن التعصّب الأعمى والميل والهوى.

وإلى شبابنا المتعطّش إلى معرفة مقاييس الأخلاق الفاضلة، والأصول العامة في هذه الحياة المعاصرة، التي أوشكت فيها معالم الحق على الضياع وتكاد تختفي القيم الحقيقية وآثار العدل الحقّة.

وأخيراً إلى كافّة شبابنا المتحمّس للإصلاح وتطبيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين بني البشر لحياة حرّة كريمة.

إليكم جميعاً أيها الأخوة المؤمنون أهدي كتابي هذا علّني أكون قد أصبت في بعض جوانبه المثيرة للتساؤل في ثورة الإمام الحسين (ع) الإنسانية والله تعالى ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يا الله!

نعطّر أفواهنا بذكرك، ونحيي قلوبنا بكتابك، ونستدلّ الطريق بنورك، يا رفيع الدرجات، يا ذا العرش، أدعوك مخلصاً لك الدين.. فاستجب لي يا رحيم، وثبّت قلبي بروحٍ من أمرك على محبة أهل بيتك، ومحبة من تبعهم واهتدى بهديهم إلى يومِ الدين.

يا الله!

ارفعني فوق نفسي درجة أو درجات لأتخلّص من قيود شرورها وأثقالها وأغتسل بمطر الفطرة الأولى التي فطرتني عليها، فأولد من جديد وأشم أطياب الحقيقة.

سمعت بخبر المباراة عن الإمام المعصوم الثالث «الحسين» وأنا أحبه وأحب أهل بيته، إلى درجة العشق، فعرتني رعدة وذهول وفرحة وفضول، ووقفت على أعتاب خاتم النبيين «محمد» (ص) صامتاً خاشعاً حتى حرّكتني اليد المباركة، يد العمل الصالح وهي ترفع الكلم الطيب لتعلّم الناس كيف يرتفعون فوق نفوسهم درجة أو درجات.

سمعت صوتاً خفياً يناديني فيهزّ أعماقي، ألا إنهض وتشجّع وأكتب عن سميّك الحسين (ع) واستعن بالله.

فازداد قلبي ثباتاً وأنا أصعد إلى مدارج الغيب، إلى مأدبة الله[1] التي دعا إليها محمد جميع المؤمنين ليطلّوا من فوق على حدائق اليقين.

---

(١) يقول الحديث الشريف: «القرآن مأدبة الله والداعي إليها محمد» المجازات النبوية.

وفي حديقة منها جميلة جداً فرحت بها كثيراً حتى أثقلتني مواسم الفرح سألت فقالوا: هذه حديقة الحسين بن علي (ع)، سليل رسول الله (ص)، فهويت وهويت حتى وجدت نفسي على الأرض ومعي أحسن الفصول عن ابن بنت الرسول (ص).

يا رحيق أقلام الكتّاب المؤمنين، ويا شمعة تضيء طريق المحبّين إلى دوحة الحق اليقين.

إخوة الإيمان، قصة الثورة الحسينية هي قصة الحق والحقيقة، وقصة العرفان والمعرفة، وقصة الوفاء والفداء، وقصة الحب في الله والمحبة لله.

أجل! الحب في الله والمحبة من أجل كلمة الله لتبقى هي العليا، علّم الله آدم الأسماء كلها، واستخلفه في الأرض وأعدّ جميع الأنبياء من بعده إعداداً جميلاً.

فأعدّ محمداً أربعين عاماً وألقى إليه الروح من أمره، فجدّد كتب الأقدمين وكان رحمة للعالمين.

وأعد محمد علياً، أبا تراب، من أقرب الأقربين في عشيرته، فتحمّل أثقال الخلافة عاملاً بكتاب الله وسنّة رسوله (ص).

وأعدّ علي الحسن والحسين (ع) سيّدي شباب أهل الجنة إعداداً كافياً لحمل أثقال الرسالة الإسلامية الإنسانية، فكانا خير خلفٍ لخير سلف «والله أعلم حيث يجعل رسالته».

مقدمة

أشرقت شمس الإسلام، شمس التوحيد على دنيا البشر، وبدّدت بنورها ظلمة الشرك، وخرج الناس من الظلمات إلى النور فدخلوا في دين الله أفواجاً، ولكن فريقاً من الناس لم يدخل الإسلام إلى أعماق قلبه! فبقي يمارس الحياة الجاهلية بما تحمل في طياتها من عصبية وطيش وشرك، فأخذ ينتظر الفرص المؤاتية لخنق الدعوة المباركة في مهدها تارة في الخفاء وطوراً في الجلاء.

هذا الفريق المعادي للرسالة الإسلامية لأسباب شخصية ومنافع خاصة تظاهر بالإسلام كذباً وهو في قرارة نفسه كافر بالله ورسوله، وعلى رأس هذا الفريق كان الحزب الأموي الذي بقي يواصل تحركه ضد الحق وأهل الحق حتى أُتيحت له الفرصة واستلم الحكم.

وماذا ينتظر من أعداء الحق غير القضاء عليه!!.

وكما للباطل أعوان ومرتزقة يميلون مع الريح، للحق أيضاً أنصار أقوياء خطاهم ثابتة، وقلبهم عامر بالإيمان، ونفوسهم مثقلة بفوح القرآن، استصرخهم الحق عندما توالت عليه الأحداث فلبّوا دعوته، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين الأبطال علي وبنوه عليهم السلام، تحمّلوا مسؤولية حماية شريعة الله ودافعوا عنها بالدم والروح فأعادوا للخلافة اعتبارها وأصلحوا ما فسد منها.

قام أمير المؤمنين ليلتقي مع عهد الرسالة له بالقتال على التأويل بعد القتال على التنزيل، وقد كتب عليه (ع) أن يحارب على جبهتين جبهة النفاق من الداخل وجبهة الكفر من الخارج، والإمام المعصوم لا يملك الاختيار تجاه الحق وهو يستصرخه ليلبي دعوته.

وقضية الانتصار للحق في منهج علي وبنيه (ع) جديرة بالولاء الذي لا ينقطع، وبالحماية التي ينبغي أن لا تغيب عن معركة الحياة، حتى وإن أدت حمايته إلى أعلى مراتب العطاء، ألا وهي الشهادة!.

والخلافة عند أهل البيت لا تشكّل أكثر من مسؤولية يفرضها الحق لا سواه.

وهم يمثّلون دوراً مشتركاً يكون للسابق دور التحضير وللّاحق دور الإكمال، وكان كل واحد منهم من موقع المسؤولية الإلّهية يأبى عليه غناه الروحي كما يأبى عليه امتلاء نفسه بالبطولة إلا أن يثور في وجه الباطل ويحارب المنحرفين عن الخط الرسالي بالاسلوب الذي يراه مناسباً لطبيعة عصره وظروف مجتمعه.

وما موقف الإمام علي (ع) بثورته ضد معاوية بن أبي سفيان، وموقف الإمام الحسن (ع) بصلحه لمعاوية إلا تمهيد وتخطيط لموقف الإمام الحسين (ع) الذي سار فيه حسب منهج أهل البيت منفذاً العهد الذي قال عنه: «عهد عهده إليَّ أبي عن جدي رسول الله (ص)»[1] .

ولما استكملت ثورة الحسين (ع) جميع عناصرها سار بها حتى بلوغ الهدف المنشود إذ كان الوضع آنئذٍ لا يمكن علاجه بغير الكفاح المسلح وبغير الاستشهاد، كما كان يتطلب أن يكون القائم بالثورة بطلاً قد تعاظم فيه الجانب الروحي، وامتلأت نفسه حتى فاضت بالبطولة فاندفع تلقائياً بعفوية للتجاوب مع الحق ومن أجل الحق.

وما تراني أقول بعد عن الثورة الحسينية والعطاء الحسيني النبيل والفداء الحسيني العظيم فلقد تناول أكثر من كاتب معروف ثورة الحسين بالدرس والتحليل، ووجدت من الصعب حصرها في مقال أو كتاب، فهي بحر زاخر لا يمكن حدّه، وهي كنز غني بالجواهر يصعب تقويمه، وهي مخزن عطر يحتار الداخل إليه أي لون يختار منه، وهي منبع الأصالة، ومصدر الحرية، وعنوان

---

(١) يوم الحسين لعلي محمد علي دخيّل ص ٢٨.

الحياة الحرّة الكريمة، ورمز العطاء الخيِّر الجميل.

وحسبي أن أقول باختصار أنها ثورة من أعظم شخصية لأعظم غاية تحلّت بقدرة الإشعاع على الوجود بصورة ملهمة تنعكس فيها الصورة النهائية المثلى لما يمكن أنْ تسمو إليه الإنسانية في حاضرها الفاضل ومستقبلها الأفضل، ولا غرور إذا قلنا أنها احتضنت كل أهداف الإسلام بمبادئه الصحيحة ومنهاجه السليم وتزامنه مع الحياة الحرة الكريمة.

وقد أعلن الإمام الحسين (ع) عن هذه الأهداف النبيلة فقال قولته التي ما تزال تتردد في خواطر المجاهدين المؤمنين: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق».

كلمات قليلة لها أبعاد بعيدة حدّد بها الإمام الحسين (ع) أهداف ثورته الخالدة في السطور والصدور، فلا غاية له من ورائها إلا الحق، وقبوله يجب أن يكون على حساب الحق، ومن يردّ عليه يردّ على الحق.

فهي ثورة الإسلام التي تترفّع عن مستوى الأفراد والأشخاص والغايات الدنيوية، لذلك باتت رمزاً للاستشهاد في سبيل الحق تعيش في ضمير الإنسان ووجدانه ما بقي في الكون حق وباطل، وعلى الأجيال الصاعدة أن تنظّم مستقبل مسيرتها من هذه القاعدة مع قافلة شهداء أهل البيت، وذلك من أجل صيانة القيم، وتطوير المجتمع نحو مستقبل أفضل يدفع أهله لتحمّل مسؤولية الصمود في مواجهة الأحداث والمؤامرات التي تحاك ضد الأمة الإسلامية، وضد الطغاة المستكبرين والحكام الظالمين.

فهيا ننشد معاً، أنصار الحسين في كل بقاع الأرض، اسمه الكريم «الحسين بن علي» وكأننا في معارج ابتهال وصلاة!!!.

الهوية

الاسم:

اسم كريم من نسب كريم «الحسين» وهو مصغّر الحسن، والاسم لغة: صفة مشبّهة في الاشتقاق، والصفة المشبهة تختلف عن اسم الفاعل الذي هو أصلها، وهي ملازمة لا تتصل بزمن مخصوص، فكأن العربي الذي أرادها في لغته فنان أصيل تجاوز الزمن إلى ما هو فوق مجراه.

وكلمة «الحسين» تشير إلى فحوى ذات موسيقية خاصة،لها نغم عذب وصدى جميل، إذ إن حروفها الثلاثة في أصل الكلمة «الحسن» تصوّر العاطفة والعذوبة والحنان، فهي حروف حلقية، حادة، عاطفية حسب رأي اللغوي المعروف ابن جنّي، فالحاء من الحروف الحلقية الهادئة، والسين حرف تنفيس وتوسيع، والنون حرف غنَّة ورنين، والحروف الثلاثة من حروف المباني.

يقول علماء التجويد: إن مخرج الحاء من أقصى الحلق، ومخرج السين من بين الأسنان، أما النون الذولقية فمن طرف اللسان.

وهذاالاسم بمعادلته الرياضية أنشودة جميلة، ولحن تستسيغ الأذن سماعه، هذا عن الاسم أما عن النسب.

النسب: كلنا يعلم أن قضية النسب عند العرب في عصر الجاهلية والإسلام والعصور التي تلت وحتى اليوم عامل مهم في تكوّن الأفراد والجماعات، لأن الذي يهتم بالأصل اهتماماً جديراً بالملاحظة هو بلا شك يهتم للفروع التي تتفرّع من الأصل، ومعرفة الأصول والفروع ينبوعان أصيلان من ينابيع المعرفة اليقينية والحضارة البشرية.

من هنا تأتي عنايتنا بنسب الحسين الشريف ونسب عظماء التاريخ، لأن النسب هوية، والهوية تعريف، وهوية الحسين تدخّلت في إخراجها العناية الإلّهية.

فتسمية الحسين هوية، وهويته نغمة جميلة ولمسة معبد لصلاة.

وتلك صورة لها مدلولها، نظراً إلى تميّزها بالنغمة الموسيقية الجميلة، والتمادي والحسن مرحلة من مراحل الجمال، الذي ينتهي إلى مرحلة الجلال.

فإذا كان لكل مسمّى نصيب من اسمه، أو أن الاسم عين المسمّى فالأمر واضح المعالم والخطوط في الاسم والمسمّى «الحسين».

الحسين هو ابن الأكرمين، ابن الإمام علي، حيدرة بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم.

وابن فاطمة الزهراء بنت خديجة أم المؤمنين وبنت الرسول الأعظم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم عليهم السلام.

وبهذا النسب تجتمع النبوة والإمامة، وتلتحم العظمة والمجد، وتتعانق الأريحية مع البطولة.

سلسلة من الأسماء كل أفرادها عظماء، كانت لهم قبل الإسلام صفحة بيضاء، وشمائل كريمة، ونفوس عفيفة شامخة أبيّة، سبقوا من سابقهم، ولم يدركهم خصم في فضيلة، ولم يلحقهم في منقبة، فكانوا كما وصفهم الأديب الأريب أبو عثمان الجاحظ: «ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأفخم، والكامل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسرّ كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم»[1].

أما عن التصغير، حسن: حسين. فهذا يعني التحنّن والتحبّب، وقد يجيىء التصغير صدى لآمال المصغّر ليكون المصغّر كبيراً.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٤.

يُـرویٰ أن والـده الإمـام علـي سمّـاه جعفـراً. كمـا سمـىٰ أخـاه الحسن: «حمزة» فجاء الرسول الكريم وسماه الحسين، كما ألغى تسمية الحسن بحمزة وأصبحا الحسن والحسين، وكما لا يخفى أن للرسول الأعظم بصراً نافذاً، وذوقاً خاصاً في تناغم الصفات وعذوبة الأسماء، ولا غرابة فهو من قريش حيث تربّى في بني سعد من نقباء الفصاحة والبلاغة.

أما الحسين فكان كأبيه في شدّته وقوّته، وكجدّه الرسول في ملامح الوجه وتكافؤ الأعضاء.

هاشم: سيد العرب، وكريم الأجواد، الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة، اسمه يكشف عن مسمّاه. أطعم حين فطم الدهر، وسخت يداه في أيام بخل بها الزمان، هو جدّ الحسين، عدناني شمالي، وبين الشمال والجنوب منافح قرابة، إلا أن الشمال أعرق بكثير من يمن الجنوب التي سمّاها اليونان «العربية السعيدة» Arabiafélix.

أبناء الشمال هم أصحاب اللغة العربية الأصيلة، لغة «قدوم بن قادم» و «النبي أيوب» وسواهم من العرب الفصحاء، كما قدّموا أيضاً الشعر الجاهلي الذي كان ولم يزل الينبوع الثري والمقياس السليم لكل طلاب اللغة العربية.

وقد أشار القرآن الكريم إليهم بقوله: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾**[1].

هؤلاء كان لهم حظ كبير في الحضارة والعمران.

أدب الشمال هو الأدب الذي ركّز الأصول، ومدّ الفروع، وهاشم ابن الشمال في مكة، ومكة عاصمة الشمال، تتميّز بموقعها الجغرافي والتجاري، وتفوق غيرها من الواحات الحضارية التي عرفت يومذاك بمداها الثقافي والسياسي، ولا ينسى الجميع أنها تحتوي الكعبة الشريفة مطاف العرب جميعاً. والقائمون على أمور الكعبة هم بنو هاشم بما لهم من احترام عند

---

(١) سورة الفجر، آية: ٦ ـ ٧ ـ ٨.

الجميع من الناحية الدينية والاجتماعية والثقافية والعلمية.

عبد المطلب: هو سيد قريش وعميدها، خضعت له الرقاب لسخائه وكرمه، وذلّت لسؤدده الرقاب لحكمته ورجاحة عقله، وقد لهج الناس بفضله وبصورة خاصة لأنه تمّ على يديه حفر بئر زمزم، فشرب أهل مكة وارتووا وصار كلما ذكرت زمزم اقترن ذكره بها.

وهناك حادثة الفيل التي نقلها المؤرخون ونزل بها القرآن الكريم حيث كان لعبد المطلب الكلمة الفصل في مواجهته لإبرهة الذي جاء يهدم الكعبة، قال عبد المطلب كلمته التي رددها الناس: «أنا ربّ الإبل وصاحبها وللبيت رب يحفظه ويحميه».

أبو طالب: هو جدّ الحسين لإبيه وأكرم به من جدّ، ناصر النبي، ودافع عن رسالة الإسلام، وبذل كل ما عنده من طاقة في سبيله، ضحّى بالمال والأبناء والنفس من أجل نصرة محمد ولد ابنه عبدالله، أعز أبنائه وأحبّهم إليه.

كفل أبو طالب النبيّ وهو صغير، وتعهّد بالمحافظة عليه وهو كبير، كان له المركز الأول بين أبنائه، تعلّق به تعلّقاً غريباً حتى أنه كان يحرم أبناءه ليطعمه، ويعريهم ليكسوه، كما كان يلازمه في حله وترحاله خوفاً عليه، يسهر الليالي من أجل راحته، ولذلك كلّه لم تستطع قريش أن تؤذي رسول الله في حياته خوفاً من جدّه. وكم من مرة وقف في وجه كبار زعمائها يدافع عن النبيّ ويذبّ عن رسالته.

لقد كان رسول الله (ص) في أمن وأمان على نفسه وعلى رسالته، فلمّا مات النصير الوفي والمحامي الحبيب أذن الله لرسوله بالهجرة، هكذا كان أبو طالب الجد الأمين على حفيده، يتعهّد بالمحافظة عليه والرعاية له ما دام على قيد الحياة.

علي بن أبي طالب: أي كلام يقال عن سيد الكلام!.

أول المسلمين المؤمنين بالرسالة الإسلامية، وليد الكعبة وشهيد

المحراب، تلميذ الرسول الأمين ورفيقه في رحلته الإنسانية المباركة منذ ابتداء خطواته الأولى إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، شارك النبي (ص) في جميع غزواته ما عدا غزوة تبوك التي خلّفه النبيّ نيابة عنه على المدينة، وعندها أعطاه وسام الخلافة من بعده حيث قال له (ص): «وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

وإذا ما تأملنا تاريخ الإسلام وألقينا نظرة واحدة إلى غزوات النبي وحروبه الجهادية تكشّف لنا دور الإمام علي (ع) الواضح والمشرق في تثبيت أركان الإسلام وتركيز مبادىء الرسالة الإسلامية.

فسيفه كان إحدى الركيزتين التي قام عليهما الإسلام، وقد كان المجلّى في كل حلبة ضد الكافرين،والمبرّز في كل مكرمة بين المسلمين.

خديجة بنت خويلد:

أم المؤمنين، وسيدة بيت النبوة، النزيهة العفيفة، والمؤمنة الشريفة، رافقت النبي في دعوته، وأعانته على مهمّته، فقدّمت أموالها في سبيل الله وخدمة لرسول الله لأنها آمنت به وصدّقت رسالته وبقيت ذكراها العطرة لم تفارقه، وقد أنصفها النبي (ص) عندما قال: «ما أبدلني الله خيراً منها وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»(١).

وباتفاق المسلمين أنها المرأة التي بشّرها النبي (ص) «عن لسان جبريل عن الله ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب»(٢).

فاطمة بنت رسول الله (ص): فاطمة الزهراء، وسيدة نساء العالمين، وابنة الرسول الأعظم، الذي اختاره رب العالمين مبشّراً ورسولاً، وسراجاً منيراً، هي أم الحسين سيد الشهداء وإمام الشاهدية.

إنها السيدة التي جمعت خصائص الرسالة المحمدية، فكانت بضعة من النبي محمد (ص) زهداً وعلماً، وتقى ووعياً، وعبادة ونبلاً، انعكست فيها خصائصه وصفاته، كان يحبها كثيراً، ويحترمها كثيراً، وقد ميّزها عن غيرها من البنات فلم يناديها مثلهن: يا ابنتي، بل: «يا أم أبيك».

وفيها قال: «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها فقد أغضبني»(٣)

كما قال أيضاً لها: «إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك».

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢٧ وكان جواب النبيّ رداً على سؤال عائشة عندما قالت له: «قد أبدلك الله خيراً منها».
(٢) المرجع نفسه.
(٣) راجع البخاري.

وعندما ماتت أسف أمير المؤمنين عليه السلام الأسف البالغ لموتها، فنزل على قبرها يسّوي جسدها الطاهر المطهّر، ويرثيها بكلام مؤثر فاض من أعماق قلبه الكبير.

ملامحه: ملامح جدّه رسول الله (ص)، كان يحاكيه في أوصافه، كما كان يحاكيه في أخلاقه، وقد وصفه محمد بن الضحاك فقال:

«كان جسد الحسين يشبه جسد رسول الله (ص)»[1] .

وقال الإمام علي (ع): «من سرّه أن ينظر إلى أشبه الناس برسول الله ما بين عنقه وثغره فلينظر إلى الحسن، ومن سرّه أن ينظر إلى أشبه الناس برسول الله (ص) ما بين عنقه إلى كعبه خلقاً ولوناً فلينظر إلى الحسين. . .»[2] .

بدت على وجهه أسارير الإمامة، يقول بعض المترجمين له: «كان له جمال عظيم، ونور يتلألأ في جبينه وخدّه، يضيء حواليه في الليلة الظلماء، وكان أشبه الناس برسول الله (ص)»[3] .

هيبته: كانت عليه سيماء الأنبياء، يحاكي هيبة جده (ص)، وقد وصفه أحد الجلّادين من شرطة ابن زياد بقوله:

«لقد شغلنا نور وجهه، وجمال هيبته عن الفكرة في قتله».

ولمّا قابله عبدالله بن الحر الجعفي امتلأت نفسه إكباراً وإجلالاً له وراح يقول: «ما رأيت أحداً قط أحسن، ولا أملأ للعين من الحسين»

هذه ملامح الأنبياء، وهذه سيماء الاتقياء، الذين يملأون عيون الناظرين إليهم، وتنحني الجباه خضوعاً وإكباراً لهم.

ألقابه: الشهيد ـ سيد الشهداء ـ الطيب ـ سيد شباب أهل الجنة ـ السبط

---

(١) المعجم الكبير للطبراني.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) مصابيح السنة ج ٢ ص ٢٠٢ وأنساب الأشراف ج ١.

لقوله (ص): «حسين سبط من الأسباط»[1] - الرشيد - الوفي - أبو الأحرار - أبيّ الضيم - التابع لمرضاة الله[2] - الدليل على ذات الله - المطهر - أحد الكاظمين[3] .

كنيته: كان يُكنى بأبي عبدالله[4] ، وذكر المؤرخون أنه لا كنية له غيرها[5] .

نقش خاتمه: كان له خاتمان أحدهما من عقيق نقش عليه: «إن الله بالغ أمره»[6] ، والثاني وهو الذي سلب منه بعد القتل يوم عاشوراء، وقد كتب عليه: «لا إله إلا الله عُدّد لقاء الله»[7] .

استعماله الطيب: كان يحبّ الطيب، وأفضله عنده المسك، لا يفارقه في حلّه وترحاله، كما كان يستعمل بخور العود في مجلسه[8] .

سكنه: أول دار سكنها مع أبويه كانت الدار المجاورة لبيت عائشة التي تتصل بباب من المسجد، وتعرف بدار فاطمة[9] .

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ج ٧ ص ٤٨ .
(٢) نور الأبصار ص ١١٤ .
(٣) دلائل الإمامة.
(٤) الإرشاد ص ١٠٣ .
(٥) الفصول المهمة ص ١٧٦ ونور الأبصار ص ١٥٢ .
(٦) نور الأبصار وقد جاء فيه «الكل أجل كتاب».
(٧) دلائل الإمامة ص ٧٣.
(٨) ريحانة الرسول ص ٣٨.
(٩) وفاء الوفاء للسمهوري.

التربية الحسينية

توفّر للإمام الحسين (ع) جميع العناصر التربوية، فأخذ بجوهرها ولبابها حتى أُعد إعداداً كافياً لقيادة الأمة، وتحمّل مسؤوليات الرسالة الإسلامية بجميع مستلزماتها وأبعادها، وقد امدّته بقوى روحية عميقة الأبعاد والطاقات الهائلة من الإيمان والصبر والشجاعة والثبات أمام الخطوب والمحن التي يعجز عن تحمّلها أي كائن حي من بني الإنسان.

من هذه الطاقات التربوية التي ظفر بها سبط الرسول (ص) وريحانته، وعملت على تزويده بأكبر الثروات الفكرية، والمبادىء الإصلاحية، والقواعد الأخلاقية، التي كانت وما زالت منائر تربوية خيّرة لتقويم الفرد والمجتمع على حد سواء:

أ ـ الأسرة:

لا يخفى ما للأسرة من أهمية فعالة في إيجاد عملية التطبيع الاجتماعي وتقويم شخصية الطفل حيث يكتسب العادات والأفكار التي تبقى ملازمة له طوال حياته، فالأسرة في نظر علماء الاجتماع هي البذرة الأولى التي تعمل في تكوين النمو الفردي، والسوك الاجتماعي.

ففي الأسرة يتعلّم الطفل اللغة، ويكتسب سلوك أهله والتقاليد الاجتماعية وقد أثبت علماء النفس أن أشد العقد خطورة وأكثرها تمهيداً للاضطرابات الشخصية هي التي تكون في مرحلة الطفولة الباكرة خاصة من صلة الطفل بأبويه[1].

---

(١) عن الأمراض النفسية والعقلية ـ حياة الإمام الحسين للقرشي ص ٤٦.

ففي هذه المرحلة يتعلم الأطفال خبرات هائلة من الثقافة والتعليم والتوجيه والإرشاد تؤهلهم في مستقبل حياتهم من المشاركة الفاعلة والتعاون الإيجابي مع غيرهم من أعضاء المجتمع

وأهم وظائف الأسرة عند علماء التربية هي ما يلي[1] :

١ ـ إعداد الأطفال بالبيئة الصالحة لتحقيق حاجاتهم البيولوجية والاجتماعية.

٢ ـ إعدادهم للمشاركة في حياة المجتمع والتعرّف على قيمه وعاداته.

٣ ـ توفير الاستقرار والأمنْ والحماية لهم.

٤ ـ إمدادهم بالوسائل التي تهيء لهم تكوين ذواتهم داخل المجتمع.

٥ ـ تربيتهم بالتربية الأخلاقية والوجدانية والدينية[2] .

فالإمام الحسين (ع) استناداً إلى هذه المبادىء التربوية كان صاحب الحظ الأوفر ليكسب مكارم الأخلاق، وفضائل الإسلام، وجميع العلوم والمبادىء التي يحتاجها الفرد في مجتمعه.

لقد نشأ الحسين في أسرة كريمة عريقة ما أظلّت قبّة السماء أسرة لا أذكى ولا أسمى من أسرة آل الرسول (ص)، تربية حسينية فذّة في ظلّ أسرة نبوية سامية.

ب ـ تربية الرسول الأعظم:

اهتم الرسول (ص) بتربية سبطيه كثيراً وأفاض عليهما مكرماته ومُثله، وغذاهما بقيمه وأخلاقه ليكونا صورة عنه.

وقد اتحفنا المؤرخون والرواة بهذا الاهتمام البالغ والاعتناء الزائد بالسبطين، الحسن والحسين، «سيدا شباب أهل الجنة» يقول اليعقوبي: «فكان

---

(١) النظام التربوي في الإسلام للقرشي.
(٢) نظام الأسرة في الإسلام للقرشي.

يصحبه معه في أكثر أوقاته فيشمّه عرفه وطيبه، ويرسم له محاسن أفعاله، ومكارم أخلاقه، وقد علّمه وهو في غضون الصبا سورة التوحيد»[١] .

ورد للنبي من تمر الصدقة فتناول منها الحسين (ع) تمرة وجعلها في فيه، فنزعها منه الرسول (ص) وقال له: «لا تحل لنا الصدقة»[٢] .

وقد عوّده وهو في سنّه المبكّر على الابتعاد عن الأشياء المحرّمة، فغرس في نفسه النزعات الخيّرة، وأبعده عن النزعات الشريرة. «وحسب ما دلّت عليه البحوث العلمية الحديثة أن تناول الطفل للأغذية المحرّمة مما يوقف فعّاليته السلوكية ويغرس في نفسه النزعات الشريرة كالقسوة، والاعتداء، والهجوم المتطرف على الغير، وقد راعى الإسلام باهتمام بالغ هذه الجوانب فألزم بإبعاد الطفل عن تناول الغذاء المحرّم»[٣] .

جـ ـ تربية أمير المؤمنين:

الإمام علي (ع) هو المربّي الأول بما وضعه من أصول تربوية ومناهج سلوكية وقواعد أدبية، فغذّى أولاده بالآداب والأخلاق والحكمة والنزاهة والعفة ومكارم الأخلاق، فوجههم نحو الخير والحق، وزوّدهم بوصايا كريمة حافلة بالقيم العالية والمثل الإنسانية، وقد اخترنا هذه الوصيّة العظيمة الحافلة بالآداب الاجتماعية وكلّ ما يحتاج إليه الناس في سلوكهم وحياتهم الخاصة والعامة وهي أروع ما جاء في الإسلام من الأسس التربوية والقواعد الأساسية في الاستقامة والتوازن والسلوك الحسن، قال عليه السلام:

«يا بني، أوصيك بتقوى الله عزّ وجلّ في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والقصد (الغضب)[٤] في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله تعالى في الشدّة والرخاء.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٩.
(٢) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٠١.
(٣) النظام التربوي في الإسلام ص ٩٢.
(٤) وردت في نسخته ثانية.

اعلم يا بني من أبصر عيب نفسه شُغل عن غيره، ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته، ومن سلّ البغي قتل به، ومن حفر بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم البحر غرق، ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ.

ومن سفه عليهم شتم، ومن دخل مداخل السوء اتُهم، ومن خالط الأنذال حُقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخفّ به، ومن أعتزل سلم، ومن ترك الشهوات كان حراً، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس.

يا بني عزّ المؤمن غناه عن الناس، والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه، العجب ممن خاف العقاب ورجا الثواب فلم يعمل، الذكر نور والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والسعيد من وعظ بغيره، والأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين.

يا بني ليس مع قطيعة الرحم نماء، ولا مع الفجور غنى...

يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله، وواحد في ترك مجالسة السفهاء، ومن تزيّن بمعاصي الله عزّ وجلّ في المجالس ورثه ذلاً، من طلب العلم علم.

يا بني رأس العلم الرفق، وآفته الخرق، من كنوز الإيمان الصبر على المصائب، العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى، ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطأه، ومن كثر خطأه قلّ حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

يا بني كثر الزيارات تورث الملالة، يا بني الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم، إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

يا بني كم من نظرة جلبت حسرة، وكم من كلمة جلبت نقمة، ولا

شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعلى من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف تعجّل الراحة وتبوّأ حفظ الدعة، الحرص مفتاح التعب، ومطيّة النصب، وداع إلى التقحّم في الذنوب، والشر جامع لمساوىء العيوب.

وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك، لأخيك مثل الذي عليه لك، ومن تورّط في الأمور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب، التدبير قبل العمل يؤمنك الندم، من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ، الصبر جُنَّة من الفاقة، في خلاف النفس رشدها، الساعات تنقص الأعمار، ربك للباغين من أحكم الحاكمين، وعالم بضمير المضمرين.

بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد، في كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، ما أقرب الراحة من التعب، والبؤس من النعيم، والموت من الحياة، فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله، وحبه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وبخ بخ لعالم علم فكف، وعمل فجدّ، وخاف التباب[1] فأعدّ واستعدّ، إن سئل أفصح، وإن ترك سكت، كلامه صواب، وصمته من غير عيٍ عن الجواب، والويل كل الويل لمن ابتلي بحرمان وخذلان وعصيان، واستحسن لنفسه ما يكرهه لغيره من لانت كلمته وجبت محبّته، من لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة، ولا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس، ولا أي طعاميه أكل»[2].

في هذه الوصية الجامعة لآداب السلوك وتهذيب الأخلاق، والدعوة إلى تقوى الله، نجد أنها الأساس في وقاية النفس من الانحراف وتوجيهها الوجهة الصالحة إلى الهدى والرشاد والسلوك الفردي والجماعي، وهي نموذج تربوي

---

(١) التباب: الهلاك والخسران، ومنه قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾.
(٢) الإعجاز والإيجاز ص ٣٣.

شامل فيه الحكمة الإنسانية، والتربية الاجتماعية التي تفيد كل الأجيال في كل حال.

د ـ تربية الزهراء (ع):

اهتمّت سيّدة نساء العالمين بتربية وليدها الحسين ككل امرأة صالحة عالمة، فغمرته بالعطف والحنان ليشعر بذاتيته ويمتلك شخصية مستقلة بعد أن غذّته بالآداب الإسلامية، والاستقامة الكاملة، والاتجاه المطلق السليم نحو الخير والحق والسلام.

قال العلايلي: «. . . فالسيدة فاطمة أتمّت في نفسه فكرة الخير، والحب المطلق، والواجب، ومدَّدت في جوانحه وخوالجه أفكار الفضائل العليا بأن وجّهت المبادىء الأدبية في طبيعته الوليدة من أن تكون هي نقطة دائرتها إلى الله الذي هو فكرة يشترك فيها الجميع.

وبذلك يكون الطفل قد رسم بنفسه دائرة محدودة قصيرة حين أدار هذه المبادىء الأدبية على شخص والدته، غير متناهية حين جعلت فكرة الله نقطة الارتكاز، ثم أدارت المبادىء الأدبية والفضائل عليها فاتسعت نفسه لتشمل وتستغرق العالم بعواطفها المعذبة، وتأخذه بالمثل الأعلى للخير والجمال. . .»[1].

نشأ الإمام الحسين (ع) في جو تلك الأسرة العريقة العظيمة التي لم يعرف التاريخ الإسلامي والإنساني نظيراً لها في الهدي والإيمان، وقد أثّرت هذه التربية المثالية في الوليد فكان خير خلف لخير سلف، ومن أبرز الأئمة المسلمين، وضع الشيء في مكانه، وعاش متجاوزاً نفسه في كل حال.

هـ ـ الوراثة:

جاء في تعريف الوراثة أنها مشابهة الفرع في المظاهر الشكلية والخواص النفسية والذاتية، قال علماء الوراثة أن ذلك أمر بيّن في جميع الكائنات الحية

---

(١) الإمام الحسين ص ٢٨٩.

فبذور القطن تخرج القطن، وبذور القمح تخرج القمح... والزهور تخرج الزهور...

وكثير من الصفات الوراثية تنتقل بدون تجزئة أو تغيير من أحد الأصلين أو منهما معاً إلى الفرع...

فكل كائن عضوي لا بدّ وأن يرجع بالوراثة إلى التكوين الوراثي الذي يضع الحدود لما هو محتمل، والبيئة تقرر أن هذا الاحتمال سيتحقّق، وهي التي تحدّد وقوع تلك الميّزات وظهورها إلى الخارج، وبذلك تُعدّ البيئة عاملاً مساعداً للوراثة حسب البحوث التجريبية.

وقد أكد علماء الوراثة أن الأبناء والأحفاد يرثون معظم صفات آبائهم وأجدادهم الجسمية والنفسية. وهي تنتقل بلا اختيار من الجد أو الأب إلى الحفيد أو الابن.

«... تأتي فرديتنا إلى الوجود حينما يدخل الحويمن في البويضة، ولكن عناصر الذات تكون موجودة قبل هذه اللحظة ومبعثرة في أنسجة أبوينا وأجدادنا وأسلافنا البعيدين جداً لأننا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية، وتتوقف في الماضي على حالة عضوية لا تتحلل... وتحمل في أنفسنا قطعاً ضئيلة لأعداد من أجساد أسلافنا، وما صفاتنا ونقائصنا إلا امتداد لنقائصهم وصفاتهم...»(١).

والإسلام اكتشف قبل غيره هذه الظاهرة، ودلّل على فاعليّتها في التكوين النفسي والتربوية للفرد، فأكد على حسن الاختيار بين الزوجين، جاء في الحديث الشريف.

«تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس» وقال أيضاً (ص): «إياكم وخضراء الدمن»(٢).

كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين

(١) النظام التربوي في الإسلام للقرشي ص ٦١.
(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي.

دياراً. إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[1] .

على ضوء هذه الظاهرة التي أكدها علماء الوراثة وثبّتها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ليجزم بأن سبط الرسول (ص) قد ورث من جده (ص) ومن أبيه وأمه (ع) صفاته الخَلْقية والنفسية، ومكوّناته الروحية التي تفرّد بها دون سائر الناس، وقد رودت روايات كثيرة تثبت مدى ما ورثه السبطان عن جدهما ووالديهما، ذكرنا بعضها في فصل (الهوية).

جوانب من شخصية سيد الشهداء:

بأي كلام نبدأ عن سيد الشهداء، وأي جانب نصف من كبير العظماء وبأي أسلوب نكشف عن ابن سيد البلغاء وصاحب نهج البلاغة الذي كان ولم يزل ينبوعاً لا ينضب لكل من أراد تعلم فن القول.

من أين نبدأ الكلام عن رجل وقف مع نفسه وقفة الأبطال، ورفع عن كاهل مجتمعه أكبر الأثقال، وقام بتنفيذ أهم وصية وأثقل الأحمال، وعلَّم المجاهدين وثبة الأجيال.

ماذا نقول عن أكبر مصلح اجتماعي رسم للثوار من بعده منهجاً سليماً قويماً في صراع الحق مع الباطل حتى صرع الفساد وأهله، مصلح وضع خطة في مناصرة الحق والالتزام به مهما بلغت التضحيات لكل المجاهدين، فكتب بدمه الزكي الأحمر تاريخ الإنسانية المشرق.

من مكارمه الكثيرة نذكر بعضاً منها كما رويت لنا: جاءه يوماً سائل يريد العون، فوجده يصلي، فلما أنجز التفت إليه فبصر به ذا فاقة وسوء حال فدعا إليه بخادمه وسأله: ما الذي بقي من نفقتنا؟

فأجاب: مئتا درهم أمرتني بتفريقها في أهل بيتك.

---

(1) سورة نوح، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

قال (ع): فهاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم.

فدفعها إلى السائل الأعرابي، عندها أنشأ هذا يقول:

مطهّـــرون نقيّـــات جيـــوبهـــم ... تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
وأنتـــم أنتـــم الأعلـــون، عنـــدكـــم ... علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علوياً حين تنسّبه ... فماله في جميع الناس مفتخر

وكان من طبعه (ع) البلاغة والفصاحة، فقد عاشها في المهد من جده وأبيه وأهل بيته أجمعين، يقصده الشعراء والأدباء وأصحاب اللسن والفصاحة ليسمعوه وينالوا ثناءه، أو يتقبلوا إشارته، وكان في الموضع الذي تعلو إليه العين في الذوق الأدبي والفهم اللوذعي، وإذا سأل سائل حاجة فالإمام الحسين (ع) خير من يقضيها، ويؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة.

وقد كان كجدّه الرسول (ص) مذواقاً يحبّ الجميل والجمال ويحب العطور.

جاءته يوماً جارية تحمل في يدها زهيرات نضرات يفوح منها العطر وقدمتها إليه بعد أن سلّمت بخفر، فتناولها بيده الكريمة (ع) وقال لها: «أنت حرة لوجه الله تعالى» عندئذٍ قال له بعض جلسائه: ألهذا الحد يا ابن الأكرمين؟ تعتق على باقة ريحان؟

فأجاب الإمام المعصوم: «كذا أدّبنا ربنا، ألم تسمع قوله تعالى: **﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾**.

وهكذا كما نرى جاء أحسن من التحية منح الحرية!

كتب إليه رجل: عظني بحرفين.

فكتب إليه: من حاول أمراً بمعصية كانت أفوت لما يرجو وأسرع لمجيىء ما يحذر.

وقال (ع): إياك وما تعتذر منه فإن المؤمن لا يسيىء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيىء ويعتذر.

وأما إحسانه إلى أرباب الفاقة والحاجات فالحديث عنه عطر كشمائله:

جاءه رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة فقال (ع): يا أخا الأنصار، صن وجهك عن ذل المسألة، وارفع إليّ حاجتك في رقعة فإني آت فيها ما سارك إن شاء الله.

فكتب: يا أبا عبدالله، أن لفلان عليّ خمسمائة دينار وقد ألحّ بي فكلّمه ينظرني إلى ميسرة.

فلما قرأ الحسين (ع) الرقعة دخل إلى منزله فأخرج صرّة فيها ألف دينار وقال (ع) له:

أما خمسمائة فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك، ولا ترفع إلا إلى أحد ثلاثة: إلى ذي دين أو مروءة أو حسب، فأما ذو الدين فيصون دينه وأما ذو المروءة فإنه يستحي لمروءته، وأما ذو الحسب فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبذله له في حاجتك فهو يصون وجهك أن يردّك بغير قضاء حاجتك.

وكل ما عليها في نظره فهو رخيص وفانٍ وثواب الله أرقى وأبقى وأنبل، والمال مال الله، والإنسان يغيّر به من حال إلى حال ثم يتركه.

وكان يقول (ع):

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة	فدار ثواب الله أغلى وأنبل
وإن تكن الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به الحر يبخل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدّراً	فقلّة حرص المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت	فقتل امرىء بالسيف في الله أفضل

يروى عنه أن كل الهدايا التي كانت تقدّم له يعمد إلى توزيعها على مجاهدي الأمة، والذين أبلوا بلاءً حسناً مع أبيه(ع)، أو أولئك الذين يتعفّفون عن المسألة، فيقدّم لهم كل ما أهدي إليه.

حتى أن خصومه وأعداء أبيه كانوا يبالغون في اكتشاف عيبٍ يصمونه به

فلا يجدون، ومنهم يزيد بن معاوية، لم يلق عند الحسين عيباً يسبّه به.

عرف عنه أنه لم يكن قاسياً في مجابهة المخطىء بل كان يصبر عليه ويصمت عسى أن يفطن المتجاوز إلى خطأه، أو أنه يشير بلطفٍ مصحّحاً هادياً، إلا إذا وقع ما لا يجب أن يقع فإنه لا يقصّر في أن يضع الشيء في مكانه، ويُلقي بقوارص الكلام كما عرف عن صاحب نهج البلاغة (ع).

يروى عنه أنه مرّ بأعرابي يتوضأ ولا يحسن الوضوء، وكان برفقة أخيه الحسن عليهما السلام، فدنا منه الحسين قائلاً: نحن شابان وأنت شيخ فربما كنت أعلم منا بأمر الصلاة والوضوء، فهل لنا في أن نتوضّأ ونصلي عندكِ؟

ففطن الأعرابي واجتهد في تحسين عبادته.

فتأمل هذا الخلق الرفيع وهذا الأسلوب البديع في تحقيق الأهداف وبلوغ الغايات، وقالوا أنه لقي في بعض دروبه مساكين يأكلون من خشن العيش فدعوه ليشاركهم، فلبّى دعوتهم بكل لطف وشاركهم، ثم توجّه إليهم بعد حمد الله وشكره قائلاً: ألا ينبغي أن تستجيبوا دعوتي إلى الغذاء في بيتي كما استجبت لكم؟

فقبلوا واشتركوا كما يشترك الذين رضعوا من لبن واحد في طعام واحد.

وكم حاول معاوية المعروف بدهائه أن يستميله ويسترضيه، وقد بذل في سبيل ذلك الكثير من المال، ولكنه لم ينجح في كل مشاريعه لأنه لم يجد من الإمام الحسين (ع) إلا الترفّع والزهد بكل حطام الدنيا وزخارفها الخادعة، الدنيا في نظره غرض زائل والأعمال الصالحات خير وأبقى للدنيا والآخرة.

في يوم احتاج الحسين (ع) إلى المال وركبه الدَّين، وكان له عقار يدعى «عين أبي نيرز» فاحتال معاوية وبذل جهده ليشتريه بمئتي ألف دينار، ثم زادها أضعافاً فرفض الحسين (ع) وهو أحوج ما يكون إلى بعضها، إذ كيف يبيع ماءً أوقفه أبوه على الفقراء في المدينة؟ ثم هل يترك الفرصة لمعاوية ليشتري العين ثم يتباهى بتقديمها إلى سائر الناس هبة يزهو بها على حفيد رسول الله؟

الإمام الحسين المعصوم ابن المعصوم يرى بعين ثاقبة إلى أبعد من ذلك وهو الذي تمرّس بالحياة حتى بات قدوة صالحة لجميع التائهين.

أما عن تقواه فماذا ترانا نستطيع القول؟.

كان عليه السلام يُقبل على صلاته إقبال العاشق على ما يعشق، خاشع الدعاء، نقي الابتهال، يستحضر فيها نعمة ربه وجلاله وعظمته حتى يغيب في نجواه واستغفاره.

ومن كرمه وإحسانه (ع) أن جاءه أعرابي فقال: يا ابن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها، فقلت في نفسي: أسأل أكرم الناس، وما رأيت أكرم من أهل رسول الله (ص).

فقال الحسين (ع): يا أخا العرب أسألك عن ثلاث مسائل فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال، وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي المال، وإن أجبت عن الكل أعطيتك الكل.

فقال الأعرابي: يا ابن رسول الله، أمثلك يسأل مثلي وأنت من أهل العلم والشرف؟!.

فقال الحسين (ع): بلى سمعت جدي رسول الله (ص) يقول: المعروف بقدر المعرفة.

عرابي: سل عما بدا لك، فإن أجبت وإلا تعلّمت منك، ولا قوة إلا بالله.

فقال الحسين (ع): أي الأعمال أفضل؟.
فقال الأعرابي: الإيمان بالله.
فقال الحسين (ع): فما النجاة من الهلكة؟
فقال الأعرابي: الثقة بالله.
فقال الحسين (ع): فما يزين الرجل؟
فقال الأعرابي: علم معه حلم.

قال: فإن أخطأه ذلك؟
فقال: مال معه مروءة.
قال: فإن أخطأه ذلك؟
فقال: فقر معه صبر.

فقال الحسين (ع): فإن أخطأه ذلك؟

فقال الأعرابي: فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه، فإنه أهل لذلك.

فضحك الحسين (ع) ورمى له بصرّة فيها ألف دينار وأعطاه خاتمه وفيه فصٌّ قيمته مائتا درهم وقال: يا أعرابي، اعط الذهب إلى غرمائك، واصرف الخاتم في نفقتك.

فأخذ الأعرابي ذلك وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

دخل الحسين (ع) على أسامة بن زيد وهو مريض، وهو يقول: واغمّاه!.

فقال: وما غمّك يا أخي؟
قال: دَيني، وهو ستون ألف درهم.
فقال الحسين (ع): هو عليَّ.
قال: إني أخشى أن أموت.

فقال الحسين (ع): لن تموت حتى أقضيها عنك.

فقضاها قبل موته[2].

لقد استأثر حديث كرم وإحسان سيد الشهداء باهتمام الرواة والمؤرخين والتراجم، ولا غرو في ذلك فهو ابن أمير المؤمنين (ع) الذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن، لأنفق تبره قبل تبنه[3].

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ١٢٩.
(٢) بحار الأنوار ج ١٠ ص ١٤٣.
(٣) أئمتنا لعلي محمد دخيل، وهذه كلمة معاوية في الإمام علي أمير المؤمنين ص ١٩٣.

ومن مظاهر شخصيّته الفذّة:

قوة الإرادة: إرادة جبارة قوية واجه بها أبو الأحرار الحكم الظالم واستطاع التغلب على مجريات الأحداث، ولا غرابة فقد ورث هذه الظاهرة الكريمة من جده الرسول الأعظم الذي غيّر مجرى التاريخ، وقلب مفاهيم الحياة، ووقف صامداً أمام القوى الهائلة ليقول كلمة الله.

قال لعمه أبي طالب: «والله لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بيساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى أموت أو يظهره...».

وكذلك وقف سبطه العظيم فأعلن رفضه القاطع ليزيد بلا تردد، وانطلق إلى ساحات الجهاد مع قلّة الناصر ليرفع كلمة الحق ويدحض كلمة الباطل، وقد حشدت عليه الدولة الأموية جيوشها الجرارة، فلم يحفل بها بل تابع تصميمه قائلاً كلمته الخالدة: «لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما».

وانطلق مع أسرته الكريمة وأهل بيته الأطهار وأصحابه الأبرار إلى ميدان الشرف ليرفع راية الإسلام ويحقّق أعظم الانتصارات المعنوية إلى الأمة الإسلامية، وهو من أقوى الناس إرادة، وأمضاهم عزيمة، حتى استشهد عليه السلام منفّذاً كلمة الله، ومحافظاً على عهد الله.

أبيّ الضيم: الإباء عن الضيم كانت الصفة البارزة عند الإمام الحسين (ع) حتى لقّب «بأبيّ الضيم».

كان المثل الأعلى في رفع شعار الكرامة الإنسانية ورسم طريق العزّة والشرف، فآثر الموت تحت ظلال السيوف على الخضوع لطغاة بني أمية. قال: «... لقد ركز بين السلّة والذلّة وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون...».

وإني أرى كما رأى سابقاً أبو زيد العلوي أن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين (ع):

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما بدا لها الليل إلا وهي من سندس خضر[1]

لقد أعطى أبو الأحرار درساً عظيماً للناس عامة في النبل والتضحية، وقد وصفه المؤرخ الشهير اليعقوبي بأنه شديد العزّة[2].

يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: «سيد أهل الإباء، الذي علّم الناس الحميّة، والموت تحت ظلال السيوف اختياراً على الدنيّة، أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) عُرِضَ عليه الأمان هو وأصحابه فأنف من الذل، وخاف ابن زياد أن يناله نبوع من الهوان مع أنه لا يقتله فاختار الموت على ذلك».

وقف كالجبل الأشم يوم الطف غير آبهٍ ولا حافلٍ بتلك الوحوش الكاسرة من جيوش الردّة الأموية، ملقياً على الأجيال أروع الدروس عن الشرف والكرامة وعزّة النفس، قال قولته الشهيرة:

«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد».

وتسابق الشعراء في تصوير هذه الظاهرة الحسينية الكريمة، فقال السيد حيدر الحلي في رائعته الخالدة:

طمعت أن تسومه القوم ضيماً وأبى الله والحسام الصنيع
كيف يلوي على الدنية جيداً لسوى الله ما لواه الخضوع
ولديه جأش أرد من الدرع لظمأى القنا وهي شروع
وبه يرجع الحفاظ لصدر ضاقت الأرض وهي فيه تضيع

---

(١) راجع الديوان وأعلام في العصر العباسي للمؤلف.
(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٣.

فـأبـى أن يعيـش إلا عـزيـزاً أو تجلّى الكفاح وهو صريع[1]

إنه لوصف بليغ! لقد أرجع جميع طاقات الحفّاظ والذمام لصدر الإمام التي ضاقت الأرض من صلابة عزمه وتصميمه، بل إنها على سعتها تضيع فيه.

الشجاع: لم نر في جميع مراحل التاريخ من هو أقوى جناناً وأربط جأشاً وأصلب عوداً في المواقف الحرجة كالحسين بن علي (ع)، لقد وقف يوم الطف وقفة الأبطال، أذهل فيه أعظم الرجال،وحيّر عقول الأجيال، التي وقفت منه بإكبار وإعجاب، تقدّر صلابة عزمه وعزم بسالته وبسالة إقدامه.

بقي كالطود الراسخ وكالحصن الحصين يزداد انطلاقاً كلما ازداد الموقف بلاء، لقد بُهر أعداؤه الجبناء بقوّة بأسه، فبعد أن فقد أصحابه وأهل بيته زحف عليه الجيش بأسره[2] فحمل عليهم وحده ومعه سيف جده وقلب أبيه والإيمان بالله، فانهزموا أمامه كما تنهزم المعزى إذا شدّ عليها الذئب ـ على حدّ تعبير الرواة.

سيف علوي واحد يقابل ثلاثين ألف سيف أموي، سيف الحق يقابل سيف الباطل فيمضي مستبسلاً مستخّفاً بالمنيّة، يقول السيد حيدر الحلي:

فتلقّـى الجمـوع فـرداً ولكـن كـل عضـوٍ فـي الـروع منه جمـوع
رمحـه مـن بنـانـه وكـأنّ مـن عـزمـه حـدّ سيفـه مطبـوع
زوّج السيـف بـالنفـوس ولكـن مهرها الموت والخضاب النجيع

ولما سقط أبيّ الضيم على الأرض جريحاً وقد أعياه نزف الدماء تحامى الجيش بأسره من الإجهاز عليه خوفاً منه ورعباً.

لقد تحدى أبو الأحرار ببسالته النادرة الطبيعة البشرية فسخر من الموت وهزأ من الحياة، قال للموت: قد تجيء أيها الموت في كل لحظة ولكني لا أخافك، أريد أن تموت أنت وأن أحيا أنا في قلوب المؤمنين إلى الأبد الأبيد

---

(١) ديوان حيدر الحلي ص ٨٧.
(٢) يقول المؤرخون أنهم كانوا ثلاثين ألفاً بين فارس وراجل.

قطرة في محيط التاريخ، قال لأصحابه حينما مطرت عليه سهام الأعداء:

«قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم»[1].

فتأمل بالله عليك! يدعو أصحابه إلى الموت وكأنه يدعوهم إلى مأدبة طعام لذيذة. يا إلّهي! إنه نسيج وحده في الشجاعة والإيمان، تقف الأقلام باردة الأعصاب خائرة القوى عن وصفه!!.

صريح:

صريح في قوله، صريح في سلوكه، صريح في كل أعماله وتصرفاته، سلك طريقاً واضحاً كالشمس، متجاوباً مع ضميره الحي العطراً، مبتعداً عن المنعطفات التي لا يقرّها دينه القويم وخلقه السليم.

جاءه حاكم المدينة في غلس الليل وطلب منه البيعة ليزيد بعد أن أحاطه علماً بموت معاوية، فامتنع الإمام الأبي وصارحه قائلاً:

«... إنا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله...».

ومن ألوان الصراحة الحسينية النادرة في تاريخ الأرض أنه (ع) في اليوم العاشر من المحرم جمع أهل بيته وأصحابه وأحاطهم علماً بأنه خاسر المعركة وسوف يقتل في الغد، ويقتل معه جميع من كان معه، صارحهم وكاشفهم على بصيرة كاملة وصراحة تامة ثم أمرهم بالتفرق، مع علمه أنه بأشد الحاجة إلى الأنصار، فتفرق عنه ذوو الأطماع، وبقي مع الصفوة من أهل بيته[2].

حليم:

كان (ع) لا يقابل مسيئاً بإساءة ولا مذنباً بذنب بل كان يغدق على

---

(١) راجع شرح النهج ج ٢ ص ٢٦٣.
(٢) أنساب الأشراف ج ١.

المذنبين بفضائله وأخلاقه الحسينية التي عرف بها، شأن جده المصطفى (ع) الذي وسع الناس جميعاً بأخلاقه العالية حتى وصفه الله جلّ وعلا: ﴿**إنك لعلى خلق عظيم**﴾.

وقد عرف الحسين (ع) بهذه الظاهرة وشاعت عنه حتى طمع به الناس واستغلها بعض مواليه، فكان بعضهم يعمد إلى اقتراف الخطأ والإساءة إليه لينعم عليه بصلته وإحسانه.

أجمع المؤرخون أن بعض مواليه قد جنى عليه جناية توجب التأديب فأمر (ع) بتأديبه، فأنبرئ العبد قائلاً: يا مولاي، إن الله تعالى يقول: ﴿**والكاظمين الغليظ**﴾[1].

فابتسم الإمام بابتسامته المعهودة وقال له: «خلّوا عنه، فقد كظمت غيظي...».

وعندها سارع العبد قائلاً: ﴿**والعافين عن الناس**﴾.

فقال الإمام (ع): «قد عفوت عنك».

فتشجّع العبد وطلب المزيد من الإحسان فقال: ﴿**والله يحب المحسنين**﴾.

فما كان من الإمام (ع) إلا أن عفا عنه قائلاً: «وأنت حرّ لوجه الله...» ثم أمر له بجائزة سنيّة تغنيه عن الحاجة ومسألة الناس.

هذه هي أخلاق حسينية، أخلاق أهل البيت (ع)، فكلّهم أئمة معصومون، تخرّجوا من جامعة الرسول الأعظم ونهلوا من المدرسة العلوية وتأدبوا بآداب القرآن الكريم وقال تعالى عنهم:

﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.

نبيل عطوف:

كان «أبو الأحرار» شديد الرأفة بالناس جميعاً من أصدقاء وأعداء. يسعف كل ذي حاجة ويغيث كل ملهوف.

من ألوان تلك الصور الإنسانية الرائعة التي تظهر عطف الإمام ورأفته في عباد الله ما حدث للحر وجيشه عندما أرسل لقتاله، رآه الإمام وقد أشرف على الهلاك من شدة العطش هو وجيشه فلم تدعه أريحيته الحسينية العلوية النبوية أن يتأخّر عن مساعدة القوم وإنقاذهم فأمر (ع) غلمانه وأهل بيته أن يسقوا القوم عن آخرهم، ويسقوا معهم خيولهم أيضاً.

فسقوهم عن آخرهم، وكان من بين العطاشى علي بن الطعان المحاربي الذي اشتد به العطش فلم يدر كيف يشرب فقام الإمام بنفسه وسقاه.

وكانت هذه البادرة الرائعة التي لم يسجّل في تاريخ الإنسانية مثيلاً لها! أعداء الحسين (ع) جاؤوا لقتله سمح لهم بالشرب وشهامته وكرامته ونبله وعزّة نفسه لا تسمح له إلا أن يشعر مع بني البشر.

ولكن هل حفظوا الجميل؟! لقد عادوا وقاتلوا الحسين (ع) ومنعوه من شرب الماء واستشهد مع أهله وأصحابه عطشاناً.

لكنها الأخلاق الحسينية النبيلة، أخلاق أبيه وجده التي سجلت على التاريخ صفحات بيضاء أصبحت دروساً وعبرة وعظة لكل من أراد أن يسمو فوق الطين، ويتجاوز ذاته في سلّم الوصول إلى الإنسانية الحقّة.

إنها الغمامة المحمّلة بإيحاءات البحر الخيّرة، ونسمات الفلك الكريمة، فتحت فمها لتقول كلمة العودة إلى المنبع الثري الأصيل مثلما تئن الأوتار والنايات لتعود إلى قلب الأرض وهي تحدو حداء الصيرورة، وتنشد نشيد الجمال الأعظم والحب الأكبر! والله أكبر!! وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الأطهار وأصحابه المنتجبين الأبرار. والحمد لله رب العالمين.

المنبت الحسن

يقول علماء التربية والاجتماع أن الفروع تتبع الأصول، والأصل الطيب يعطي نبتاً طيباً وثمراً طيباً.

إن هاشم الذي هشم الثريد لقومه، هو عدناني شمالي، وبين الشمال والجنوب منافح قرابة، ومشابه نفوس، إلا أن هذا الشمال أعرق بكثير من يمن الجنوب.

فأبناء الشمال هم أصحاب اللغة التي قدّمت الشعر الجاهلي، وقبله لغة «قدوم بن قادم» و «ابن حزام» و «النبي أيوب» وسواهم ممّن غطّت آفاقهم رمال شبه الجزيرة العربية، وقد أشار القرآن الكريم إليهم بقوله:

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرَمَ ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[1].

هؤلاء الذين كانت لهم حضارة وعمران ظهر بعض ملامحه في بطرٍ، ومعظمه مطمور، وصداه في قلاع الجنوب وقصوره.

أدب الشمال هو الأدب الذي ركّز الأساس المتين، ومدّ الفروع والمشارف ولم نعثر على ما يستحق الدرس والعناية في أدب الجنوبيين أو سواهم من العرب البائدة، أو سكان البقاع الأخرى.

هاشم كان في مكة، ومكة عاصمة الشمال، تتميّز بموقعها الجغرافي،

---

(١) سورة الفجر، آية: ٦ ـ ٧ ـ ٨.

ومركزها التجاري، ومداها الثقافي، وأثرها السياسي، إلى جانب احتوائها الكعبة الشريفة، مطاف العرب جميعاً، والقائمون على أمور الكعبة هم بنو هاشم بما لهم من احترام ديني وتسام في الشمائل ورثوه كابراً عن كابر.

مكة مدار أسرة واحدة قريش، وقريش بطون وأفخاذ، توزّعت أدوار الزعامة بين فروعها، وتمثّل ذلك في حلف «الفضول» وهو أرقى ما يصل إليه تشكيل جماعي في سبيل حضارة راقية موسومة بالتسامي، بيد أن ذروتي ذلك الهرم القرشي المكي كانا فرعي: هاشم وأمية، لهاشم زعامة دينية ولأمية زعامة مالية وسياسية.

الملامح الهاشمية: جمال المظهر ونقاء المخبر، قوة جسدية شجاعة، قامات مشيقة، حضور مهيب، ومثالية ذات أبعاد في العلوم والأخلاق.

إلى جانب هذا كله: فصاحة بارعة، وبلاغة عالية، وإيمان بالإله الواحد، بدا ذلك كله في أبي طالب، وحمزة، والعباس، وعبدالله أبناء عبد المطلب شيخ مشايخ قريش، وتجلى في الإمام الحسين (ع) وأبنائه تجلي المجرّات في السماء.

الملامح الأموية: بين البدانة والنحافة، والسمرة والبياض، ذكاء فيه الحيل، وحب المال، والمنعة الشخصية، وهوس بالمناصب الدنيوية والتسلّط! ظهر هذا جلياً في أبي سفيان، ومروان بن الحكم، ومعاوية ويزيد ومن تسلسل منهم.

من هنا يرتسم في البال مزاجان مختلفان، لعل إرجاعهما إلى اللمغاوية والعصبية، يشرح بعض الخصال ويلقي الضوء على السلوك، وها نحن نرى ذينك النمطين ممثلين في حكم الخلافة.

عند ظهور الإسلام قام الفقراء والمحرومون والعبيد يؤيدون الدعوة تأييداً كاملاً إيماناً بعقيدة أو طلباً للخلاص، وآذى الدعوة رجال الزعامة والمال والوجاهة، والضلال والجهل والجهالة.

كان من الفريق الأول: علي وسلمان وحمزة وخديجة وبلال وصهيب

وآخرون، وكان من الفريق الثاني: أبو سفيان وأبو لهب ومن جرى مجراهما.

امتدّت خصومة أبي سفيان للنبي (ص) حتى فتح مكة، فكان الذين أرغموا على قبول الأمر الواقع وسموا «بالطلقاء» هم الذين قالوا:

«أطعم بنو هاشم فأطعمنا، سقوا فسقينا، رفدوا فرفدنا، ثم قالوا: منّا نبي يُكلّم من السماء، فأنّىٰ لنا هذا؟».

والذي يبدو أن إيمان الجذوع الأموية العتيقة بالإسلام كان يجري على اللسان دون القلب، كان إيماناً سطحياً، لم ينفذ إلى أعماق الصدور، ولا عبرة بحرص بعضهم على شعارات احتفظوا بها بعيدة كل البعد عن أهداف رسول الله (ص)، منها قليمات من أظفاره، وقميص أهداه إياه الرسول الكريم كي يعلو في نظر المسلمين!!.

إن الصلاح والهداية لا يتوقفان على شعارات ومظاهر قشرية، ذلك أن العمل الجاد والبركة الحقيقية والإيمان الصحيح تكمن كلها في العمل الصالح المنجي.

رب قائل يقول: فتح الأمويون ممالك كثيرة وبقاعاً واسعة باسم الإسلام وهذا أمر قد حصل، ولم يعن الإمام علي ولا ولده الإمام الحسين بشيء من ذلك، وهذا صحيح أيضاً، فأين وجه الصواب؟ وكيف تكون المفاضلة؟

إخوة الإيمان، نقول بمنطق وتجرّد أن:

- شهوة الفتح كشهوة الحكم وكلتاهما فرع من حب العيش، وصدى لغريزة حب التملك والتسلط، والحياة الدنيوية، والحرص على النسل والإرث.

وهنا ينبغي أن نقارن بين معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد الذي تجاوز كل حد، وبين علي بن أبي طالب وبنيه الذين لم يترجموا إلا قرآناً ووحياً إلٰهياً.

- لقد ذهب الفتح والفاتحون، وانطفأت قناديل الفتوحات، فلم يبق من

كل مدى حيوي، بعضه باسم الذات، والبعض الآخر باسم الإسلام، وخيّم بؤس الشخصية الإسلامية على مئات الملايين الموزّعين على سطح الكرة الأرضية. وهم محكومون اليوم بالأسلوب الذي حكم به معاوية وابنه يزيد بتغليب الوراثية والنفعية والاستبدادية، ولم يسجل الأمويون موقفاً من مواقف المجد الأخلاقي والإنساني باستثناء عمر بن عبد العزيز.

- دعىٰ الهاشميون من علي وأبنائه إلى ضرورة وعي الناس أنهم أحق بالخلافة، وهي دعوة منوطة بالأسرة، ولكنهم لم يدعوا إليها وهم محكومون بغرائز الاستبداد والأثرة، وحب التوريث، بل كانوا أهلاً للحكم وكانوا أصحاب حق، وكانوا أصحاب مواقف ثابتة وشريفة.

وقد لحقوا بالرفيق الأعلى وماتوا ومات الأمويون وترمدوا وغبروا واندثروا، وعلي وأبناؤه بقيوا خالدين في ضمير كل مؤمن ومؤمنة.

قالوا الصدق فلهج به التاريخ، ووقفوا المواقف المشرّفة فنسخت عن صحفهم البطولات، وبقيت مشاعل الصدق والبطولة كواكب قبالة الشمس لا تنطفىء لأنها تتوهّج من قلب نبض لله، وتستمد قوتها من قوة الله وتنظر إلى الحق بعين الله.

لقد ذهب ملك كسرى وقيصر واختفى وانتهى وبقي من علي وأبنائه خلق فوّاح، وذكر تتعطّر به الأفواه، وبقي موقف بطولة القلب الحسيني المترع بالمراحم!.

ونحن اليوم بعد علي والحسين عليهما السلام وبعد الرسول الأعظم (ص) أكثر عَدَداً من مسلمي العصور السابقة، عصر صدر الإسلام والأموي والعباسي، وأغنى مالاً، وأقوى عُدَداً، وأغزر طاقة، فلماذا لا نكون كالشهداء الذين سقطوا مع الحسين، وربما لا يتمنّى البعض ذلك لفقدانهم حب الحق والبطولة.

فمتى يقوم فينا من يحب الموت لتتقدم منه الحياة، ويطلب الشهادة ليحيا في فردوس البطولة والشرف؟.

والإمام الحسين الذي تخرّج من مدرسة أبيه وجده هزأ بالموت فإذا به يتربّع على قلوب الملايين بمحبة وشوق واقتناع، ويحيا إلى الأبد قطرة في محيط التاريخ.

يتقدم في القرن العشرين ليقول لجيل العصر: اعرفوا الحق وتمسكوا به، دافعوا عن دينكم وعقيدتكم ورسالتكم، قفوا صفاً واحداً في وجه الطغاة المستكبرين، أحبّوا أئمتكم إلى درجة العشق، ونوّروا قلوبكم بعلومهم ومعارفهم، احبوا في الله، وأكرهوا في الله وكونوا مع الله يكن الله معكم.

الصدق الصدق، والموقف الموقف، والحسين الحسين يقول للموت: قد تجيء في كل لحظة وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكنني أيها الموت أريد، أريد أن تموت أنت، وأن أحيا أنا إلى الأبد عطراً على الأفواه ومحبة في القلوب.

وبعد أربعة عشر قرناً يتقدّم سيد الشهداء من مجاهدينا الأبطال بصورته الحية الكريمة عسى أن يسطع منها نور يهدي، وعطر يرفع، وصوت يهبّ بسامعه إلى نجدة الحق ونصرة الشمائل، كل ذلك من أجل تقدم الإنسانية والحضارة وكلتاهما جناحان رحيمان نحو آفاق الله جلّ وعلا.

الشهادة في الإسلام

الشهادة في المفهوم الإسلامي لا تعطى إلا لمستحقيها الذين يستجمعون جميع عناصرها، فإذا فقد عنصر من مقوماتها حرم الفرد من ذلك النعيم الذي تحلّق فيه النفس وتسمو فوق الطين إلى خالق الكون وفاطر السماوات والأرض.

أول ما يطالعنا في هذا المجال هو الطريق الذي يسلكه المجاهد، هذا الطريق الذي يجب على المجاهد أن يعرفه بكل معالمه، ويتحرك ضمن حدوده فلا يتعداها ولا ينحرف عنها، ذلك هو الخط الإلّهي المطلوب، الخط الرسالي الذي بدأه خاتم النبيين والرسل النبي محمد (ص)، وعلّمه لأوصيائه ليكملوا الرسالة من بعده.

من واجب المسلم أن يكون فقيهاً في أمور دينه، مطلعاً على أهداف رسالته، عارفاً بمبادىء الجهاد الذي نذر نفسه ليكون في صفوف أبنائه.

فلماذا يجاهد؟ ولماذا إختار هذا الطريق المحفوف بالمتاعب والمصاعب؟ ولماذا لم يفضل طريق الدعة والراحة والهدوء والاسترخاء ويبتعد عن القضايا المرعبة والمسارب المخيفة؟.

فعلى المسلم المجاهد أن يعرف كل هذه الأمور ويعي إسلامه وعياً عميقاً ودقيقاً، فهو يقاتل في سبيل الله، ومن أجل رفع كلمة الله، وصيانة دين الله، أما الكافرون فهم يقاتلون في سبيل الطاغوت.

يريد الإسلام من المجاهدين أن تكون نواياهم وضمائرهم كلّها متجه لله فلا عصبية ولا أقرباء ولا عشيرة ولا قبيلة ولا حمية، كل هذه مرفوضة في قاموس المجاهدين المؤمنين.

النية عند المجاهد هي الأصل، فمن قاتل من أجل الغنيمة ومن أجل السمعة والشهرة أو غير ذلك من أمور الدنيا الخارجة عن الهدف الأسمى وهو الجهاد في سبيل الله، فإن هذا الطريق يقطع على المجاهد سائر الطرق الأخرى، وإلا كان قتاله من أجل مصالح دنيوية زائلة لا تعطيه أجراً، ولا تمنحه ثواباً في الآخرة.

والأمر الثاني لتحقيق مفهوم الشهادة في الإسلام ويكتسب به المجاهد اسم الشهيد هو أن يقتل ويسفك دمه في سبيل الله تحت راية ولي الأمر، وبذلك وحده يكون دم الشهيد وثيقة انتساب لله، وعربون صدق لعقيدته وإيمانه في سبيل دينه ومبدئه.

وبذلك الدم الزكي المراق يحصّن الشهيد إسلامه من الضمور، ويحفظ المسلمين من الاستضعاف والانهيار.

دم الشهيد زيت يذكّي سراج الركب الإسلامي السائر في خطى الله فيبني المجتمع الربّاني على قواعد الإسلام وتشريعاته وحكمته.

والمسلمون اليوم مدينون بلا ريب لشهداء الإسلام الذين سقطوا في الدفاع عن دين الله وشريعته، فلو لم يسقط الحسين (ع) في ساحة كربلاء مع أهله وأصحابه متحدّياً الحاكمين الظالمين وكاشفاً عن كل عوراتهم وانحرافاتهم لما بقيت شعائر الإسلام، ولولا الشهداء ـ كل الشهداء ـ لاندرست أعلام الدين، ومحقت شريعة سيد المرسلين.

إن تلك الدماء الزكية الطاهرة غسلت عن وجه الإسلام عار الحاكمين، وجبن المنتسبين إليه بالاسم، الذين انهاروا أمام السلطان، وسكتوا عن إظهار الحق.

الشهيد المسلم يعي موقعه جيداً من الحياة فيرفض الواقع الفاسد ويحارب الجور والظلم كيفما تمثّل، ويقدّم دمه فداء الإصلاح الاجتماعي والخير العام، والشهيد أسرع الناس وأوفاهم لتقديمه دمه من أجل أمته، ومن أجل مجتمعه.

إن هذا الدم الطاهر المراق بين يدي القيادة المؤمنة الحكيمة هو الذي يضمن مسيرة الرسالة الإسلامية ويحافظ على ديمومتها وخلودها، وهذه القيادة على علم ووعي بأن كل قطرة من دماء الشهداء ستعيد القوة والحياة والحركة إلى الجسد الإسلامي، وهي تعرف أيضاً متى تكون الحرب مشروعة ومتى تكون ممنوعة وتعرف متى تقدم الشهداء وكيف تحافظ عليهم، فهي قيادة معصومة مسدّدة ومن بركتها يعطى المجاهد بين يديها قدسيّة خاصة، وبر ما فوقه بر يعادله.

وهناك فئة أخرى أطلق عليها اسم «شهيد» لم تصل إلى مرتبة الدرجة الأولى قدّمت نفسها طوعاً واختياراً، وسفكت دمها عن وعي وعلم وإدراك بأبعاد المعركة التي تخوضها، لقد سعت نحو الموت وطلبته بين الأسنة والرماح تحت قيادة إسلامية حكيمة مسدّدة.

أما الفئة الثانية من الشهداء فهي التي لو دعيت للجهاد والاستشهاد سعت إليه وما قصّرت في طلبه، واكتسبت ثواب الشهيد لأنها سارت في خط الله وشفيعها نيّتها النبيلة وقصدها الشريف، وردت في ذلك أقوال عديدة منها:

من مات على حب آل محمد مات شهيداً.

أو من قتل دون مظلمته فهو شهيد.

أو من قتل دون ماله فهو شهيد.

أو من قتل دون عياله فهو شهيد.

إلى غير ذلك من الأقوال التي حكم فيها الإسلام لأصحابها بالشهادة لأنهم ساروا على خط الرسالة، وفي خطى الرسول (ص)، أخذوا ثواب الشهيد وأجره، ولا ريب أن في ذلك تفضّل عظيم، وكرم كبير من الله العزيز الحكيم.

فالأجر والثواب فحسب هو الذي كتبه الله جلّ وعلا لهذه الفئة من الشهداء دون سائر الأمور الأخرى المترتبة على الشهادة الحقيقية.

وعلينا أن نلتفت إلى الأبواق المستأجرة التي تمضي مسخاً وتشويهاً

للمفاهيم الإسلامية، وتعمد إلى التشكيك في أمور الشريعة الإسلامية، فأعطوا لقب الشهيد إلى كل محارب مات في ساحة الحرب سواء أحارب وجاهد في سبيل الله أو حارب الله ورسوله والمؤمنين، وكأنهم هم الذين يمنحون ويحددون شروط المستحق للشهادة.

إن هذه المنح البشرية المباركة هي ملك الله ومن عطاياه، وهو وحده سبحانه وتعالى الذي يمنح ويمنع ويحدد شروط المستحق، فالكافر لا يعد شهيداً ولا تقبل شهادته.

الحسين الشهيد (ع):

نشأ الحسين في بيت مميّز عن بيوت أقرباء النبي (ص)، في بيت علي وفاطمة، وقد أولاه جدّه الرسول عناية فائقة لم يعهدها غيره.

أحب رسول الله هذا البيت لأن فيه أعزّ بناته وأغلاهنّ عنده، فاطمة الزهراء «أُم أبيها»، وقد حلّ في هذا البيت النصيب الكبير من بركة النبي (ص) فكان بيت الطهر والقداسة.

في هذا البيت العظيم ولد الحسين بن علي في الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة، الموازية لسنة الستمائة والخمس والعشرين الميلادية.

ولد بعد أخيه الحسن بعام تقريباً وقد عمّت الفرحة جميع أفراد الأسرة بل جميع المسلمين للمولود المبارك الجديد.

نشأ الحسين في كنف جَدّهِ الرسول الأعظم وأبيه أمير المؤمنين علي وأمه الزهراء، وشهد الأحداث في جوّ الهجرة ومناخ الجهاد الإسلامي، وتمرّس بأخلاق العرب والإسلام من بيان وفصاحة وفروسية، ونهل من ينابيع القرآن الكريم والحديث الشريف، مثلما وعى الحكمة من جده وأبيه، واطلع على أمثال العرب وخطبهم ووصاياهم وحكمهم غير متجاوز تاريخ قومه في مكة المكرمة.

كان الحسين كأبيه في شدته وعزيمته وحسن بيانه، وكجده الرسول في

ملامح الوجه وتكافؤ الأعضاء، كان يجمع كل الملامح الهاشميّة من جمال المظهر ونقاء المخبر، والقوة الجسدية، والقامة المديدة، والفصاحة والبلاغة، إلى حضور مهيب، وإلى مثالية ذات أبعاد وسمو في الشمائل.

أما رهافة حسه وذوقه الجمالي فتلك نفحة لدنيّة تتألّق من مصدر الجمال المطلق الشامل، «الله» جلّ جلاله.

هزأ الحسين بالموت وقال له: قد تجيء في كل لحظة وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكنني أيها الموت أريد، أريد أن تموت أنت وأن أحيا إلى الأبد الأبيد في قلوب الملايين.

الحسين مع جدّه النبي (ص):

كان النبي (ص) يحب الحسين حباً شديداً، ويعتني به وبأخيه الحسن عناية كبيرة تفوق عناية الآباء بالأبناء، وقد أثنى عليهما وبيّن فضائلهما في أكثر من موضع.

من أقواله المأثورة التي تداولت على الألسن وجرت بين الناس وما زالت، منها:

قال (ص): «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

وقال (ص): «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط».

وقال (ص): «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد ابغضني».

والأحاديث في فضل الحسين ومناقبه كثيرة ذكرنا أمثلة قليلة منها على سبيل الذكر، تعطيراً للأفواه، وتبرّكاً بمن وردت فيه.

وأما الآيات الكريمة التي نزلت بحق أهل البيت من وحي السماء ـ وكان أحدهم الحسين ـ فكثيرة أيضاً نذكر منها قوله تعالى:

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[1] أجمع المفسرون أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وفي باب الفضائل روى مسلم عن عائشة قالت:

«خرج رسول الله (ص) غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال:

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

ونقله السيوطي في الدر المنثور، ورواه الحاكم في المستدرك بسندٍ آخر عن عائشة، والطبري في دخائر العقبى، وابن كثير في تفسيره، وابن عساكر في تاريخه، والشافعي في كفاية الطالب وابن عبد ربه في العقد الفريد، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول.

وجاء في [سورة آل عمران، الآية: ٦٠]:

﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

جاء في تفسير هذه الآية: لا دليل أقوى من هذا على فضل أصحاب الكساء، وهم علي وفاطمة والخسن والحسين لأنهم لما نزلت دعاهم (ص) فاحتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ومشت فاطمة خلفه وعلي خلفهما فعلم أنهم المراد من الآية، وأن أولاد فاطمة وذريّتهم يسمّون أبناءه، وينسبون إليه نسبة صحيحة نافعة في الدنيا والآخرة.

وآية أخرى أيضاً قد نزلت بحق أهل الكساء، قال تعالى:

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

عليه أجراً إلا المودة في القربى. . .﴾[1] .

فلما نزلت قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟

قال (ص): علي وفاطمة وابناهما.

وفي ذلك قال ابن عربي:

رأيـــت ولائـــي آل طـــه فـــريضـــة   على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما طلب المبعوث أجراً على الهدى   بتبليغـــه إلا المـــودة فـــي القـــربـــى

عاش الحسين الشهيد مع جدّه رسول الله ما يقارب الثمان سنوات فاتقن دور جده بنجاح منطقاً ووعياً وتطلّعاً فجاء محمّدي الخصال والفعال حتى غدا الحسين الشهيد في ثوب محمد الأمين.

كانت هذه الأيام من أجمل أيام حياته وأحسنها، درج خلالها في مراقي الكمال من ذلك الحجر الطاهر الذي أفاض علينا حناناً وسعادة، وأغدق عليه حباً وتسامياً.

ولما انتقل الجد إلى جوار ربه كان في كنف الوالد العظيم الإمام علي (ع) مدة طويلة تجاوزت الثلاثين عاماً، اشترك فيها خلال خلافته الراشدة في حروبه ضد الناكثين والمارقين.

لقد ارتسمت أمام الحسين كل معالم الحق، وتراءت أمامه كل مناهج الرسالة الإسلامية التي ترجمها أمير المؤمنين في أفعاله وأقواله وتقريراته.

عاش الصراع المرير بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، إسلام علي وجاهلية معاوية، واستمر يراقب الأحداث ويرقب ما تحمله من آلام ودماء وصبر وتضحيات حينما نحّي الإمام الحسن عن الخلافة وتلهف لاهثاً وراء كرسيها معاوية بن أبي سفيان الذي عاش لبطنه ودنياه وملذاته وشهواته.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

عاش الحسين مع الإسلام وللإسلام، عاش مع نكبات الإسلام ومحن الإسلام، وعاش مع المسلمين الشرفاء، ومع المناضلين العظماء في مطاردة أعداء الإسلام لهم وفي غربتهم وتشرّدهم وقتلهم.

عاش فترة مملوءة بالمحن والحروب والابتلاء منذ موت جده، الذي أرسى قواعد الرسالة الإسلامية، وأوصى بها لتكون في أيدٍ أمينة، وقلوب مؤمنة، وإرادات صلبة قوية، تعمل بما أوصى به الله، وتنظر بعين الله، وتعمل من أجل مناصرة المؤمنين لإعلاء كلمة الله.

رأى الإمام الحسين الخلافة ينحرف بها قوم من الناس عن خطها المنصوص عليه لتأخذ في نهاية المطاف شكلاً من أشكال الملك العضوض الذي يتنافى مع جوهر الإسلام ولا يرحم ويراعي أحوال المسلمين.

كان معاوية وأنصاره محكومين بغرائز الاستبداد، والإثرة، وحب التوريث، همّهم المناصب الدنيوية والوجاهة.

وكان الحسين وأصحابه أصحاب مبادىء وأصحاب مواقف، وقد ماتوا كما مات الأمويون، ولكن الأمويين بكل ما حصلوا من مال وما فعلوا ترمّدوا وغبروا، وبقي الحسينيون المؤمنون مشاعل صدق وبطولة، وكواكب مشرقة قبالة الشمس، لأنها من شعل الصدق والحق، تتوهّج من نبض قلب الله.

قال الحسين الصدق فلهج به التاريخ، ووقف المواقف الحقّة فنسخت عن صحفه البطولات.

والكل هباء، والكل تراب، والكل فناء ما لم يتطلّع إلى سمو الحقيقة العليا الله! فهو وحده الذي يبقى سبحانه وتعالى الأبدي السرمدي.

ولما انعدمت الرؤية بين طرفي الصواب والانحراف، وأرادوا طمس معالم الرسالة الإسلامية، كان الحسين هو الهادي والرائد والمنقذ، والبطل العظيم الذي انجلت على يديه الظلمات، وتقوّمت الانحرافات، وعاد الحق إلى نصابه، والدين إلى صوابه.

أولاده:

للحسين ستة بنين وثلاث بنات.

البنون: علي الأكبر، وقد استشهد مع أبيه بعد أن أبلى بلاء حسناً، وعلي زين العابدين، وهو أحد الأئمة الكبار، وقد نجا من الموت لمرضه وبسبب استبسال أُخته زينب دفاعاً عنه، ومن نسله تسلسل نسل الحسين الطاهر، وليس له نسل من سواه.

وعلي الأصغر، ومحمد، وعبدالله وقد استشهد أيضاً مع أبيه. وجعفر.

والبنات: زينب، وفاطمة، وسكينة.

سيد الشهداء:

من المتداول على ألسنة الشيعة وصف الحسين (ع) بسيد الشهداء، فلماذا تميّز الإمام بهذا الوصف؟.

«الشهيد» كلمة صغيرة المبنى كبيرة المعنىٰ، تفوح من خلالها رائحة الدم المراق، وتحس عند لفظها بعبير الجهاد، وعنفوان البطولة، ونبل التضحية، وقيمة الفداء، وشدة العزيمة، وقوة الثبات، وعزة الإقدام.

إننا نحس من خلالها قوة الإيمان، وعزيمة المبدأ والحياة الدائمة.

وهل أفضل وأنبل من مرافقة الأنبياء والصالحين والصديقين؟.

وهل أفضل وأنبل من انتصار الحق على الباطل بالموت، وحياة المبدأ بالاستشهاد، الذين يقدّمون أنفسهم للشهادة يشعرون أنها منتهى البرّ الذي ليس فوقه بر، يرددون ما قاله أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب: «إن أكرم الموت القتل.. ولألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله».

وكلمة «شهيد» مصطلح إسلامي خاص يعني ذلك المسلم الذي يقاتل من أجل الدين فيقتل في ساحة حرب مع أعداء الإسلام دفاعاً عن الإسلام شرط أن

تكون تلك الحرب بأمر أو إذن من النبي (ص) أو الإمام أو نائبه الخاص أو العام.

وحكم الشهيد القتيل لا يُغسّل ولا يُكفّن بل يُصلّى عليه فقط ويدفن بثيابه التي قتل فيها، ويسمى حينئذٍ شهيداً لأنه يبعث يوم القيامة على هيئته التي دفن عليها، فيشاهده الناس في المحشر ويعرفون أنه مقتول في سبيل الله تعالى.

وأجر الشهيد عظيم جداً عند الله سحبانه بحيث لا يوجد عمل بعد الإيمان بالله أفضل من الشهادة في سبيله، فالشهادة كفارة لكل الذنوب، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

والشهداء يتفاوتون في الفضل والمقام والدرجات حسب تفاوت مواقفهم ونيّاتهم، فكلما كان موقف الشهيد أشدّ حراجة وأصعب ظروفاً كان أجره أكثر ودرجته عند الله أرفع.

كما أنه كلما كان موقف الشهيد أكثر إخلاصاً كان فضله أرفع، فشهداء معركة بدر مثلاً هم أفضل من شهداء معركة أحد لهذا السبب الذي ذكرناه.

وموقف الشهداء الحسينيين يوم العاشر في كربلاء يفوق مواقف جميع الشهداء في العالم حراجة وإخلاصاً لصالح الحق، فتأمل هؤلاء الأبطال الميامين والشجعان النادرين، بضع عشرات من الرجال والصبيان وهم عطاشاً جياعاً أمام عشرات االألوف من الجنود المدجّجين بالسلاح التام، والمجهّزين بكل وسائل القوة.

هذا من ناحية حراجة الموقف.

أما من حيث خلوص النية فهي نقية كطهارة القدس، صافية كصفاء الكعبة، منيعة عزيزة، خالصة لوجه الله تعالى.

إذا تذكّرنا شهداء الطف وجدنا أنه لم يكن عندهم أدنى أمل، ولا أقل احتمال في الغلبة على العدو، وليس عندهم هدف أو نية في كسب غنيمة أو أي نوع من الربح المادي من وراء ذلك الموقف.

ولا ريب أن كل مدرك يعلم أن موقفهم أحيا الدين وصانه وحفظه من خطر الانحراف والزوال على يد أعداء الله، حكام بني أُمية.

إذا أدركنا كل ذلك واعترفنا به فحينئذٍ لا نستغرب القول بأن شهداء كربلاء وعلى رأسهم سيدهم الإمام الحسين (ع) هم سادات الشهداء في العالم أجمع، أي أفضلهم مقاماً، وأكبرهم أجراً عند الله وعند رسول الله، وأن لقب سيد الشهداء هو أليق وأجدر بالحسين (ع) من كل شهيد آخر.

الحسين إمام الشاهدية، والشاهدية حضور في الذات والمجتمع والكون، منها تولد الشهادة عملاً لذلك الحضور، ومعنى ذلك أن الغمامة المحمّلة بإيحاءات البحار فتحت فمها لتقول كلمة العودة إلى المنبع مثلما تئنّ أوتار النايات منسلّة لتعود إلى الأرض، منبعها الأصيل، وهي تحدو حول الشمس حداء الصيرورة، وتنشد نشيد الحب الأكبر والجمال الأعظم، وكل شيء آنئذٍ في جماله يغرق في الجلال المطلق.

إن «سيد الشهداء» تليق تماماً بالإمام الحسين الذي كان يدرك بالمنطق الرياضي إدراكاً شمولياً أنه مفارق جسده، وعيشه، ويدرك أيضاً باللدنية المنحازة لديه أنه قريب بوجهه من بسمة الله.

إن «سيد الشهداء» أجدر بالذي وقف وقفة الأبطال النادرين في التاريخ وكأنه وحده، وإن كان الاثنان والسبعون حوله قد قبسوا من ضوئه، وشهدوا فيضان عزته، وقفة لم يقل فيها: «إلّهي إلّهي لماذا تركتني» بل صاح: «إلّهي أنا قادم إليك» وكأنه يرى دمه الزكي الطاهر ودماء رفاقه الشهداء الأبطال أمام بصره رياضاً طفحت ورداً، وفاضت عطراً، وسمت نبلاً وكرماً.

ولا بد من أن نلفت الأنظار إلى أنه قد تداول بين بعض الذين كتبوا عن الحسين (ع) في عصرنا الحاضر لقب «أبو الشهداء»، ولعلهم يظنّون أن هذا اللقب أفضل من لقب سيد الشهداء.

ولا ريب أنه ظنّ خاطىء لأنه لا تلازم بين كون الشخص أبا الشهداء

وبين كونه شهيداً بذاته، وكثيراً ما يكون أبو الشهداء غير شهيد، وغير حائز على مقام الشهادة الرفيع.

فعقيل بن أبي طالب مثلاً قدّم تسعة من أبنائه وأحفاده شهداء بين يدي الحسين (ع) يوم عاشوراء ولكنه هو نفسه مات في المدينة بعد مقتل الإمام علي (ع) أمير المؤمنين ببضع سنوات ولم يكن شهيداً بل هو أبو الشهداء.

ولذا نقول: إن لقب أبو الشهداء لا يدل على شهادة الحسين (ع) فضلاً عن سيادته على الشهداء، فالحسين سيد الشهداء بالإضافة إلى أنه محور للشهداء من كل الجوانب، ورائد الشهداء في كل مصر وعصر، وهو ابن الشهيد وأخو الشهداء وأبو الشهداء، والشهادة سمة أبنائه وآله وأولاده وأحفاده، فهم كما قيل فيهم: القتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة.

وأما ما نراه وما نسمعه في هذه الأيام من التلاعب والتزييف بالمفاهيم الإنسانية ومسخ الفضائل، ومنها تحريف كلمة «الشهيد» والتلاعب بمفهوم «الشهادة» ومسخ صفتها الإنسانية النبيلة، حتى صاروا يطلقون اسم «الشهيد» على من يقتل ويجرم ويصرع تحت انقاض هدمه وتخريبه، وبذلك فقد حياته من أجل شهواته وأطماعه.

وقد يكون عميلاً للعدو الكافر، أو المستعمر الظالم، فيموت جزاء خيانته وطيشه، وهكذا فكل هؤلاء يمنحوهم في عصرنا الحاضر لقب «شهداء»، ويلصقون رسومهم وصورهم على الجدران، وفي المجلات، وأبواق الدعاية ووسائل النشر.

ونختصر القول: إن للإسلام اصطلاحاً خاصاً ومفهوماً مبتكراً لكلمة «شهيد» و«سيد الشهداء».

فالمسلم الذي يقتل في سبيل الدفاع عن الإسلام في ساحة القتال بأمر من الرسول (ص) أو نائبه الخاص أو العام فهو «شهيد».

و «سيد الشهداء» تعبير عن الأفضلية في الشيء، فسيد العلماء هو أغزرهم علماً وأحسنهم عملاً، وسيد الأوصياء هو أكثرهم جهاداً وأحرصهم

على حفظ الوصية وصون الرسالة، وسيد الأنبياء هو أكثرهم فضلاً وأكملهم صفات، وسيدة النساء هي أشدّهن حرصاً على القيام بمسؤوليات المرأة أمام الله تعالى، وأكثرهّن تمسكاً بواجبات المرأة المسلمة المؤمنة بعقيدتها ورسالتها، وقس على هذا...

فالسيادة الإسلامية في أي أمر من الأمور إنما هي في الأكملية والأفضلية في ذلك الأمر. ولقد نصَ القرآن الكريم على تعيين هذه القاعدة للسيادة فقال تعالى:

﴿قل هل من شركائكم من يَهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحقُّ أن يُتَّبع أمَّن لا يَهِدِّي إلاّ أن يُهدىٰ فما لكم كيف تحكمون﴾[1]

إلى هذه القاعدة يشير الحديث الشريف: «اليد العليا فوق اليد السفلى»[2].

أي أن المفيض على الناس بعلمه وفضله والمستغني عنهم بعلمه وعمله هو سيد على الذين يحتاجون إليه.

قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب في بعض حِكمه:

«أحسن إلى من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره».

وانطلاقاً من هذا المفهوم استدل الخليل بن أحمد العالم المعروف في صدر الإسلام على سيادة الإمام أمير المؤمنين على كافة الناس بعد رسول الله (ص) لما سئل ما الدليل على إمامة علي بعد الرسول (ص) دون سائر الصحابة؟

قال: استغناؤه عن الكل وحاجة الكل إليه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى.

فالسيادة في أي شيء تدور في مدار الكمال الذاتي في صفات ذلك الشيء، والشهداء هم طبقة من البشر قاموا بعمل التضحية بحياتهم في سبيل الله تعالى فنالوا بذلك صفة الشهادة.

والحسين (ع) هو الإنسان الأكمل في القيام بهذه التضحية، لذلك استحق مقام السيادة بين كافة الشهداء، وهذا أمر طبيعي لا إشكال فيه.

الفروسية الحسينية:

تربّى الحسين (ع) على أساليب الفروسية العربية مثلما تربى على الفصاحة والتقوى، ولا غرو فهو ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الخبير بفنون الحرب وأساليب القتال واستخدام السلاح كل معطيات الفارس الناجح لديه تعلّمها وعمل بها وأتقنها أيما اتقان، يرفده بذلك قلب ثابت، وإرادة صلبة، وعزم صادق، ونفس تتوق إلى المعالي بلا تردّد.

إذا كانت الفروسية وثبة وجرأة عند الفرسان العاديين فهي عند الحسين تقفز فوق الكون وفوق الشمس، لأن الحسين فارس إلى الله.

يكفي أن نقف على ما عاناه من صدامه بجيش يزيد وابن زياد الذي جهّزه لملاقاته، وهو جيش يذكّرنا بجيش القادسية أو اليرموك بينما كان الحسين البطل في ثلّة من ثلاثين فارساً وأربعين راجلاً ـ حسبما يذكر المؤرخون ـ ومع ذلك فقد أبلى، كأبيه، البلاء الحسن، وأبدى ضروباً من الشجاعة، وفنوناً من البراعة في الكرّ والفرّ، والإقدام والإحجام، ما أربى به على سائر البطولات علماً منه ما بعده يقين أن الموت ينتظره والهلاك ملاقيه، ولكنها النفوس الكريمة، والإرادات العظيمة، ومصارع الشهداء الأبرار، والأئمة الأطهار، الذين قدّموا للناس عهوداً مكتوبة بدمائهم الزكية عن تضحياتهم الكبيرة وكراماتهم النبيلة، فإذا كان جدّه الرسول الأعظم قد بلّغ الرسالة الإلّهية وبلّغ، وأبوه قد وفى بقسط الجهاد وأوفى، فهو السبط الذي علّم الناس دروساً نادرة في البطولة، وذلك ليرفع من شأن الحياة والموت إلى درجة الشهادة في الله!.

لقد شارك الإمام الحسين (ع) أباه جميع المعارك التي خاضها ضد الكفار والمشركين من أجل رفع كلمة الله، واشترك في الحروب الجهادية بأفريقية الشمالية، والقسطنطينية، وطبرستان.

كما كان يتمرّس في أوقات السلم بركوب الخيل، والمصارعة، والسباق والركض، وجميع الألعاب التي كانت سائدة في عصره حيث كان ينافس الشبان في سبيل التفوّق باتقانها.

الإنسان لا يخاف من زمجرة البحر، ومن قصف الرعد، ومن زئير الوحوش المفترسة، بل إنه يخاف من الغربة، الغربة الموحشة فكيف بالذي يستطيع أن يقفز إلى فوق الكوكب متجاوزاً التلال والجبال وكل ما على الأرض من حواجز.

لا فرق بين إنسان كافر استطاع الصعود إلى سطح القمر، وإنسان كافر بقي على سطح الأرض، بينما الإنسان المؤمن وإن كان على سطح الأرض فقوّته في إدراكه وفي إيمانه وفي عقيدته، وبها يستطيع الصعود إلى الله، وفرس الإمام الحسين، الفرس الميمون يتجاوز كل الحدود ويصعد عالياً حيث يتوانى وتضعف سائر الأفراس الأرضية.

والفروسية لا تعني الشجاعة فقط، وإنما تعني السبق، والإمام الحسين سبق الجميع إلى الله، وفيه تستغرق كل الصفات، لأن من البشر من حظي بلقب حكيم أو طبيب أو فيلسوف أو غير ذلك من الألقاب، بينما الحسين نرى فيه العالم والفارس والطبيب والحكيم والأديب والفقيه، استجمع كل الصفات الإنسانية في المعرفة والأخلاق، وبات ينبوعاً غزيراً لا ينضب ولا يتعب ولا يحجب نفسه عن العطاء.

هو صاحب الفكر والرأي والشجاعة والتدبير الهادىء وكأن المتنبي يصفه فيقول:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

وهو العالم العاقل المدرك الذي يضع الشيء في مكانه ويحسن توجيهه

حيث يجب أن يكون.

يذكرنا المتنبي في بيت آخر فيقول:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

والإمام الحسين هوالذي يُعلّم الناس المنازل التي تستحقها، وهو بحر يغرف من ذاته فيقف على ساحله كل من يبتغي حسب مطلبه، فهذا يبتغي الصيد، وهذا يبتغي الغوص، وذاك يبتغي التأمل والحكمة، وآخر يبتغي أن يروي ظمأه المتعطش إلى العلم والمعرفة.

فأينما جئته تجده عظيماً كبيراً، عظيم الرأي وعظيم الشجاعة، وبتعريف البلاغة قالوا: هي بلوغ الهدف، وعن الفصاحة قالوا: هي الظهور والبيان، وعن الحكمة قالوا: هي وضع الشيء في مكانه، وكلّها مجتمعة نجدها في الإمام الحسين، وكأن المتنبي يعنيه بقوله:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً   على الدر واحذره إذا كان مزبدا

بحر العلم وبحر المعرفة وبحر الشجاعة وبحر الفروسية.

خجلت العظمة من وهج علمه، ووهنت القوة أمام شجاعته، واستراح العنفوان عند قدميه لهيبته وجلاله، وهو الذي قال فيه المتنبي:

وتركت مدحي للوصي تعمّداً   إذ كان ضوءاً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه   وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا[1]

هكذا هو الشيء عينه في حديثنا عن الإمام الحسين قائم بنفسه، هو سنام العظمة، وكعبة الشجاعة، وقمة العلم، وقبّة الفهم، لذلك نرى من الضروري أن نقول: إننا نتعرف به.

فالإنسان الذي يريد أن يرى نفسه أنه عالم فيزياء أو عالم كيمياء أو عالم

---

(١) ديوان المتنبي.

رياضيات أو غيرهما من العلوم الأخرى ليس بالأمر الغريب، لأن علم الفيزياء والكيمياء والرياضيات موجود، ولن يستطيع أن يعرف بإمام عصره، والسر يكمن في الإبداع والابتكار.

والإمام الحسين هو فارس العلم، وفارس الشجاعة والبطولة، وهل يكون طارق أبواب الفيزياء إلا الشجاع الواثق، وهل يطرق أبواب القتال الشرعي المفروض إلا البطل المغوار!؟.

فرادته القتالية:

هو ابن أبيه صاحب السيف البتّار والموقف الجبار «لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار» وقف وحيداً في الميدان أمام أعدائه الجيش الجرار ثابت الجنان، وقد زادته الفجائع المذهلة إيماناً ويقيناً وثقة بما يصير إليه من منازل الفردوس الأعلى.

لم يوهن عزيمته مصارع أولاده وأهل بيته وأصحابه، وما كان يعاني من تباريح العطش، وألم نزيف الدماء، إنه صمود أُولي العزم، صمود الأنبياء الذين خصّهم الله بمهمات إنسانية، ومسؤوليات تاريخية، وميّزهم على بقيّة عباده.

حقاً إنها مواقف مذهلة عن الصبر الحسيني والصمود الحسيني والأخلاق الحسينية، طافت به مجموعة من الرزايا والآلام فوقف على الكواكب المشرقة من أبنائه وأهل بيته، وقد تناهبت السيوف والرماح أشلاءهم فخاطبهم بطمأنينة قلبية وثبات عزيمة فقال:

«صبراً يا أهل بيتي، صبراً يا بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد اليوم».

من بعض ألوان تلك الكوارث التي صبر الإمام عليها رؤية أطفاله وعياله وهم يضجّون من ألم الظمأ القاتل، ويستغيثون به ليرويهم ببعض الماء، فكان يأمرهم بالصبر، ويخبرهم بأن العاقبة للمتقين الصابرين.

كما صبر على ملاقاة الأعداء الذين ملأت الأرض جموعهم المتدفقة وهو

يتلقّى الضرب والطعن من جميع الجهات غير آبه ولا مبال بذلك كله.

يقول الأربلي عن موقفه الفريد الغريب يوم الطف: «شجاعة الحسين يضرب بها المثل، وصبره في الحرب أعجز الأوائل والأواخر»[1] .

ويقول المؤرخون: إنه تفرّد بهذه الظاهرة، فلم تضعف عزمه الأحداث مهما كانت وقد توفّي له ولد في حياته فلم ير عليه أثر للكآبة فقيل له (ع) في ذلك فقال: «إنا أهل بيت نسأل الله فيعطينا، فإذا أراد ما نكره فيما نحب رضينا»[2] .

لقد رضي بقضاء الله واستسلم لأمره، إنه هو علاّم الغيوب، اخترق السهم رقبة طفله الرضيع، ولما أحسّ بحرارة السهم أخرج يديه من القماط وأخذ يرفرف على صدر أبيه كالطائر المذبوح ثم مات على ذراعه... إنه منظر تتصدّع له القلوب، وتلجم الألسنة، وتتجمّد الدموع في المآقي.

رفع الإمام يديه المملوءتين بدم الطفل الطاهر ورمى به نحو السماء، وأخذ يناجي ربه قائلاً:

«هوّن ما نزل بي أنه بعين الله تعالى! اللهم لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح.

إلّهي إن كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه، وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حلّ بنا في العاجل ذخيرة في الآجل.

اللهم أنت الشاهد على قوم قتلوا أشبه الناس برسولك محمد (ص)».

ونزل الإمام عن جواده وحفر لطفله بجفن سيفه حفرة ودفنه مرّملاً بدمائه الزكية، وقيل أنه ألقاه مع القتلى من أهل بيته[3] .

لك الله يا أبا عبد الله، إنك فريد الدهور، وعلم كل العصور، صبرت

---

(١) كشف الغمة.
(٢) الإصابة ج ٢ ص ٢٢٢.
(٣) مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٣.

على هذه الكوارث التي لم يمتحن ببعضها أي نبي من أنبياء الله، وبقيت صامداً كالطود الشامخ بإيمانك الراسخ وشجاعتك النادرة.

وقد روى ولده علي زين العابدين (ع) صوراً مذهلة عن فروسية أبيه وصموده، قال: كان كلّما يشتد الأمر يشرق لونه، وتطمئن جوارحه، فقال بعضهم: انظروا كيف لا يبالي بالموت[1].

وقال عبدالله بن عمار: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه يحمل على من على يمينه حتى اندغروا عنه، فوالله ما رأيت مكثوراً قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشاً منه، ولا أمضى جناناً منه، ووالله ما رأيت قبله ولا بعده مثله[2].

ثم حمل على أعداء الله وجعل يقاتلهم أشدّ قتال، رجل مقابل آلاف من الرجال، رجل يقاتل في سبيل الله وآخرون يقاتلون في سبيل المال! رآه الناس فدهشوا لبسالته وفروسيته ورباطة جأشه، حمل على الميمنة وهو يرتجز:

الموت أولى من ركوب العار   والعار أولى من دخول النار

وحمل على الميسرة وهو يرتجز أيضاً:

أنا الحسين بن علي   آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي   أمضي علىٰ دين النبي[3]

الله أكبر! الله أكبر! أين أنت يا أبا الحسن؟ أين أنت يا بطل الرجال والذائد عن الإسلام ووثبة الأجيال! أين أنت لو ترى ابنك الحسين وهو يصول ويجول ويضرب ويهزم ويقتل أعداء الله وكأنك أنت في المعركة، إنه يتكنى بك فهل ترى وتسمع؟!.

وأنت يا رسول الله تقول: «أنا من حسين وحسين مني» هل ترى ماذا يجري الآن لريحانتك من بعدك؟

---

(١) خصائص الحسين للتستري ص ٣٩.
(٢) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ١٨٨ واندغروا: ولوا منهزمين.
(٣) مناقب ابن شهراشوب ج ٤ ص ٢٢٣.

نعم وألف نعم، إنك تدري وكنت تدري وتعلم ولكنك تعلم أيضاً أن الأجر قدر الجهاد، وأن سيد الشهداء سوف ينال من أعلى مراتب الجنة، كنت تعلم ذلك منذ ولادته[1] !!.

وأنت تعلم أيضاً أن الله فتح بابين للتوحيد الأرضي يتفرّعان من توحيد الله الواحد الأحد:

فتح للعرب باب الوحدة بانتصار دين الله.
وفتح للإنسانية باب الوحدة بانتصار رسول الإسلام.
ومكّن الله لدينه في الأرض بانتصار خير آل محمد.
قلت لأبي عندما برز لقتال عمرو بن عبد ود العامري وخنس جميع الرجال أمام تحديه يوم الخندق!:

«اللهم إن تنصر علياً فإن في ذلك نصر المسلمين والدين، وإن تخذله فلا يُمكَّن لدينك في الأرض.

اللهم إنك تعلم أنه خير أرومتي وأهلي، فأردده عليّ سالماً، ولا تفجعني به يا رب العالمين...».

والآن ماذا تقول لي يا جدي يا رسول الله؟ إني أنفّذ العهد الذي تعهّدت على تنفيذه من أبي ومنك وإني أقوم بالوفاء لنبي السماء، وقد دافعت وبذلت بكل طاقاتي عن شؤون الغبراء، وأنت أعلم بذلك يا رسول يا أمين، وأنت أعلم بذلك يا رب العالمين.

أجل إنه الحسين بن علي، ابن بنت رسول الله، إنه ملأ فم الدنيا شرفاً ومجداً، إنه الوحيد في هذه الدنيا لم ينثن عن عزيمته وإرادته، ولم يتضرّع ويقول: إلّهي لماذا تركتني! بل قال: إلّهي إنني قادم إليك!؟

---

(١) راجع مسند الإمام زيد ص ٤٦٨ وأمالي الصدوق ص ١٢٠ أن النبي (ص) أخذ الحسين بعد ولادته، ثم دفعه إلى صفية بنت عبد المطلب وهو يبكي ويقول: لعن الله قوماً هم قاتلوك يا بني، قالها ثلاثاً، قالت: فداك أبي وأمي، ومن يقتله؟ قال (ص): تقتله الفئة الباغية من بني أمية.

لقد مضى في طريق الكفاح يدك حصون الظالمين والمنحرفين، لقد مضى على دين جده الرسول الأعظم (ص) فكان الباعث المجدد لهذا الدين، ولولا جهاده واستشهاده لكان سبحاً مبهماً لا ظل له على واقع الحياة. . .

روى ابن حجر أن أبا الأحرار كان يقاتل وينشد هذه الأبيات:

أنا ابن علي من آل هاشم	كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدي رسول الله أكرم من مشى	ونحن سراج الله في الناس يزهر
وفاطمة أمي سلالة أحمد	وعمي يدعى ذو الجناحين جعفر
فينا كتاب الله أنزل صادقاً	وفينا الهدى والوحي والخبر يذكر[1]

عاشوراء:

عشرة أيام سوداء سميت «عاشوراء»، عشرة أيام من أول شهر محرم من كل عام، وهي تعني الخلود الدائم والحياة الدائمة، ونقصد بالحياة المعنوية وليست حياة الجسد الذي يبلى في وقت قريب أو بعيد، هذه الذكرى العظيمة في التاريخ .لرجل هو أعظم رجال التاريخ، هي دلالة واضحة على العيش الأبدي.

فالإمام الحسين (ع) عاش وراء الحق، من هنا كانت التسمية «عاشوراء» يميل حيث يميل الحق، ويدور حيث يدور، حتى استشهد وضحّى بأغلى ما يملك، وهي روحه الطاهرة، «والجود بالنفس أسمى غاية الجود».

تلك الروح الطاهرة التي أحبها ربها وأحبّته فصعدت إليه جلّ جلاله في اليوم العاشر منذ ألف وثلاثمائة وأربعين ونيف من السنين، وهي السراج المنير الذي ورثه الإمام المعصوم عن أبيه المعصوم عن جده المصطفى.

منذ فجر التاريخ والفساد والصلاح يتصارعان، ولكل منهما جماعته

(١) الصواعق المحرقة ص ١١٧ وجوهرة الكلام في مدح السادة الأعلام ص ١١٩.

وأنصاره، يدافعون عن وجهة نظرهم بأساليب مختلفة ومناهج خاصة بلا خجل ولا حياء.

فأصحاب الفساد لا يشعرون بفسادهم، لأن نفوسهم قد تلوثت منذ الطفولة المبكّرة حيث شربوه مع الحليب ففسد لبنهم، وفسدت بذلك الفطرة «الروبة» والروبة الفاسدة تفسد كل مشتقاتها.

فمعاوية بن أبي سفيان بعد أن انتهت مهزلة التحكيم واستلم زمام الحكم عمل على مسخ تعاليم الإسلام، ومارس سياسة استهدف منها محق نزعة الحرية لدى الإنسان المسلم، وتحويله عن أهدافه العظيمة ونضاله من أجلها، فاعتمد المبادىء التالية: التخدير باسم الدين، وشلّ الروح الثورية عند المناضلين، وإحياء النزعة القبلية واستغلالها لمصالحه الشخصية، والإرهاب والتجويع.

وبهذه السياسة حاول معاوية القضاء على ما لدى الجماهير المسلمة من نزعة إنسانية تجعلها خطراً على كل حاكم يجافي مبادىء الإسلام في ممارسته لمهمة الحكم.

ومن هذا الفساد كان الانحراف عن الحق، انحراف في الدين، وانحراف في الأخلاق، وانحراف في الاجتماع، وانحراف في كل قيم الحياة الإنسانية الفاضلة.

ومن الانحراف كان الظلم الذي حاول حجب النور عن الأبصار، وتأخير طلوع شمس النهار الكاشفة، ففشل بلا ريب ولا شك، لأن لا شيىء يحول دون انبلاج الفجر مهما ثقل وزن الليل على صدور المصلحين الصالحين.

ولما آن الأوان نهض أنصار الصلاح، وامتشقوا سيف الحق ليزهقوا الباطل ويزيلوا الفساد، وينشروا الخير والصلاح بقوة الإيمان، وعزيمة الإرادة، وأمل الانتصار.

والمؤمنون المصلحون كانوا وما زالوا يجاهدون في سبيل الطهارة والتخلّص من النقائض الملوّثة، وقد يلزم الإنسان بعض القدرة ليطهّر جسده

من تلوّثات الحياة الخارجية، ولكن يلزمهم الكثير من البذل والجهاد من أجل تطهير أنفسهم من الشوائب التي نهى عنها الدين الحنيف والقائمون عليه من العلماء الأبرار.

هؤلاء هم الذين جاهدوا في سبيل نشر منهج الصلاح، وارتفعوا فوق أنفسهم لينفلتوا من قيود شرورها، ويتخلّصوا من أثقال ذنوبها، فاغتسلوا بمطر الفطرة الأولى التي فطرهم عليها ذو العرش العظيم فبعثوا أحياء من جديد، لقد تخلّقوا بأخلاق ثورية جديرة أن يتخلّق بها كل ثائر على مدى العصور.

جاء في فجر الإسلام على لسان الليث بن سعد:

وأما قصص الخاصة فهو الذي أوجده معاوية، ولّى رجلاً على القصص، فإذا سلم من صلاة الصبح، وذكر الله عزّ وجلّ، وحمده ومجّده، وصلى على النبيّ وآله، دعا للخليفة ولأهل بيته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه، وعلى المشركين كافة[1].

فهذا مسلم بن عمرو الباهلي ـ وهو من أصحاب ابن زياد ـ طلب منه مسلم بن عقيل المعروف بجهاده وتقاه، بعد القبض عليه، أن يسقيه من جرّةٍ بباب القصر، فقال له: أتراها ما أبردها...؟ والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم.

فقال له مسلم: من أنت؟ فقال:

أنا من عرف الحق إذ تركته، ونصح الأمة والإمام إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته[2].

وهذا عمرو بن الحجاج الزبيدي، من قادة الجيش الأموي في كربلاء، رأى بعض أفراد جيشه ينسلّون إلى الإمام الحسين ويقاتلون دونه فصاح بأعلى صوته: يا أهل الكوفة، إلزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٥٨ ـ ١٦٠.
(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٨١.

مرق من الدين وخالف الإمام[1].

وبعد الدس في الأحاديث النبوية وإنفاق المال الوافر إلى الوعّاظ والقصّاص عمد معاوية إلى رعاية الشعر وتشجيع الشعراء ليجذب قلوب الأعراب إليه.

قال معاوية: اجعلوا الشعر أكبر همّكم وأكثر آدابكم، فإنه مآثر أسلافكم، ومواضع إرشادكم[2].

لقد أكرم الشعراء، ودفع لهم الأعطيات الكبيرة، واقتدى به من جاء بعده من خلفائه، فأعادوا إلى الأذهان سؤدد قريش الماضي، وأحيوا في النفوس العصبية القبلية التي حاربها الرسول (ص) حرباً شعواء.

وجاء بعد معاوية ابنه يزيد، فسار على خطّة أبيه بعد أن ورث الحكم عنه. يقول الدكتور طه حسين:

وأما يزيد فقد كان صورة لجدّه أبي سفيان، كان رجل عصبية وقوة وفتك، وسخط على الإسلام وما سنّه للناس من سنن فأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار، فاستعفاه وقال: أتريد أن تردني كافراً بعد إسلام؟.

فأغرى الأخطل وكان شاعراً نصرانياً، فأجابه وهجا الأنصار هجاءً مقذعاً مشهوراً: [3]

ذهبت قريش بالمكارم والعلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار[4]

وقد كان يزيد يكره بني هاشم ويكره الأنصار كرهاً شديداً، ذلك أنه فقد في معركة بدر على أيدي هؤلاء من كبراء أسرته، أفراداً لهم وزنهم، وظلّت جدته «هند» تلبس الحداد عليهم مدة طويلة، وقيل أنها افتخرت على الخنساء في سوق عكاظ بشدة حزنها على من فقدت في واقعة بدر المشؤومة، وهي

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٣١.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٠٢.
(٣) في الأدب الجاهلي ص ١٣٥.
(٤) تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

التي حرّضت على اغتيال «حمزة» عم النبي (ص) ثم أكلت كبده[1] .

فيزيد لا يستطيع أن ينسى ثارات عائلته التي قاتلت المؤمنين المناضلين في سبل الدعوة الإسلامية، وإن ثارات العائلة أهم من عقائد الدين في نظر أهل البداوة، ومن يدرس مثل هذه القيم البدوية ير مصداق هذا بكل وضوح.

وإن تلك القسوة الجاهلية التي قتل فيها بنو هاشم في موقعة كربلاء، وقتل فيها الأنصار في موقعة الحرّة، تشير إلى عصبية يزيد وحمقه وحقده الدفين اتجاه هؤلاء الأبرار[2] .

استرجعت قريش في العهد الأموي مجدها الذي كان لها في الجاهلية، وانتقمت ممن ساعدوا النبي محمداً على دعوته، وذلك عن طريق الشعر والسيف، وهما سلاحا البادية.

وعاد العرب في عهد بني أمية، كما يقول الدكتور طه حسين:

إلى شرٍّ مما كانوا فيه في جاهليّتهم من التنافس والتناحر القبلي[3] ، كما عمل الأمويون على إثارة قلوب العرب ضد غيرهم من الأقوام فصارت بذلك دولة بني أمية دولة عربية شعرية، لا تفهم الإسلام إلا على أساس قومي بدوي[4] .

جاء الإسلام ليقضي على الكسروية، فأقام الأمويون كسروية أُخرى فالفرس استعبدوا الناس باسم (هرمز) والأمويون استعبدوهم باسم الإلّه الواحد القهار.

«وبعد هذا العرض التاريخي السريع الذي أوقفنا على ظروف تكوين المجتمع الأموي نرى أن الأمويين قد أهملوا أهل الحديث واهتمّوا بالشعراء كما كان يفعل البدو تماماً.

---

(١) الأغاني ـ وشرح نهج البلاغة لابن أبي حديد.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) في الأدب الجاهلي ص ١٣٥ .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٢١٧.

لذلك نرى أن أهل الحديث سجّلوا مثالب الأمويين وفضائل أعدائهم فبقي هذا التسجيل خالداً حتى اليوم يقرأه الناس جيلاً بعد جيل، أما الشعر الذي قيل في مدح الأمويين، فقد قرأه الناس بعد ذلك على أساس أن أعذب الشعر أكذبه، وذهبت الأموال الباهظة التي أنفقت في سبيله»[1] .

وإذا ذكرنا الأمويين ذكرنا على رأسهم معاوية بن أبي سفيان الذي عمد إلى إحياء العصبية القبلية عند جميع القبائل العربية.

وذلك ليضمن ولاء تلك القبائل، ومن ثم ليضرب بعضها ببعض حين يخشى الخطر على عرشه، ولم يقف عند هذا الحد، بل تعدّاه إلى إحياء العصبية العنصرية عند العرب عموماً، ضد المسلمين غير العرب (الموالي)، فأشعل الفتن وأضرم النار بين القبائل[2] .

وأما عن تاريخ عاشوراء وكيف تطوّر معناها عبر الظروف التاريخية فالعرب منذ القديم يعتبرون أربعة من الشهور القمرية محرّمة حيث كانوا يتركون فيها الغزو والقتال وسفك الدماء لينصرفوا ويتفرّغوا فيها إلى شؤونهم التجارية والزراعية والأدبية وغيرها، فيقيمون الأسواق، وينشدون القصائد، ويعقدون الأندية، ويتفاخرون بأفضل ما ينتجون.

والأربعة الحرم هي: رجب، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، واحترام العرب لهذه الشهور كان تقليداً دينيّاً، ولما ضعف عندهم الشعور الديني تبعاً لذلك التقليد صاروا يبدلون بعض هذه الأشهر الحرم بغيرها عندما تدعو الحاجة، فيحاربون ويغزون في رجب مثلاً ويحرّمون بدلاً منه شعبان أو غيره، وهذا ما سموه: «النسيء» الذي حرّمه الإسلام وندّد به في قوله تعالى:

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا﴾[3] .

---

(١) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج ١ ص ٤٦٠.
(٢) راجع نصر بن مزاحم في كتاب صفين ص ١٥٣ ـ ١٥٦.
(٣) سورة التوبة، آية: ٣٧.

فالغرض أن شهر محرّم هو أحد هذه الشهور الأربعة الحرم أي المحرّمة منذ القديم، وأما «عاشوراء» فهو اليوم العاشر منه، كانوا يعتبرونه أقدس أيام السنة وأكثرها خيراً، يتصدقون فيه على الفقراء، ويتفقّدون المساكين واليتامى.

هكذا كان مفهوم شهر محّرم وعاشوراء منذ القديم إلى أن جاء الأمويون إلى الحكم فغيّروا مفهومه كما غيّروا الكثير من المفاهيم الإسلامية وحرّفوا في الشريعة الإلّهية، فسفكوا في هذا الشهر المحرّم أقدس الدماء، وقتلوا أشرف رجال التاريخ، وذبحوا الأطفال، ومثّلوا بالشهداء، ورضّوا جثث أهل البيت بحوافر الخيل.

هكذا تبدل مفهوم «عاشوراء» على أيديهم، وهكذا تحوّل مفهومه عند المسلمين إلى أيام حدادٍ وحزن وأسى، وأصبح الشهر المحرّم موسماً خاصاً للاحتفال بذكرى أولئك الأبطال الذين دافعوا عن الحق والعدل.

فذكراهم ومواقفهم تلقّن الجيل الناشىء دروس العزة والكرامة، وتقوّي في نفوسهم روح التضحية والفداء في سبيل الحق.

وفي رأي العلماء أن نشر قصة أولئك الأبطال هو أكبر خدمة اجتماعية وتربوية تقدم للمجتمع.

ألا نرى التقليد السائد عند كافة الشعوب والأمم حيث يحتفلون بين حين وآخر بذكرى ثوراتهم الوطنية، وأبطالهم الثائرين، وقادتهم المحررين، فيقيمون لهم التماثيل في الساحات العامة، ويرفعون صورهم في الشوارع والأندية تخليداً لذكراهم.

كل ذلك لأنهم يقدّرون صنيعهم، ويؤدّون حقّهم عليهم وعلى التاريخ، لأن في التاريخ عبرة وفائدة للنشىء الجديد، وتشجيعاً وتشويقاً للاقتداء بهم والسير على مبادئهم، ولولا هذه الذكريات الكريمة لماتت روح التضحية في نفوس الناس، وسادت روح الأنانية والمصالح الشخصية.

فإذا كان الأمر كذلك أليس يجدر بثورة الحسين الإنسانية وموقفه النبيل أن يشاد بذكراها في كل زمان وكل مكان في بلاد العالم الذي يضم بين أفراده

مستضعفين ومحرومين ومظلومين؟..

والحسين ليس للشيعة ولا للمسلمين فقط، إنه لكل أصحاب المبادىء الإنسانية والمواقف الوطنية النبيلة. هو كالنور الهادي، والهواء المنعش، والماء المحيي لجميع الناس، أي ثورة وطنية في العالم بأسره بلغت في عمقها وشمولها ونبل أهدافها وخير نتائجها مبلغ ثورة الحسين (ع)، إنها ثورة الحق ضد الباطل، وقد خدمت الإنسانية والحق العالمي.

فمحرّم في عرف المؤمنين العقلاء موسم سنوي لدورة دراسية تربوية تلقى فيها دروس من سيرة الحسين (ع) وأصحابه الشهداء، تعالج فيها مواضيع إنسانية ومثالية في التضحية ومتطلباتها.

يوم «عاشوراء» هو في الواقع يوم تظاهرة عالمية تأييداً للحق، واستنكاراً للباطل، ذلك الحق المطلق الذي يجب أن يبقى شعاراً حياً في نفوس أبنائنا.

وهذه أبواب المدارس الحسينية مفتوحة فادخلوها بسلام آمنين، إن مدرسة الحسين (ع) يجب أن تفتح في كل مكان، وذكراه يجب أن تقام في كل زمان.

ولقد حاول بعض أعداء الإصلاح ولا زالوا يحاولون أن يخلقوا بعض المبرّرات لكي يتخذوا من أيام محرّم أعياداً ومناسبات فرح ابتدعوها من خيالهم.

فمن ذلك مثلاً: زعمهم أن هجرة الرسول الأكرم إلى المدينة المنورة كانت في أول يوم من محرّم، فلذلك وحبّاً بالرسول اتخذوا من ذلك اليوم عيداً وأسموه عيد الهجرة!!.

واعجباه! فلو كانوا يحبون الرسول (ص) لحزنوا لحزنه وفرحوا لفرحه فالحسين حبيب الرسول (ص) وله قال: «حسين مني وأنا من حسين» أفلا يحزنون لمصيبته المفجعة؟!.

وفوق هذا كله، تاريخ هجرة الرسول (ص) إلى المدينة كانت في أوائل شهر ربيع الأول حسب إجماع المؤرخين وليس في أول محرّم كما يدّعون!!

وعلى أي حال لا يوجد أي مبرر لاتخاذ أيام محرّم أو بعضها أعياداً وتبادل التهاني بعد أن وقعت فيها تلك المأساة الإنسانية الخالدة التي ذهب ضحيّتها عشرات الضحايا من ذرية رسول الله (ص) وأبنائه وأهل بيته الطاهرين. ففي حديث للإمام الرضا (ع) قال:

«إن يوم عاشوراء يوم تبركت به وفرحت فيه بنو أمية وآل مروان لقتلهم الحسين (ع) وأهل بيته، فمن اتخذه يوم فرح وسرور جعل الله له يوم القيامة يوم حزن وخوف وكآبة، ومن اتخذه يوم حزن ومصيبة جعل الله له يوم القيامة يوم فرح وسرور، وقرّت بنا في الجنان عينه»[1].

الثـوّار:

لقد كان غريباً جداً على كثير من المسلمين آنذاك أن يروا إنساناً كالحسين (ع) يُخيّر بين حياة رافهة، فيها الغنى والمال والمتعة والنفوذ ولكن فيها إلى جانب ذلك الخضوع لطاغية جائر منحرف عن الخط الرسالي الإسلامي وبين الموت عطشاً مع أبنائه الأعزاء وأصحابه الكرماء وأهل بيته جميعاً أمام بصره ينازعون النزاع الأخير وهم يلوبون ظمأً.

والحسين الإمام المعصوم يعلم أي مصير مؤلم ومحزن ينتظره هو وأهله وأصحابه ونساؤه، يعلم ذلك كله ثم يختار اللون القاتم الرهيب على اللون الزاهي الرغيد من الحياة.

إن بقتل الحسين الشهيد إحياء الدين، وبدمه حفظ شريعة الإسلام، وإذا قارنّا بين حياة الحسين وحياة الدين كان الدين أولى بالحياة، لأن الجمع بينهما يؤدّي إلى الجبر وسلب الحرية الإنسانية وهذا ممنوع في الشريعة الإلّهية. فالحسين فداء الدين، وهذا ما صرحت به شقيقته العقيلة زينب عليها السلام لما جلست عند رأسه وهو صريع ورفعت طرفها نحو السماء وقالت كلمتها المأثورة: اللهم تقبّل منّا هذا الفداء.

---

(١) مأساة الحسين للشيخ عبد الوهاب الكاشي ص ١٨.

وإلى هذا المعنى يرمز الحديث الشريف المعروف: «حسين مني وأنا من حسين».

فحسين منّي واضح المعنى فهو حفيده، ولكن: «أنا من حسين» يعني أن بقاء ذكري وشريعتي وديني بالحسين، أي بتضحية الحسين وشهادته.

إلى هذا المعنى أشار السيد جمال الدين الأفغاني: إن الإسلام محمدي الوجود والحدوث وحسيني البقاء والاستمرار.

إن الحسين قد أحيا بقتله دين جده وشريعة الإسلام، ولو لم تقع تلك الواقعة لم يكن الإسلام على ما هو عليه الآن، بل كان من الممكن ضياع رسومه وقوانينه حيث كان يومئذٍ جديد عهد.

وأحسن تعبير عن هذا الواقع ما قاله ذلك الشاعر عن لسان الحسين يوم عاشوراء:

إن كـان ديـن محمـد لا يستقـم   إلا بقتلـي فيـا سيـوف خـذينـي

لقد كان غريباً في زمن الحسين ـ وفي غير زمنه ـ أن يروا هذا النموذج الراقي في منهج الحياة، هذا النموذج الذي هز الضمير المسلم هزاً فأيقظه من سباته العميق ليرى صفحة جديدة مشرقة يكتبها الحسين بدمه الزكي في سبيل المبدأ القويم والشرف العظيم، يكتبها الإمام الحسين درساً إنسانياً دائماً لكل عصر، يقول للناس:

ابتعدوا عن الحياة الذليلة، ابتعدوا عن زيف الزعماء الذين تعبدونهم ابتعدوا عن أصنام اللحم المنغمسة في متع الحياة الدنيوية.

لقد خط الإمام الحسين للناس جميعاً طريقاً مضيئاً سليماً قويماً لا عوج فيه ولا زلل، فيه الصفاء وفيه النقاء، طريقاً جديداً بالحياة الإنسانية الحرّة الكريمة.

لقد قدّم الإمام الحسين (ع) للناس جميعاً منهجاً جديداً في ممارسة الحياة فيه القسوة والصبر والحرمان، وفيه المنهج النضالي الشريف من أجل

صون حياة الإنسان، فهل يدرك ثوارنا اليوم هذا المنهج؟.

إن هذا اللون المشرق من الأخلاق العالية في الجهاد، وهذا النموذج الباهر من السلوك الرفيع هو خطر أكيد على كل الحكام والزعماء الخائنين لضمائرهم ولشعبهم ولأمتهم ولمجتمعهم ولإنسانيتهم.

وما نراه واقعاً أن ضمائر مثل هؤلاء الزعماء قليلاً ما تتأثّر بمثل هذه النماذج المشرقة والأنوار المضيئة، ولكن الذي يتأثر هو الأمة والمجتمع، وهذا مطلب الإمام الحسين (ع)، هذا ما أراده الإمام من أجل إصلاح الأمة التي بدأ بإصلاحها جده الرسول الأعظم (ص)، خير أمة أخرجت للناس تدافع عن كرامتها وتضحّي من أجل إنسانيّتها.

إننا ندرك هذا التصميم من هذا النمط العالي من السلوك في الثورة الحسينية منذ بدايتها في المدينة المنورة حتى ختامها في كربلاء الحبيبة.

يقول الإمام الحسين لأخيه محمد بن الحنفية حينما كانا في المدينة:

«يا أخي والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية»[1].

ولنسمع إليه أيضاً وهو يجيب الحر بن يزيد الرياحي حين قال له:

أذكّرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتُقْتلن، ولئن قوتلت لتهلكن. فماذا كان جواب الإمام الحسين؟.

أجابه: أبالموت تخوفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟

ما أدري ماذا أقول لك!! أقول لك كما قال أخو الأوس لابن عمّه عندما لقيه وهو يريد نصرة رسول الله (ص)، قال له: أين تذهب فإنك مقتول؟! فقال:

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى   إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ١٨٦.

وواســى رجــالاً صــالحيــن بنفســه وخــالــف مثبــوراً وفــارق مجــرمــا
فإن عشت لم أندم وإن مت لم أُلم كفـى بـك ذلاً أن تعيـش وتـرغمـا[1]

وهو صاحب القول المأثور: «موت في عز خير من حياة في ذل».

وكما ألمحنا، كانت حياة الرجل العادي حياته الخاصة، والقضايا العامة بعيدة عن اهتمامه، وكل ما يهتم به هو عطاؤه يحافظ عليه ويطيع توجيهات زعمائه خوفاً من حذف اسمه من لائحة المحظوظين، ويسكت عن كل ما يراه من جور وظلم، هذا نموذج عن حياة الرجل العادي في عصر الحسين وفي عصرنا اليوم أيضاً.

أما أصحاب الحسين فهم الثوار الحقيقيون، والمؤمنون الأصوليون كانوا وما زالوا درساً مشرقاً في الفداء والتضحية والبذل والعطاء، هم نموذج آخر فريد من نوعه، لقد كان الكثير منهم في ميعة الشباب، وفي حياتهم متسع من الوقت للاستمتاع بطيبات الحياة، كما كان لكل منهم عطاء من بيت المال لكنهم جميعاً لم يجذبهم عن الحق هذا كله بل صمدوا بعزم وثبات على الموت مع الحسين (ع)، لقد تمرّدوا على مجتمعهم القبلي في سبيل مبدأ آمنوا به واقتنعوا بحقّانيّته.

أنصار الحسين هم أنصار دين الله:

لم يتمتع نبي ولا ولي ولا وصي نبي كما تمتع الإمام الحسين بأصحابه، صحابة جده وصحابة أبيه وصحابة أخيه.

والحسين لم يكن وحده في كربلاء، ولم تقتصر الثورة على أهله وأولاده، بل جمعت خيرة الناس من كبار العلماء والفقهاء والعقّال، فكانوا العصارة الإيمانية والفكرية والعلمية في عصره.

أنصار الحسين بموقفهم التاريخي الرسالي أثبتوا للملأ أنهم أخلص

---

(١) المصدر نفسه والطبري ج ٣ ص ٢٨٠.

الأنصار، وأعمقهم إيماناً بعقيدتهم، وأشدّهم تمسّكاً بمبدئهم، لقد برهنوا بقناعتهم التامة المنهج السليم الذي ينتهجونه.

إنهم على يقين بصدق الجهاد الذي اختاره الإمام الحسين له ولهم، ولا ريب أنهم على علم مسبق بالنتائج المترقّبة أبان خوض المعركة، فإمامهم على حق، والشهادة من أجل الحق واجب شرعي، وما الشهادة إلا أصداء لأصوات الحقيقة العليا، والرسالات العظمى. لقد التصقوا بالحسين حتى أصبحوا منه مكان أعضاء الجسد، ودخلوا في نفسه حتى انسابوا في مجاري النفس، لم يتلكّأوا ولم يتوانوا ولم يتخاذلوا قبل انبلاج الفجر وصياح الديك، وهذا كله يشير إلى عظمة القائد وسمو المقصد ونبل المجاهدين.

إن أصحاب الحسين كانوا يمثّلون الطليعة الواعية في عصرهم التي تعيش آلام المجتمع وآماله، وتقف على كل ما يهدّد المسلمين المؤمنين في سلوكهم وعقيدتهم وحياتهم المادية والمعنوية، لذلك انضمّوا إلى الثورة بمجرّد أن سمعوا بها وعَرفوا قيادتها النبيلة التي تمثّلت بسيد شباب أهل الجنة، ابن بنت رسول الله (ص) وابن أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب (ع).

كان كل فرد منهم يملك رؤية واضحة عن تحرّكه النضالي العادل الشريف، وأثبتوا بمواقفهم الثابتة شجاعة خارقة النظير، ولكن أين الثريا من الثرى! أين هم من أصحاب يزيد المرتزقة الطامعين بالغنائم الذين يظنون أنهم سيجنون! من وراء مناصرتهم ما سيجنون. فقبحاً لأي موقف يكون له وجه لامع وقلب أسود، وغايته رغيف العيش وحده وطمع الدنيا الفانية!!.

فشتّان بين من يساق إلى المعركة دون إيمان بها وبين من يخاف على نفسه وداره وأمواله، وبين من يندفع نحو المعركة مؤمن بعدالتها، إنها صورة تمثّلت في قيادة الفريقين وتجسّدت بين أنصارهما.

فهذا الإمام الحسين يتحدّث مع ابن سعد في اليوم التاسع من محرّم قائلاً له: يا ابن سعد!.. أتقاتلني؟ أما تتقي الله الذي إليه معادك؟! فأنا ابن بنت من قد علمت... ألا تكون معي وتدع هؤلاء؟ فإنه أقرب إلى الله تعالى!

فماذا أجابه الطماع اللعين؟ قال: أخاف أن تهدم داري.

فأجابه الإمام: أنا أبنيها لك.

فردّ عليه: أخاف أن تؤخذ ضيعتي!

فأجابه الإمام: أنا أخلف عليك خيراً منها... من مالي بالحجاز.

فردّ عليه: لي بالكوفة عيال وأخاف عليهم من ابن زياد القتل.

فتأمل هذه الأسباب الواهية والأهداف التافهة!.

ولكن هناك هدف آخر إلى جانب هذا، هناك إمارة يطمع بها، إنها إمارة الري التي منّاه بها ابن زياد، وقد قال مصوّراً حيرته وقلقه واختياره الضلال على الهدى:

والله لا أدري وإنـــي لحـــائـــرٌ ... أفكّـر فـي أمـري علـى خطـريـنِ
أأترك ملك الري والري منيتي ... أم أصبـح مـأثـومـاً بقتـل حسيـنِ
حسين ابن عمّي والحوادث جمّة ... ولكـنّ لـي فـي الـري قـرّة عيـنِ

إنها صورة تعبر عن نفسيّة وضيعة لإنسان يحارب الحق من أجل مكاسب شخصية ودعم الباطل.

أما أصحاب الحسين فقد آمنوا بحقّهم بالحياة ودورهم في الجهاد من أجل تحقيق إرادة الله جلّ شأنه، فدغموا روحهم في روحه (ع)، ووجودهم في وجوده، فهذا زهير بن القين لما سمع مقالة الحسين:

«أما بعد: فقد نزل بنا من الأمر ما ترون، وأن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

عندها قال زهير:

«والله وددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل ألف مرة وأن الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك» فيا لله!!!.

وهذا برير بن خضير أحد أشراف أهل الكوفة ونسّاكهم، ومن مشايخ القراء في جامعها يخاطب الحسين بقوله: «والله يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تُقطع فيك أعضاؤنا حتى يكون جدك يوم القيامة بين أيدينا شفيعاً لنا، فلا أفلح قوم ضيّعوا ابن بنت نبيّهم، وويل لهم ماذا يلقون به الله، وأفٍ لهم يوم ينادون بالويل والثبور في نار جهنم!.

أما مسلم بن عوسجة فقد صاح: أنحن نخلّي عنك؟ وبما نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، لو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، أما والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيا، ثم أحرق، ثم أذرى، ويفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك».

فيا للمجد الذي يضع في الخارق المدهش خارقاً غريباً في حساب العبقريات!

وهذا سعيد بن عبدالله الحنفي يقول:

«والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرى يفعل بي سبعين مرة لما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».

جميع أصحاب الحسين ينطقون عن قلب واحد وهدف واحد، إنهم يمثّلون الصمود الأصيل، والجهاد النبيل، وعندما نتمثّلهم في خواطرنا تهزّنا مواقفهم، وتأخذنا نشوة من سيرتهم لا تعادلها نشوة أخرى.

والإمام الحسين وقف على نيّات أصحابه الشهداء فأعطاهم شهادة

استحقاق في الفداء المشروع والكفاح المحمود والجهاد المشكور فقال فيهم:

«أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً».

وقال لأخته زينب، عقيلة بني هاشم في حقّهم أيضاً:

«والله لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنيّة دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه».

الأصحاب الحسينيون يملكون الرؤية الواضحة الصائبة، تاجروا مع الله فربحت تجارتهم، ولم يجدوا طريقة أفضل من الشهادة من أجل تبديل أوضاعهم القائمة، فنزلوا إليها طلباً لمرضاة الله، وتحقيقاً لأمره، دعتهم الشهادة فلبّوا نداءها وكأنها أمنيتهم التي ينتظرونها من زمن بعيد.

هذه نماذج من سلوك بعض الثائرين الحسينيين في كربلاء، وقد أهمل التاريخ ذكر كثير منهم وذلك لحملة مستهدفة من السلطة الحاكمة، حيث أهمل المؤرخون الرسميون ذكر كثير من تفاصيلها الدقيقة المهمة.

فإلى ثوارنا اليوم نقدم هذه النماذج لتكون مثلاً أعلى لهم ودرساً عملياً في منهج الحياة الحرّة الكريمة.

ومع ثوار الحسين الحقيقيين الذين يحسبهم الحسين من أنصاره نعيد قول الله عزّ وجلّ:

﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

وكربلاء الإمام الحسين (ع) ليست كربلاء محلية أو آنية أو محصورة بمكان وزمان معيّنين، بل هي كربلاء المحرومين، وكربلاء المستضعفين، وكربلاء طلاّب الحق في كل زمان ومكان، وهي كما وصفها الشاعر بولص سلامة:

كـربـلاء ستصبحيـن محجّـاً وتصيـريـن كـالهـواء انتشـارا

ذكـر المفجـع الأليـم سيغـدو   في البرايا مثل الضياء انتشارا
فيكون الهدى لمن زام هديا   وفخـاراً لمـن يـروم الفخـارا
كلّمـا يُـذكـر الحسيـن شهيـداً   موكب الدهر يُنبت الأحرارا

وما يؤلمنا في هذه الأيام في مجتمعنا الذي استولت عليه الأنانيات أن اسم الثوري أصبح يطلق علي أي إنسان يلبس لباس الثوار حتى على المنحرف والمخادع، وحتى على الضال وقاتل الإنسان.

وما يلاحظ أن كثيراً من شبابنا لا يؤمن بالخط الذي ينتمي إليه، ولكنه يؤمن ببعض الدراهم تدفع له كراتب شهري، ولا فرق بينه وبين جيش ابن زياد كل باع نفسه وضميره وساوم على شرف دينه وأمته.

نأمل لهؤلاء أن يعودوا إلى صوابهم، وينظروا جدياً في سلوكهم، عسى الله أنْ يهديهم إلى سواء السبيل ويتخذون من أصحاب الحسين درساً في النضال الرسالي، وقدوة صالحة يسيرون على خطاهم كما سار شهداء الإسلام في الدفاع عن الخط الإسلامي والرسالة الإسلامية، ليكونوا أوفياء عند الله وأولياء صالحين يكتبون المجد بدمائهم الزكية الطاهرة، ترتّل الشفاه اسمهم، وتدقّ القلوب أنغام حبّهم، وتتحرك العقول معجبة بهم.

الهجرة:

يقال: هجر هجراً: تباعد، ويقال: هجر في مرضه وفي نومه، وهجر الشخص: تركه وأعرض عنه، وهجر زوجته: اعتزل عنها ولم يطلقها.

وفي الاصطلاح: هجر البلد أي تركه وانتقل إلى بلد آخر.

والهجرة هي تارة واجبة وأُخرى مباحة، وربما تكون محرّمة وذلك حسب اختلاف الغاية من الهجرة والنتائج المترتبة عليها.

فإذا كانت الهجرة لغرض طلبِ ضروري، وأداء واجب، أو التخلص من ارتكاب محرم، فالهجرة واجبة، وتركها حينئذٍ يوجب اللوم والعقاب كما في الآية الكريمة:

﴿إن الذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا. ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما﴾[1] .

نزلت هذه الآيات المباركة في لوم جماعة من المسلمين تخلّفوا عن رسول الله (ص) في مكة ولم يهاجروا إلى المدينة فكانوا مضطهدين في مكة من قِبل قريش في أنفسهم ودينهم، بعيدين عن معرفة الأحكام والآيات، جاهلين بشرائع الإسلام وتفاصيله، فكانوا بذلك مقصّرين ومعاقبين حسب صريح الآية.

وهذا الحكم بلا ريب ساري المفعول بالنسبة إلى كل مسلم يعيش في بلد يُضطهد فيه ولا يتمكّن من القيام بواجباته ومسؤولياته الشرعية، ولا يحصل فيه على حقوقه المشروعة، فعندئذٍ الواجب يقضي عليه أن يهاجر إلى حيث الحرية الدينية والحرية الشخصية، وإلا فهو من الأعراب المذمومين في الكتاب والسنّة، قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان قلوبكم... الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾[2] .

وقد حدد الله عزّ وجلّ تعريفاً للمؤمنين فقال:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[3] .

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧ ـ ١٠٠.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٤، وسورة التوبة، آية: ٩٧.
(٣) سورة الحجرات، آية: ١٥.

وجاء في الحديث الشريف: ستة أصناف من الناس يدخلون النار بست خصال: الأمراء بالجور، والعلماء بالحسد، والتجار بالخيانة، والدهّاقين بالكبر، وأهل الرساتيق بالعصبية، والأعراب بالجهل.

والجهل كما هو معروف علمياً ومنطقياً لا يرفع المسؤولية عن الإنسان إلا إذا كان قاصراً عن المعرفة، أي عاجزاً عنها واقعاً، كالذين استثنوا في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**إلا المستضعفين من الرجال**﴾.

الهجرة الواجبة والهجرة الحرام: إذا كانت الهجرة لأجل القيام بعمل محرّم من ظلم أو غصب أو غير ذلك، أو أن يعلم المهاجر بأن هجرته إلى ذلك البلد تفوّت عليه واجباً، ويضيّق عليه هناك في عقيدته ودينه فالهجرة حينئذٍ تكون محرّمة، بل إنّ مجرد السفر المؤقت لأمثال هذه الغايات الفاسدة يكون حراماً، وهذا ما عبر عنه الفقهاء بسفر المعصية.

أما إذا كانت الهجرة لأمر راجح مثل التجارة المباحة، أو الاستزادة من العلم، أو زيارة الأماكن المقدسة، فالهجرة في هذه الحالات مستحبّة والسفر في مثل هذه الغايات مستحب.

وإذا كانت الهجرة من المدينة إلى القرية مثلاً، ومن بلد عامر إلى البادية التي لا تتوفّر فيها وسائل الراحة فالهجرة عندئذٍ مكروهة، لأن السكن في المدن الكبيرة أفضل حيث يوجد فيها جميع لوازم الراحة الضرورية للمواطن.

قال الإمام الصادق (ع):

«لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاث: فقيه ورع، وطبيب حاذق، وحاكم عادل، وإن عدموا ذلك فهم همج رعاع».

أي أنهم لا يتمتعون بلذة الحياة، فالفقيه يعلّم ويوجّه، والحاكم يقيم النظام العادل وينفّذ، والطبيب يعالج المرضى للوقاية والاستشفاء من الأمراض، ولا ريب أن هذه الدعائم الثلاث التي حثّ عليها الإسلام: العلم والصحة والأمان، هي ضرورية للحياة الاجتماعية السعيدة.

وبعد هذا العرض الموجز للهجرة نأتي إلى هجرة الأنبياء ورجال الإصلاح الذين اختارتهم العناية الإلّهية ليصلحوا المجتمعات التي وجدوا فيها.

وإذا تصفّحنا تاريخهم وجدنا أن الهجرة كانت ظاهرة ملازمة لحياتهم الرسالية، فقلّ أن نجد نبياً لم يهاجر من بلد إلى بلد، ومن محيط إلى آخر أثر على تأخير أو إعاقة الرسالة المطلوب منه تنفيذها.

فهذا نبي الله إبراهيم الخليل (ع) بُعث في العراق ثم هاجر إلى مصر ثم انتقل منها إلى الشام ومنها إلى فلسطين الحبيبة فاستقرّ بها إلى أن مات.

وبعده كان النبي يعقوب وأولاده، ثم النبي موسى الكليم هاجر من مصر إلى مدين ثم عاد إليها ثم هاجر نحو الشام.

والنبي عيسى بن مريم (ع) كان دائم التجوال لا يستقرّ في بلد مدة طويلة حتى لقّب بالمسيح.

وأخيراً كان خاتم النبيين والرسل محمد (ص) هاجر من مكة المكرمة إلى الطائف ثم منها إلى المدينة فاستقرّ فيها وألّف حكومة إسلامية وبدأ بنشر الدعوة المباركة إلى أن قبض (ع).

ثم هاجر وصيه وخليفته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من المدينة إلى الكوفة.

فالهجرة كما نرى كانت ظاهرة مألوفة في حياة الأنبياء المرسلين والمصلحين الاجتماعيين، فلماذا هاجر هؤلاء الأنبياء الأبرار ومن أي نوع من أنواع الهجرة كانت هجرتهم؟.

مما لا ريب فيه أن هجرة الأنبياء كانت مفروضة وواجبة عليهم من الله سبحانه وتعالى، وذلك حسب متطلبات رسالاتهم، حيث كانوا لا يجدون القدرة الكافية في أوطانهم على تبليغ رسالاتهم نظراً للمعوّقات والعقبات التي وضعها المعارضون في طريقهم، فقد هدّدوا بالقتل على أيدي أعدائهم قبل

أداء وتبليغ دعوتهم، لذا كان لازماً عليهم ترك البلاد التي كانوا بها والهجرة إلى بلادٍ أخرى حيث يتيسّر لهم القيام بمسؤولياتهم كما طلب منهم ربهم وهو أحكم الحاكمين.

التشابه بين هجرة الإمام الحسين (ع) وهجرة جده النبي محمد (ص):

هاجر النبي (ص) من مكة المكرمة خوفاً من القتل المحتّم الذي كان ملاقيه لو لم يهاجر، وذلك على يد أربعين رجلاً من قريش بتدبيرٍ من أبي سفيان وحزبه الذين عزموا على قتل محمد (ص) في تلك الليلة المعبر عنها بليلة الهجرة، وغايتهم ليس قتل محمد بل قتل الرسالة الإسلامية في مهدها ومنع انتشارها.

والإمام الحسين (ع) هاجر من المدينة فراراً من كيد آل أبي سفيان ومؤامراتهم ضده كما كانوا ضدّ جده قبله بستين عاماً، فالسبب في الهجرتين واحد والغاية واحدة.

هاجر الحسين (ع) من المدينة ليلاً خوفاً من أن يقتل على يد أعوان يزيد حفيد أبي سفيان، الذي أرسل أوامر مشددة إلى واليه على المدينة يأمره بقتل الحسين (ع) فوراً وبدون تردد ثم إرسال رأسه إليه إذا رفض المبايعة والغاية من ذلك خنق صوت الحق في مهده ومنع المعارضة من الانتشار.

وكما أن هجرة الجد النبي محمد (ص) أنتجت توسّعاً بعيد الحدود في الرسالة المحمدية في أنحاء الجزيرة العربية وبلغ صداها إلى أقصى بلاد العالم كذلك كانت هجرة الحسين (ع) التي حطّمت الحصار الذي فرضه آل أبي سفيان حول الثورة الحسينية فعلا صوتها وبلغ صداها إلى أنحاء العالم الإسلامي.

ولم تمض بضع سنوات حتى انهار سلطان آل أبي سفيان وانهارت معه أركان الدولة السفيانية انهياراً كلياً بموت معاوية الثاني بعد ثلاثة أشهر من موت يزيد، ثم قامت على أنقاضها دولة مروانية بقيادة مروان بن الحكم، وقد تم ذلك بعد هجرة الحسين (ع) بأقل من خمس سنوات.

هذا من الناحية الواقعية بين الهجرتين، أما من الناحية النفسية فالتطابق أو التقارب واضح، فليلة الهجرة كانت أشد ليلة على النبي (ص) مرّت في حياته وقد أنزل الله جلّ وعلا سكينته عليه وهو في الغار حسب صريح الآية الكريمة:

﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[1] .

وكذلك الحسين (ع) فإن ليلة هجرته من المدينة كانت أشدّ الليالي عليه في حياته، لذلك نراه كان (ع) يتردّد على حرم جده رسول الله (ص) يناجي ربه ويشكو إلى جده ويقول في مناجاته مع الله جلّ وعلا، بعد أن صلّى ركعات في الحرم ثم رفع طرفه نحو السماء وقال:

«اللهم إن هذا قبر نبيك محمد (ص) وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر، وأسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه إلا اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى...

قالوا: فغفت عينا الحسين ورأسه على قبر النبي (ص) فرأى جده في المنام... فقال له (ص): حبيبي يا حسين، إن أباك وأمك وأخاك قدموا عليّ وهم مشتاقون إليك.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٤٠.

فبكى الحسين (ع) في منامه وقال: يا جدّاه، خذني معك وادخلني في قبرك فلا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا»...

ضمّني عندك يا جداه في هذا الضريح «علنّي يا جدي من بلوى زماني استريح.

فقال له جده (ص): يا بني لا بدّ لك من الرجوع إلى الدنيا حتى ترزق الشهادة لتنال ما قد كتبه الله لك من الأجر والثواب العظيم.

فانتبه الحسين (ع) وقصّ رؤياه على أهل بيته فاشتدّ حزنهم وكثر بكاؤهم حتى ورد عن بنت الحسين (ع) سكينة قالت: لم يكن في شرق الأرض وغربها أهل أشد خوفاً وهماً وغماً منا آل بيت رسول الله (ص)».

..

الهجرة إلى مكة المكرمة:

لماذا توجه الإمام الحسين في البداية بهجرته إلى مكة المكرمة؟

هاجر (ع) من مدينة الرسول (ص) إلى مكة المكرمة في الخامس من شعبان سنة ٦٠ هـ، ثم توجه بنهضته المباركة وحل في هذه المدينة التي كرمها الله متمثلاً بالآية الكريمة:

﴿ولما توجه تلقاء مدين قالْ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾[١] .

أما عن حلوله واختياره هذا المكان المبارك فيعود لسببين يقرّهما الشرع والعرف السياسي.

فمن الناحية الشرعية نرى أن علىٰ المهاجر إلى أي مكان عليه أن يتمكّن فيه من القيام بواجباته ومسؤولياته مع الحفاظ على حياته الشخصية، ومكة المكرمة هو البلد الوحيد في ذلك اليوم الذي يتمكن فيه الإمام الحسين (ع) من الجمع بين هذين الأمرين معاً، فهو من جهة حرم القدس، ومأمن لكل شيء حتى الطير والحيوان والنبات بنص من الكتاب العزيز:

---

(١) سورة القصص، آية: ٢٢.

﴿فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. . .﴾[1].

حتى قاتل النفس المحرمة إذا دخل مكة أمن على حياته من القصاص ما دام داخل الحرم، وعندما يخرج منه يُقتصّ منه.

ومن جهة أخرى من الناحية السياسية نلاحظ أن الحسين قائم بثورة إصلاحية فكرية، وهذه بلا ريب بحاجة إلى دعوة وأنصار وإعلام، ومكة يومئذٍ أنسب بلد للقيام بذلك كله، لأنها مقصد مختلف الناس، وممرّ المسلمين من جميع الأقطار، وكل حدث يحدث فيها ينعكس صداه في الحال على كافة الأقطار الإسلامية، فتسير فيه الركبان إلى جميع العالم الإسلامي، وكل دعوة تنطلق من مكة سرعان ما تصل إلى أسماع المسلمين في كل مكان.

وبالفعل فإن الإمام الحسين (ع) استطاع بفضل إقامته في مكة أن يبلغ أنباء ثورته على الحكم الأموي إلى أكثر الأقطار العربية، ويتصل بكثير من الوجوه والزعماء والوفود، ولذا فقد اجتمع له في خلال تلك المدة بين الستة آلاف والعشرة آلاف رجلاً، وكلهم كانوا قد تفرقوا عنه أثناء الطريق عندما ظهر لهم غدر أهل الكوفة بالإمام (ع)، وفي خلال تلك المدة تسلّم اثني عشر ألف كتاب دعوة من أهل العراق بالتوجّه إليهم.

وكانت نتيجة إقامة الإمام (ع) في مكة دعماً كبيراً للقضية التي يبغي القيام بها، وإعلاماً واسعاً لثورته، الثورة الحسينية المباركة.

وعندما علم الأمويون بكل ذلك قلقوا واتخذوا إجراءات سريعة لخنق الثورة في مهدها، وإن أدى ذلك إلى هتك حرمة مكة وانتهاك كرامتها، فقرروا قتل الحسين فيها ولو كان معلّقاً بأستار الكعبة الشريفة.

فما كان من يزيد المتعطش إلى كرسي الملك الذي أورثه إياه أبوه معاوية، إلا أن أرسل جيشاً يتألّف من ثلاثين ألف رجلاً فأحاط بمكة خوفاً من اندلاع ثورة الحسين ضد حكمه. فعزل والي مكة وعيّن مكانه رجلاً يكره

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

الهاشميين ويكنّ لهم العداء هو عمرو بن سعيد الأشدق.

وفوق هذا كله أرسل أيضاً ثلاثين جاسوساً اندسوا مع الحُجاج، وغايتهم قتل الحسين أينما وجدوه، فلو تأخّر الحسين في مكة مدّة قصيرة لتم اغتياله على يد أولئك الجواسيس المجرمين، ولذهب دمه هدراً، ولأنكر قتله نهائياً وعفي أثر الجريمة، ولذهبت ثورته أدراج الرياح قبل أن يقوم بتلك التضحيات التي هزّت العالم وزلزلت عرش حكم بني مروان.

عندها اضطر الإمام الحسين (ع) إلى الخروج من مكة بسرعة وذلك خوفاً من هتك حرمة الكعبة، حرمة البيت الحرام، وقبل الأوان من القتل الذي كان ينتظره في كل وقت، لأنه كان يعلم مصيره ويعرف نهايته، فخرج في اليوم الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، حيث لم يتمكّن من إتمام الحج، فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وأحلّ من إحرامه وجعلها عمرة مفردة.

روى الشاعر الفرزدق قال:

حججت بأمي سنة ستين للهجرة فبينا أنا في الطريق أسوق بعيرها وقد دخلت الحرم وإذا بقطار خارج من مكة، فقلت لمن هذا القطار؟

فقيل: للحسين بن علي بن أبي طالب (ع)

فدنوت منه وسلّمت عليه وقلت له: يا بن رسول الله، ما الذي أعجلك عن الحج؟!

فقال: يا عبد الله، لو لم أعجل لأُخذت.

لقد أصاب الحسين (ع) وهو الإمام المعصوم، وعمل بمقتضى الحكمة في خروجه من مكة بعد أن أحدق به خطر القتل، كما أصاب أيضاً في توجّهه إليها، فهو في دخوله إليها وإقامته فيها مدة أربعة أشهر مهّد لثورته المباركة تمهيداً إعلامياً واسع الانتشار، وبخروجه منها حفظ حياته ليقوم بمهام الثورة عندما يحين الوقت المناسب.

ولا غرابة في الأمر فحياة المصلحين الكبار والقادة الأحرار الذين ندبوا

أنفسهم للتضحية والفداء من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، حياة مطاردة وتشريد وهجرة واضطهاد.

لقد وقف الحسين (ع) وقفة شجاعة بطولية ضد الحكم الأموي المنحرف عن الخط الرسالي، وقاوم الظلم والظالمين، وعمل بكل ما لديه من طاقة من أجل رفع كلمة الله، وتثبيت شريعة الله، وإصلاح أمة جده رسول الله (ص).

وما أحوجنا اليوم للمواقف الرائعة والقيم الشاهدة والمثل العالية، نلتفت الى الحسين بن علي فنلقىٰ فيه المثل والعزاء، ونقفز إلى الأعلى لنمتطي مركبة الأمل في المناضلين المجاهدين الذين يموتون شهداء على درب الحسين، ذلك الدرب الذي لا يسلكه أبناء أمة من الأمم ثم تضعف أو تنهار مهما تألّبت عليها براكين الطغيان وصروف الزمان.

امتـداد:

لكل ثورة هدف ولكل قائد ثورة غاية منشودة يبغي تحقيقها، ولا يخفى أن للإمام الحسين متطلبات ثورية وهي الإمرة والحكم اعتمدها (ع) من وراء ثورته الخالدة من أجل الوصول بهما إلى غايته الكبرى وهدفه الأعلى وهو إصلاح المجتمع وإعادة النظام الإسلامي كما كان على عهد أبيه (ع) وجده (ص).

وطبيعي أن هذا الهدف لا يتم إلا عن طريق السلطة التي هي الوسيلة الفضلى للوصول إلى أداء الرسالة وتحقيقها كاملة.

وهنا يعترضنا سؤال هام وهو: لماذا أجاز لأتباعه وأصحابه الذين خرجوا معه أن يتفرّقوا عنه وهو في أمسّ الحاجة إلى الإستكثار من الأعوان ليقف في وجه الجيش الأموي الكثير العدد؟.

وفي الواقع لقد تفرّقوا عنه قبل لقاء العدو حتى لم يبق منهم معه الا القليل الذي لا يتجاوز النيف وسبعين رجلاً، بينما كانوا حوالي الستة آلاف رجل تقريباً.

فهل يا ترى هذا السلوك هو سلوك ثائر يريد الاستيلاء على الحكم؟.

أجل إن الحسين (ع) كان ثائراً من أجل إحقاق الحق ونشر العدل والخير والسلام والحق لا يتحقق من طريق الباطل، والعدل لا ينشر بواسطة الظلم، والخير لا يعطى على أيدي المبطلين، والسلام لا يعم عن طريق التواكل والتهاون.

ونختصر فنقول: العسل لا ينال من الحنظل، ولا يُجنىٰ برفق وسهولة.

يقول أبو الطيب المتنبي مخاطباً نفسه التوّاقة دائماً إلى العلا:

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشهد من أبر النحل

الإمام الحسين (ع) أراد السلطة لاستخدامها في مصلحة المجتمع ولخدمة الدين، ورفع كلمة الإسلام، وليس من عادته أن يطلبها بطريقة التغرير بالجماهير وإغفالهم عن حقيقة الأمور وواقع الحال.

فهو ابن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الذي رفض الخلافة يوم الشورى لما توقّف حصولها على كلمة واحدة، حيث قيل له نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وعلى سيرة الشيخين: أبي بكر وعمر.

فقال (ع): كلا على كتاب الله وسنّة رسوله فقط.

فكان بوسعه أن يقول: نعم، ويوافق وينال الخلافة ثم يسير بعد ذلك حسب كتاب الله وسنة رسوله لا غير، ولم يكن ملزما بالشرط الأخير شرعاً.

لأن سيرة الشيخين إن كانت موافقة لكتاب الله وسنّة رسوله فهي بطبيعة الحال داخلة في الشرط، وإن كانت مخالفة لهما فلا يجوز للمسلم أن يعمل بهما، ولكن الإمام علي مع ذلك كره أن يقول لشيً: نعم، وهو يعلم من نفسه أنه لا يستطيع الالتزام به، وبذلك فقد فوّت فرصة تسلّم الخلافة على نفسه مدة اثني عشر سنة تقريباً وهي مدّة خلافة عثمان بن عفان بموقفه الحق.

فسياسة الحسين هي بعينها سياسة أبيه عليهما السلام وسياسة جده (ص) وهي سياسة الإسلام التي تعتمد الصدق منهجاً لها، والصراحة طريقها،

والواقعية دأبها، وهي بلا ريب تأبى الانتهازية، واللف والدوران، والدعايات الخادعة التي لمسنا ألواناً منها عند الأمويين.

إن الجماعة الذين التفوا حول الحسين (ع) كان أكثرهم من الأعراب الطماعين، والمرتزقة المحترفين، الذين يتبعون القادة طمعاً في الغنائم والأرزاق فانضموا إلى الحسين والتحقوا به أثناء الطريق علماً منهم بأن الإمام قادم على بلد قد دانت له رقاب أهلها بالولاء والطاعة، وبايعوه بالإجماع، والنصر له ولهم محقق، والغنائم والأرباح سوف تكون كثيرة.

وكان الحسين (ع) يعلم كل ذلك في نفوسهم، ويعرف ما تكنّه صدورهم من الطمع المادي الزائل، ولما ظهر غدر أهل العراق، وتجلّت خيانتهم ولم يبق هناك من أمل في الإنتصار على الجيش الأموي، تغيرت طباعهم، ومالوا مع مصالحهم وأهوائهم، وأصبحوا هم من الأعداء والمحاربين للحسين (ع)، وقد ظهر مكرهم وغدرهم بقتلهم سفيره مسلم بن عقيل، وقتل رسوليه عبدالله بن يقطر وقيس بن مسهر الصيداوي رحمهما الله تعالى.

عند ذلك تغيّر مجرى الثورة السابق، وتحوّلت الحرب من هجومية متكافئة وجهاد منظّم حسب المقاييس الشرعية، إلى حرب فدائية استشهادية ليس فيها أمل في الانتصار العسكري، وإنما المقصود منها التضحية بالنفس والشهادة في سبيل الله.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لفت نظر الرأي العام إلى حقيقة الحكم الأموي المنحرف، والزمرة الحاكمة ليعرف المسلمين حقيقة المؤامرة العدوانية ضد الإسلام ومصلحة المسلمين.

لذلك فقد كره الحسين المعروف بعلو أخلاقه ونبله وشهامته أن يترك أتباعه غافلين عن هذا التحوّل المريب والتغيّر المصيري الهام خوف أن يباغتوا بالنتيجة المرتقبة، والمصير الذي لا يرغبون فيه فيهزمون من الميدان عند اللقاء ويتفرّقون عند بدء المعركة.

وإن تلك الإجازة لهم بالانصراف إذا شاؤوا كانت من الإمام الحسين (ع)

بالنسبة لهم محط اختبار وامتحان، حتى كانت الليلة العاشرة وحدثت الغربلة بين المقاتل الحقيقي والمقاتل المرائي، فبقي مع الحسين (ع) ما يقارب الثلاثمائة رجل كل منهم فدائي مخلص لعقيدته ودينه ورسالته، كلهم صاحوا بصوت واحد: نحن فداك يا إمامنا، نحن فداك يا حبيبنا، نحن فداك يا ابن بنت رسولنا.

بايعوه على الموت، واختاروا الشهادة على الحياة، والقتل على البقاء في هذه الدنيا الفانية، ولقد اختبرهم مراراً فما وجد فيهم إلا الأشوس البطل والشجاع الصنديد، استأنسوا بالمنيّة دونه استئناس الطفل بلبن أُمه.

قالوا له في بعض تلك الاختبارات: يا سيدنا ومولانا، لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها[1].

فقال لهم (ع): إعلموا أنكم كلّكم تقتلون ولا يفلت منكم أحد.

فقالوا: الحمد لله الذي منَّ علينا بشرف القتل معك ولا أرانا الله العيش بعدك أبداً.

وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي رحمه الله: أنحن نتخلّى عنك! وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك! أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك.

وقال له زهير بن القين البجلي رحمه الله: والله وددت إني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذلك ألف مرة وأن الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وهكذا تكلم الباقون من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً فجزاهم الحسين (ع) خيراً.

---

(١) هذا القول منسوب إلى «برير» من العلماء العظماء ومشايخ الكوفة المعروفين، وكان يلقّب بسيّد القراء، درس القرآن في مسجد الكوفة وروى عن الإمام أمير المؤمنين.

أجل، لقد ضربوا أروع المواقف في التضحية والكرامة والعمل الفدائي الشريف، فكانوا وما زالوا قدوة لكل عمل فدائي مخلص، وأي عمل فدائي لا يكون الحسين وأصحابه مثله الأعلى وقدوته المثلى لا يكون مثمراًوناجحاً!

كل همّهم أن تنجح القضية التي إليها يطمحون مستصغرين كل غالٍ ونفيس في سبيلها وتحقيق أهدافها المثلى.

أصحاب الحسين (ع) هم خير الأصحاب وأوفاهم:

أصحاب الحسين هم أنصار الحق ولا نظير لهم في تاريخ الصحبة، وقد ألّف بعض العلماء السابقين كتباً ذكروا فيها خصائصاً للحسين عليه السلام وأموراً عدّة، ومن جملة خصائصه اجتماع عدّة من أصحابه وأنصاره لم ولن يجتمع لغيره مثلهم من الأولين والآخرين لا لنبي ولا لوصي.

المشهور أن عدد هؤلاء الأصحاب الأوفياء الذين استشهدوا معه في كربلاء إثنان وسبعون شهيداً، كما استشهد قبل واقعة كربلاء التاريخية خمسة آخرون مثل مسلم بن عقيل، وبعد الفاجعة عبدالله بن عفيف.

أما أولئك الذين ذهبوا مع الحسين (ع) إلى كربلاء فهم خمسمائة وما فوق، إلا أنهم تفرّقوا عنه حين أخبرهم بنهايته المؤلمة.

ورد عن رسول الله (ص) وعن أمير المؤمنين (ع) وعن أهل البيت عليهم السلام عبارات تاريخية حول أنصار الحسين منها كلمة الحسين (ع) بحقّهم حيث قال:

«أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي».

وهذا يعني أنهم أفضل من شهداء بدر وأحد أصحاب الرسول (ص) فضلاً عن أصحاب الأنبياء السابقين.

وقال (ع): «ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً».

فأي أخ مثل العباس قمر بني هاشم، وأي ابن أخ مثل القاسم بن الحسن (ع)، وأي ابن مثل علي الأكبر، يفدونه بأنفسهم الأخ والعم والأب.

لقد دخلوا المعركة وهم يعلمون أن نهايتهم القتل.

أي نبي وأي إمام كان عدد أصحابه وأهل بيته واحداً في مقابل ألف من الأعداء؟ أصحاب الحسين كلهم كانوا اثنين وسبعين مقاتلاً مقابل ثلاثين ألفاً إلى مائة واثنين وعشرين ألفاً، ولمّا علموا يقيناً أن الحسين (ع) سوف يقتل استعدّوا للقتل قبله حتى يلحق بهم هو بعد دقائق.

فيا سبحان الله، كيف يمكن أن نفسّر هذه المحبّة العميقة والنبيلة والسامية! إنها تجاوزت الحدود الاعتيادية، لم يتركوا الحسين (ع) وحيداً ويضحّوا دونه مع علمهم بأن نصرتهم له لا تدفع عنه القتل.

خطبة الحسين (ع) بعد نزوله كربلاء:

حين وصل الحسين (ع) إلى كربلاء ووقف جيش الحرّ أمامه وأمام أصحابه، وعرف أن جيشاً من الكوفة هو في طريقه إلى كربلاء، أصبح الأمر واضحاً، والباب معلوماً أن الحسين وأصحابه نهايتهم الشهادة المحتمة، عند ذلك جمع الحسين (ع) أصحابه وخطب فيهم قائلاً:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت به معايشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون».

ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله وقال:

«أما بعد، فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل».

ثم قال (ع): «ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع

الظالمين إلا برما».

ولما سمعه زهير بن القين قال:

«يا ابن رسول الله، لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تقطع فيك أعضاؤنا، ثم يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة، وآسف أن ليس لي نفس ثانية فأقدمها بين يديك».

إنه موقف البطل الذي آمن بحكمة القيادة وهدفها الشريف، وقد سعى جهده من أجل أن تبقى وتستمر لأن في بقائها واستمرارها بقاء الثورة وانتصار الثوار.

إنه الشجاع البطل، والفارس المقدام، الذي لا يهاب الموت ولا يخاف القتل، والشهادة بانتظاره، وما هي الاّ لحظات من عمر الزمن حتى سقط البطل شهيد عقيدته دفاعاً عن شرف دينه، وفداء من آل الرسول (ص) الذين يمثّلون قناديل هداية تهدي الضآلين نحو الإيمان، ومعالم تأخذ بيد الناس إلى معارج الكمال والرقي.

سقط الشهيد زهير وهو يحمل أرفع وسام إسلامي ألا وهو وسام الشهادة مخضّباً بالدماء الحسينية الزكية الطاهرة.

وتنتهي صفحة بيضاء من صفحات رجل عرف الحق فاتبعه، وقدّم نفسه قرباناً في سبيله، وبذلك أعطى أروع درسٍ لكل المجاهدين الشرفاء في التضحية والفداء، فطوبى له وحسن مآب.

وهذا مجاهد حسيني كريم من أصحاب الحسين الأوفياء سعد برؤية النبي (ص)، وكان وفياً له بعد وفاته، إذ جاهد بين يدي أهل بيته في سبيل الله ألا وهو:

مسلم بن عوسجة:

كان شريفاً عابداً متنسكاً وفارساً شجاعاً، عاهد الله أن يكمل المسيرة على خطى الإسلام، ومحبّة أهل بيت رسول الله.

لمّا فشلت جهود مسلم بن عقيل في تبديد الخوف والهلع الذي أصاب أهل الكوفة ولم يستطع أن يجمع كلمتهم على محاربة عدوهم الذي استعمل كل أساليب الترهيب والترغيب قبض عليه في الكوفة، وحاول ابن مرجانة القبض على أبرز الشخصيات التي تعاونت معه، من هؤلاء كان مسلم بن عوسجة.

أدرك مسلم بن عوسجة منطق الشهداء تمام الإدراك فقال للحسين (ع) عندما أذن لهم بالانصراف: «أنحن نخلّي عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقك؟! أما والله لا أبرح حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك».

وكأن سلاح الرشق بالحجارة كان معروفاً منذ صدر الإسلام يستعمله المجاهدون الشرفاء ضد الطغاة الخبثاء، وما زال حتى اليوم يعمل بهذا السلاح، سلاح العقائديين المجاهدين في الأراضي المحتلة التي ستحرّر بإذن الله عمّا قريب.

نزل ابن عوسجة المجاهد البطل إلى ساحة الشهادة وقاتل قتالاً مشكوراً وقتل من جيش الأمويين ما ساعدته قدرته عليه، ولكن الذئاب المفترسة يعرفون قدره وبأسه، فتكاثروا عليه حتى أردوه قتيلاً مخضّباً بدمه.

عندها مشى إليه الحسين وحبيب بن مظاهر إلى مصرعه عسى يكون به رمق من الحياة، مشى إليه سيد الشهداء ليؤبّنه بكلمة خالدة ترددها الأفواه الحسينية المؤمنة بعقيدتها ورسالتها وقال له: رحمك الله يا مسلم، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

لقد كانت ضربة قاسية، حزن عليه الحسين حزناً عميقاً، وفرح لمصرعه الأعداء فرحاً كبيراً لأنهم كانوا يدركون جسامة الجريمة وأساها، ويتذكّرون مواقف هذا المجاهد العظيم وبطولاته وتضحياته.

وصيته الغالية: سقط مسلم ولم يبق في ذهنه وعلى لسانه إلا بضع

كلمات يريد أن يوصي بها.

ووصايا الشهداء من نمط مميّز، ونموذج خاص، إنها وصايا المجاهدين في سبيل الله، المدافعين عن الحق وعن كرامة الإنسان إنها مشتقة من تعاليم الأنبياء، وهي عظيمة بعظمتهم.

وجد إلى جانبه رفيق دربه المجاهد حبيب بن مظاهر الأسدي فأسرَّ إليه مسلم بصوت منخفض بضع كلمات، قال له حبيب: عزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم أبشر بالجنة.

فقال له مسلم: بشّرك الله بخير.

فقال حبيب: لولا إني أعلم أني في أثرك، لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمّك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين.

فأشار مسلم بيده إلى الحسين (ع) قائلاً: أوصيك بهذا رحمك الله أن تموت دونه.

قال حبيب: أفعل ورب الكعبة...

هذه هي وصية مسلم بن عوسجة، وهذه هي وصية الشهيد الذي يستشهد دون الخط الحسيني الإسلامي.

واليوم وفي كل يوم يوجد رفاق أبطال حسينيون يسيرون على الخط الحسيني الذي هو محور الجهاد والنضال، وينهجون النهج الجهادي الإسلامي يسجلون بدمائهم الزكية أروع درس من دروس الشهادة.

والآن نصل إلى كوكب مشرق بين كواكب الإسلام للحياة منه عبرة وللتأمل فيه فكرة، وللمواقف منه حضارة، إننا عند:

أبي الفضل العباس:

الذي ستزيد به عيناك دهشة، ويفيض قلبك نبضاً مدوّياً وموصولاً، لأنّك على شفة الموت وجفن الحياة، وهذه محطة كريمة عالية يولد منها عري

الذات، وتنطلق منها أنبل عزيمة للانهمار على بحر الله والخوض فيه دون شراع.

إنها الغمامة المحملة بإيحاءات العقيدة، والمضمّخة بعطر الرسالة فتحت فمها لتقول كلمة العودة إلى المنبع الأصيل، منبع الخير والحق والجمال، منبع الرسالة الحسينية العلوية المحمدية الإسلامية.

القضايا الكبرى لا يقوم بها إلا رجال كبار صاغتهم العناية الإلّهية متجسّدة في الأنبياء العظماء، ولعمري فإن كربلاء تحتل مكان الصدارة في قائمة القضايا الكبرى، بل هي أعظم القضايا التي هزت الضمير البشري والوجدان الإنساني، وما زالت شعلة حيّة لكل الأحرار والمجاهدين والشرفاء في العالم.

أبو الفضل العباس بن علي بن أبي طالب الملقّب بقمر العشيرة[1]، تربّى في مدرسة أبيه، وعاش تحت ظلّه أربعة عشر عاماً، تكامل خلالها من جميع جوانبه البطولية والثقافية والمعنوية، سقاه الإمام علي (ع) البطولة جرعة جرعة والإسلام حكماً حكماً، فجاء كما أحبّ وأراد مسلماً مؤمناً، نافذ البصيرة قوي الشكيمة صلب الإيمان.

ففي معركة الطف قال لإخوته من أمه وأبيه عبدالله وعثمان وجعفر وكانوا أصغر منه: «تقدّموا يا بني أمي حتى أراكم نصحتم لله ورسوله...».

إنه تعبير عظيم! يجهر بأن الحرب مع الحسين حرب رسول الله، والمقاتل في صف الحسين مقاتل مع رسول الله، ومدافع عن دين الله.

من الناس من يطيع رئيس عشيرته وينفّذ أوامره دون أن يقف على رأي

---

(١) أراد علي (ع) أن يختار امرأة من بيت كلّهم فرسان وشجعان وأبطال، من بيت عرفوا بالفروسية والبطولة كي يتزوّجها وتلد له ولداً فارساً لأنه كان يعيش واقعة كربلاء ويجسدها أمام ناظريه، ويعلم أن ولده الحسين بحاجة إلى نصير وظهر، فأشار إليه أخوه عقيل ليتزوج فاطمة بنت خالد الكلابية لأن آباءها سلسلة أبطال، فتزوجها وأنجبت البطل الهاشمي العباس الملقب بقمر بني هاشم.

الله وحكم الله، وكل همّه أن يمتثل بما يقوله رئيسه المطاع، وبذلك يصبح عبداً للعشيرة والعائلة وليس عبداً لله!.

ومن الناس من يدّعي الإيمان ويلبس ثوب الإسلام، فإذا ما تعارض حكم الله مع أحكام عشيرته تراه يتخلّى عن حكم الله، ويركض لاهثاً وراء أعراف عشيرته وتقاليدها ولو كانت مخالفة لعقيدته ورسالته.

أمّا في الإسلام الإيمان والإسلام الحسيني فإننا نرى نماذج غير هذه النماذج، نماذج الفداء ونماذج البطولة والشهادة، نماذج يقدّمها الإسلام لتكون حجّة بيّنة على كل المتخاذلين المخادعين، يقدّمها لتخوض معركة الحق ضد الباطل وتنتصر للعقيدة الإسلامية والرسالة الإسلامية.

وأبو الفضل العباس يمثل أصدق تمثيل تلك النماذج الرسالية المؤمنة المجاهدة، يمثل صفوة الشهداء في ساحة كربلاء، لم يجرِ وراء لحمة الحسب والنسب، ولم يجرِ وراء العاطفة والمصالح الشخصية التي تحرّكها الأطماع والمال.

وإنما كان منطقه منطق الإسلام، ورسالته دفاعاً عن الإسلام وعقيدته عقيدة الإسلام.

لقد وقف بعد أن قُطعت يمينه في ساحة الشرف والفداء فأخذ اللواء بشماله ووقف ليقول بهمّة عالية ونفس أبيّة للجموع الضالة المضللة:

والله إن قطعتـــم يمينـــي فإني أحامي أبداً عن ديني

فالعقيدة والمبدأ والرسالة والدين هي التي تحرّك الأبطال الميامين في مجتمعنا الإسلامي بعيداً عن الحسب والنسب، والعصبية القبلية، والحمية الجاهلية.

إن في موقف أبي الفضل العباس أروع الدروس وأشرفها في الثبات على العقيدة والإيمان والجهاد والشهادة.

وفيـه أيضـاً نبـذ العصبيـة التـي استحكمـت فـي المجتمعـات الجـاهليـة

وما زالت، ولم تكن تعصّباً للدين والعقيدة والدفاع عنهما كما نفّذ المجاهدون الحسينيون ومنهم الشهيد البطل أبي الفضل العباس قمر بني هاشم.

وأخيراً لا يخفى ما لقانون الوراثة من أثر هام في حياة البشر، فالأبطال والفرسان الشجعان هم أولاد وأخوال فرسان شجعان، والنذل الجبان هو ابن نذل جبان، وكما جاء في المثل: «الولد سرّ أبيه».

ولد العباس وتربّى في مدرسة والده علي أمير المؤمنين وسيد الأبطال الميامين، وشرب البطولة في مهده، وفهم الإسلام كما أراد الله وكما فهمه والده وجده، فكان معدّاً ليوم كربلاء، وها هي كربلاء قد وافته مع إكمال الرابعة والثلاثين من عمره.

هاجر مع أخيه وهو على علم بالثورة الحق التي يجسدها الحسين، والتي يدافع عنها هو وأهل بيته وأصحابه، لم تكن هجرته من أجل الحسين القريب وإنما كانت من أجل المبدأ والعقيدة والدين، من أجل الغايات النبيلة والأهداف الشريفة، وقد عبّر عن ذلك في أكثر من موقف.

الوثوق:

قد يتساءل البعض متعجبين: كيف وثق الإمام الحسين (ع) بأهل الكوفة واعتمد عليهم في ثورته التاريخية ولبّى طلبهم، وهو من أعلم الناس وأعرفهم بأهل الأمصار وغدر أهل الكوفة وتقلبّهم بصورة خاصة، أضف إلى جانب ذلك أنه قد اختبرهم بالنسبة لتجربة أبيه علي معهم وأخيه الحسن عليهما السلام؟! ثم أن جملة من أصحابه المخلصين وأقاربه قد نصحوه بعدم الركون إلى كتبهم ورسلهم لما اتصفوا به من صفات الغدر والخيانة!

الجواب الصريح لهؤلاء جميعاً: إن ما فعله الحسين عين الصواب، وهو الصحيح في عرف الشرع والسياسة معاً، أمّا أنّه لم ينجح في التغلّب على

الأمويين ولم يفز في عمله فذلك بحث آخر.

أما عن توجّه الحسين إلى العراق في تلك الظروف فقد كان مطابقاً للشرع أولاً وللعرف السياسي ثانياً.

فمن الناحية الشرعية نرى الشارع المسلم يركز أحكامه حسب ظواهر الناس التي هي الحجة ومناط الأحكام، أما البواطن والظنون والخفايا والأمور الغيبية فلا اعتبار لها في التشريع الإسلامي وغير الإسلامي، وإنما أمرها إلى الله وحده فهو عَلّام الغيوب وهو المحاسب عليها يوم الحساب.

يروى أن بعض المجاهدين المسلمين قد رفع السيف ليضرب مشركاً في بعض الغزوات ويقتله، فقال له المشرك عندما تأكد أن خطر الموت قد حاق به: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ولكن المسلم مع ذلك ضربه بالسيف وأجهز عليه، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فدعىٰ بالمسلم وقال له: لِمَ قتلته وقد سمعته يتلو الشهادة؟!

فأجاب المسلم: يا رسول الله، إنه قالها خوف السيف، وليس عن إيمان وعقيدة.

فقال الرسول: وما يدريك بذلك فهل فلقت قلبه وعرفت كذبه!

ثم أمر بقصاص الرجل، وتلا الآية التالية: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾**[1].

ع٩٨سلامي كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا...﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وقوله جلّ وعلا: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[1].

والأحاديث النبوية التي تجري في هذا المجرى كثيرة أذكر منها:

«من تشهّد بشهادتنا وصلى إلى قبلتنا. . . فله ما لنا وعليه ما علينا».

ومنها أيضاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها حقنوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم».

وأحاديث أخرى كثيرة تصب في هذا المعنى.

وأكثر أصول الفقه وقواعدها في التشريع الإسلامي مبنيّة كلّها على الظاهر القائم بالفعل مثل قاعدة: المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

أو: لا يجوز القصاص قبل الجناية.

وقاعدة الطهارة أيضاً: كل شيء لك طاهر حتى يتبيّن لك العكس، وغيرها.

والخلاصة: إن الإسلام دين يعامل الناس على الظاهر منهم لا على ما يمكن أن يكون أو سيبدو، فإذا تحقّق هذا يجري الشارع على ما ظهر له، وأهل الكوفة أظهروا الولاء للحسين (ع) وألحّوا عليه بجديّة، وكان إظهارهم لهذا الولاء منذ عصر معاوية وفي حياة الحسن (ع) وبعده، ثم تضاعف طلبهم له عند وفاة معاوية الطاغية وتسلّم يزيد وامتناع الحسين من البيعة له، عند ذلك وجّهوا رسلهم ورسائلهم ووفودهم إلى الحسين في المدينة.

ولما استقرّ في مكة انهالت عليه كتبهم وطلباتهم بكثرة زائدة حتى أنه تسلّم منهم في يوم واحد ستمائة كتاباً.

وقد بلغ مجموع ما تسلّمه (ع) خلال مدة إقامته في مكة اثني عشر ألف كتاب، وكل واحد منها موقّع من قبل رجلين وأكثر، وكل هذه الكتب تردد

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٣٦.

العبارة ذاتها: «أقدم يا ابن رسول الله ليس لنا إمام غيرك، فلقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، وإنما تقدم على جندٍ لك مجنّدة».

وكتب أخرى تصرّ وتقول: «إن لم تجب دعوتنا وتلبّي طلبنا وتتوجّه إلينا خاصمناك بين يدي الله يوم القيامة».

فأي حجّة ألزم وأعظم من ذلك؟ وأي عذر للإمام الحسين (ع) أمام الله وأمام التاريخ إذا لم يلبّ دعوتهم بعد ذلك كله؟! وهل يجوز له أن يقول: كنت أتوقّع منهم الخيانة أو الغدر، أو: كنت أظن أن كلامهم غير واقعهم.

وقبل الإمام الحسين جدّه رسول الله فكم كان يرتب آثار المسلمين وأحكامهم على المنافقين الذين يعلم علم اليقين أنهم كاذبون في كل ما يظهرون، ولكن الإسلام يعامل الناس على الظاهر حتى يتبيّن الخلاف.

وأمير المؤمنين والد الحسين يقول في وصيّته لمالك الأشتر واليه على مصر: «إن في الناس عيوباً الوالي أحقّ مَنْ سترها، فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك».

والحسين تعلّم من أبيه وجدّه، وسار حسب ما يقتضيه الشرع، فلبّى دعوة أهل الكوفة لمّا ألحّوا عليه بطلباتهم المتكررة ودعواتهم الحارة.

وفوق هذا كله هناك حجة أخرى ألا وهي رسائل سفيره ونائبه الخاص مسلم بن عقيل الذي بعثه إلى الكوفة ليستكشف حقيقة الأمر، ويتعرّف على واقع تلك الدعوات عن كثب، فكانت نتيجة اختباره خلال شهرين أن كتب للإمام الحسين (ع) مؤكّداً له استعداد أهل الكوفة للتضحية بين يدي ابن بنت رسول الله (ص) وفداءه بالنفس والنفيس، فاستحثّ الإمام على القدوم إلى الكوفة بالسرعة المطلوبة. وكان مما قاله في بعض كتبه إلى الإمام الحسين (ع): «أما بعد، فأقدم يا ابن رسول الله فإن الرائد لا يكذب أهله، إن الناس ينتظرونك، وإن الكوفة بأسرها معك...».

فهل نرى بعد ذلك أي عذر للحسين إذا تخلّف أو تأخّر عن إجابتهم والتوجه إليهم.

وقد صرح هو نفسه (ع) بالمسؤولية التي ألقيت على عاتقه اتجاه أهل الكوفة لابن عمه عبدالله بن عباس عندما ألحّ عليه بترك المسير إلى العراق فقال:

«يا بن عم، لقد كثرت عليَّ كتبهم، وتواترت عليّ رسلهم، ووجبت عليّ إجابتهم. . .».

هذا من الناحية الشرعية، أما من الوجهة السياسية الواقعية فإن الحسين (ع) ثائر في وجه دولة قوية وحكّام طغاة متعطشين لحبّ التملّك والسيطرة، فكان لا بدّ له والحالة هذه من قوة كبيرة يستند إليها للقيام بمثل هذه الثورة، والعراق يومئذٍ أكبر قوة وأنسب سند لمثل تلك الثورة، وذلك بالنسبة لموقعه الاستراتيجي ومناخه الاقتصادي.

ومن قبل فإن أمير المؤمنين الإمام علياً قد اختاره مركزاً لقيادته، وعاصمة لخلافته، ومنطلقاً لحركته الإصلاحية الواسعة بعد عهد عثمان الذي أغرق المجتمع الإسلامي بالانحرافات والموبقات والمفاسد، وقد خرج منها علي (ع) بمائة ألف مقاتل إلى حرب صفّين.

والخلاصة: إن الكوفة يومئذٍ أفضل وأنسب منطلق لكل حركة ثورية ما عدا عيب واحد قضى على جميع الصفات الثورية ألا وهي حالة التلوّن والتقلب التي اتصف بها أهل العراق عامة وأهل الكوفة خاصة[1].

فقد كانوا أبداً مصدر قلق وإزعاج لجميع الولاة والحكام، فلا يستقيمون إلا تحت وطأة العنف والإرهاب، فهم كما قيل عنهم (عبيد العصا) على المدى البعيد، وطلاب حق على المدى القريب، يقبلون سريعاً ويدبرون سريعاً، ويعزو بعض الخبراء هذه الحالة فيهم إلى إحساسهم المرهف، وذكائهم الفطري.

وبعد هذا نتساءل لو لم يتوجّه الحسين (ع) إلى العراق رغم دعوتهم

---

(١) راجع خطبة الحجاج بن يوسف في أهل العراق عندما كان والياً على الكوفة.

الملحّة له فإلى أين كان يقصد بعد أن صارت حياته مهددة بالخطر في مكة ولم يتلقّ أي دعوة من أي مكان آخر غير العراق؟ فهل كان يبقى في مكة حتى يُقبض عليه ويُسلّم أسيراً إلى يزيد، أو أنه يقتل غدراً ويذهب دمه هدراً. . .

وقد يسأل سائل آخر: لماذا لم يعدل عن الكوفة عندما ظهر له غدرهم به وتحوّلهم عنه؟.

لقد حاول العدول عنها فعلاً لمّا التقى بطلائع جيش العدو بقيادة الحر بن يزيد الرياحي، وأيقن بأنه ليس له في الكوفة مكان ولا أعوان، ولكن الحر منعه من ذلك وصمّم على أن يأخذه إلى عبيد الله بن زياد أسيراً.

وبعد محاولات عنيفة اتفق الحسين معهم على أن يسلك طريقاً لا يردّه إلى مكة والمدينة ولا يدخله إلى الكوفة ليسير على وجهه في أرض الله الواسعة حيث ينتهي به السير.

وهكذا كان، فقد أخذ الحسين طريقاً وسطاً وصار يتياسر عن الكوفة إلى الغرب متجهاً نحو المدائن بقصد أن يخرج من منطقة نفوذ ابن زياد الذي كان موصوفاً بالخبث والدهاء وأشد الناس بغضاً لآل النبي (ص).

فسار الحسين في الاتجاه الجديد والحر وأصحابه يسايرونه على البعد حتى وصل أرض كربلاء، وهي أرض على شاطىء الفرات كانت تسمّى «نينوى» و«وادي الطفوف».

فلمّا وصل ركب الحسين إليها وصل في الوقت نفسه رسول من ابن زياد بكتاب منه إلى الحر الرياحي يذكر فيه اطلاعه على ما حدث بينه وبين الحسين (ع)، ويأمره فيه أن يأتي إليه بالحسين سلماً مستسلماً وإلا فليحبسه عن الرجوع أو المسير، وليحجزه في المكان الذي يصل فيه الكتاب إليه، ويخبره بأن حامل الكتاب عين عليه.

فدنا الحر عند ذلك من الحسين (ع) وأطلعه على الكتاب وقال له: والآن لا يسعني بعد هذا أن أدعك مستمراً في سيرك فإما أن تنزل هنا أو نقاتلك.

فعرض عليه بعض أصحابه القتال مع القوم فقال (ع): إني أكره أن

أبدأهم بقتال. ثم نزل الحسين وأصحابه في جانب ونزل الحر في ألف فارس في جانب آخر من أرض كربلاء، وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر محرّم عام (٦١) للهجرة.

ثم كتب الحر إلى ابن زياد كتاباً يخبره فيه بنزول الحسين (ع) أرض كربلاء فكتب ابن زياد إلى الحسين كتاباً يقول فيه:

أما بعد يا حسين، فقد بلغني نزولك أرض كربلاء وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسّد الوثير، ولا أشبع من الخمير، حتى ألحقك باللطيف الخبير، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد...

فلمّا قرأ الكتاب الحسين (ع) رماه من يده وقال: لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

فقال له الرسول: الجواب يا أبا عبدالله

فقال عليه السلام: ليس له عندي جواب فقد حقّت عليه كلمةُ العذاب.

فعاد الرسول إلى ابن زياد وأخبره، فغضب هذا اللعين وجمع الناس في الجامع الأعظم وخطب فيهم وأعلن النفير العام، وقال: برئت الذمة ممّن وجدناه بعد ثلاثة أيام لم يخرج إلى حرب الحسين بن علي (ع).

وهكذا فقد ساق الناس إلى حرب ابن رسول الله على الصعب والذلول حتى اجتمع لحرب الحسين (ع) في كربلاء ثلاثون ألف مقاتل أو أكثر من أهل الكوفة ليس فيهم شامي ولا حجازي...

ولأن أهل العراق غير موثوق بهم، كما سبق وأشرنا، لذا أخذ يزيد الاحتياط لنفسه حذراً من انقلاب أهل الكوفة على ابن زياد فجهّز جيشاً من ستين ألفاً وأرسله إلى العراق ونزل بالقرب من كربلاء، فاتصل قائده بعمر بن سعد وعرض عليه استعداده للاشتراك معهم في حرب الحسين في الوقت الذي يريد.

قال المؤرخون أن ذلك الجيش كان خليطاً من الخوارج، ومن الحزب الأموي، ومن المنافقين المرتزقة الذين عانى منهم الإمام علي (ع) والإمام الحسن الكثير من الأذى والمحن.

الكلمة ترجمان قائلها

خير ما نبدأ به الكلام عن سيد الكلام أمير المؤمنين (ع) قال:

«العمل شعار المؤمن»

وهو يريد أن الكلمة مترجمة إلى أفعال، يضع المهندس المعماري تصميماً لبيت أو قصر أو مسجد... فيأتي البنّاء لينفّذ هذا التصميم الأخرس، هذا الحبر على الورق، فيحضِّر معاني الكلمات التي تأخذ شكل آلات وأدوات ومواد بناء، ولا يكفي أن يلفظ أدوات البناء بل عليه أن يبدأ بوضع الحجارة حجراً بعد حجر، يركّزها جيداً ويمتنها مع بعضها لتظهر في كيان مادي جميل روحه التصميم بما فيه وجسمه المنزل أو القصر أو المسجد بما يحويه.

ولا ريب أن ترجمان الكلمة يلزمها الكثير من إعمال النظر وحسن التفكير ليكون أكثر تماماً وأتقن كمالاً، ولكن علينا أن نعرف أن النظر في حلّ رموز الكلمة والتفكير في معناها يجب أن يكون مقدمة عملية، وأساساً ضرورياً لبناءٍ شامخٍ حصين، لا تؤثّر فيه زعزعات الرياح العاصفة، ولا مؤامرات الأعداء الصاخبة.

وبذلك يصبح الكلام مفيداً نستطعم به ونلتذ طعم الفاكهة التي زرعنا وطعم الأدب الذي نكتب، وطعم الحياة التي نعيش، وطعم العقيدة التي نؤمن.

والعمل له أن يكون مادة حتى ولو كان طعاماً أو شراباً أو لباساً، إذ لا بدّ لمن يأكل أو يشرب أو يلبس أن يحس بالجوع فيفكر بتناول الطعام، أو العطش فيفكر بتناول الشراب، أو العري فيعمد سريعاً إلى اللباس، وما أن

يأكل أو يشرب أو يلبس حتى نقول بأنه ترجم تفكيره إلى عمل مادي، وكل إنسان ـ ولا ريب ـ يسير حسب مفهومه، وهذا يعني أن المفهوم لا بدّ وأن يترجم إلى سلوك عملي حتى يُعرف الطريق الصحيح، ويتّضح السير السليم.

من هنا يصبح تفسير الأمور وفهمها يسيراً علينا بعد ظهورها بالكيان والفعل، ذلك أن الكلمة لم تكن لتعرف لولا أن تنعكس في صورة الإنسان، وما الإنسان إلاّ شعاراً عملياً ما كان ليعرف لولا إنبعاث النور، وهذا الإنبعاث ما هو إلاّ عملاً فعلياً أو ترجماناً فصيحاً لبس أفضل حلل الوضوح والبيان. وهل لنا أن نبصر أو نسمع أو نتذوق... لولا ظهورنا في عالم الفعل، وهل لنا أن نسير أو نبني أو نحب أو نشعر بطعم الحياة أيضاً؟.

إن السمع والبصر والشعور والفؤاد وكل الموجودات أعمال حاضرة لكلمات ظهرت إلى حيّز الوجود بفضل الخلاّق العظيم، رب العالمين، المالك المدبّر الحكيم، الذي قال سبحانه وتعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾(١)

وقد طلب إلينا عزّ وجلّ أن نقول ونعمل، أن نترجم أقوالنا أعمالاً، ثم علينا أن نتقن ما نعمل والله رقيبنا ورسوله والمؤمنون.

قال تعالى: **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم وروسوله والمؤمنون﴾**(٢)

إنه جميل جداً أن نتأمل جيداً ما يحيط بنا من مخلوقات من جبال وأنهار وأرض وأشجار وحيوان ونبات وسهول... ولكن الأجمل والأكمل أن يكون التأمل شعاراً، وأن يكون الشعار عملاً، وأن يكون العمل صالحاً ومفيداً، ولا نرضى أن يكون اللسان هو الكلمة الأخيرة، لأن الكلمة هي النور المنعكس في الأشياء المرئية، وأشياؤنا هي تلك المرائي التي تظهر هذا النور حسب ما اشتملت عليه من كدرة أو صفاء.

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

يكفيك أيها الإنسان العاقل أن تعمّر الأرض، وبقدميك تعبرها، وبعزيمتك يولد الفعل، وبالعمل المتقن ينمو التحدّي، ومن التحدّي يكون التنافس الخيِّر البنَّاء والصراع الإيجابي الخلّاق.

فالعين البصيرة وعاء لكل المرئيات، والأذن المدرّبة وعاء لكل الأصوات المفيدة، والقلب وعاء الوجود، عليه تعلّق كل الآثار، والعقل وعاء لكل الكلام، الكلام الرصين الموزون، البنّاء، الفاعل.

وهل يحصل كل هذا إذا بقي وصفاً عالقاً على اللسان؟ أبداً لا تكون القيم قيماً إلاّ أن تترجم أعمالاً خالصة، فالفضائل تبقى كلاماً إذا لم تظهر إلى الوجود أعمالاً بارّة، والكرم يبقى كلاماً إذا لم يظهر عطاءً في الكف وجوداً مع الأيدي، وهنا يحضرني قول أبي الطيب المتنبي في وصفه كافور الأخشيدي:

جود الرجال من الأيدي وجودهم   من اللسان فلا كانوا ولا الجود!

واقتران الأقوال الطيّبة بالأفعال الطيّبة يُولد منه الفائدة المرجوّة والخير الصميم. ذلك أنه عندما يقترن القول بالعمل ينجبان صبياً يسمّيانه الصدق. وعندما يقترن القول بالعمل يرزقان بنتاً يسميانها الوفاء، ويلعب الجميع لعبة أظنّها الحرية!

إذن الكلمة الطيبة هي عمل طيب، والكلمة الخبيثة هي عمل خبيث، قال سبحانه وتعالى:

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تُؤتي أُكُلَها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكّرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾[1].

فعلينا أن نعرف أننا نحن الكون الذي يحمل كلمات الوجود كلها، نحن الكلمات المنفعلة الفاعلة، الحية الحيوية، البهجة البهيجة، وإذا لم نتفهّم

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦.

كلماتنا ونحترمها ونقرأها ونحفظها لنضعها في موضع العزة والكرامة نكون في عالم الأحياء الأموات، ولا نعبّر عن أنفسنا بالجسد والروح، نكون صورة ضعيفة هشّة تضيق حتى بكيانها الذي فرض أن يكون هدياً ونوراً ومناراً.

قالوا: الكلمات ألفاظها أجساد ومعانيها أرواح، وعلى الأجساد أن تتفاعل مع الأرواح على أكمل وجه.

وقالوا: الكلمات ألفاظها أثواب ومعانيها أجساد، والثوب يزيّن الجسد ويكمّله ويستره ويجمّله، ولا بد للثوب من غسله وتنظيفه، والاعتناء به، ليبقى طيباً زكي الرائحة، يليق بالجسد الذي يمثل وعاء الروح.

وسيماء الحياة المشرقة الحية في الأرواح الصادقة المؤمنة، فالمؤمن الصادق هو السيف والحركة، وهو الحصان والعربة، وهو الوجود المليء بكل أسمائه الواضحة والمستترة، فهو قائم حاكم مستخلف على الأرض مسؤول عن عمارتها وإصلاحها وتطويرها.

والمؤمن بوجوده أقل ما يطلب منه أن يترجّم إيمانه إلى عمل صالح يطيب له ويطيب فيه، ومن أجل أن يبقى بناؤه حصناً محصّناً عليه أن يقدم لجسده الطعام غذاءً، ولقلبه الأخلاق دواءً، ولروحه الفضيلة رداءً.

وكما أن الأوساخ المادية تضرّ بالجسد وتنفّر الناس من حوله، كذلك الأوساخ المعنوية كالبغض والحقد والنميمة وأفعال السوء تلوّث الروح وتسقطها من عليائها حيث يجب أن تكون، فهل يعدّ صادقاً من لم يلتزم مع قلبه ولا يحس بالأمانة الملقاة على عاتقه؟

وهل يعدّ محترماً من لا يهبّ في كل آنٍ مدافعاً عن عقيدته وكرامته ووجوده؟

عليه أن يسقط حجب الإهمال التي تُبعده عن الحقيقة الواضحة، وعليه أن لا يجعل بين قوله وعمله برزخاً من الجمود والموت، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1] صدق الله العظيم.

والكلمة الحسينية قول طيب وعمل طيب، والحسين بن علي عليهما السلام هو ابن أمير المؤمنين وأمير المتكلمين وإمام المتقين، وهو الكاتب والخطيب المبدع يمثّل روح الأمة، إذا ما اشتدّ اشتدّت معه، وإذا ما ضعف ضعفت معه، وهو أشبهُ ما يكون بالبئر إذ استخدم ماؤها تعطرّت بالهواء وصار لديها عزم جديد، وإذا ما أهملت وتركت بقي ماؤها فيها وفسد، لأن الماء كالكلام يصبح نتناً إذا لم يتجدّد، ولن يتجدد إلاّ إذا وجد له طريقاً ينفذ منه ليصيب هدفه، فقد يتجدد في كبد زهرة وعلى خد وردة، وقد يطفىء الحر في ظمأ إنسان يسعى إلى الماء بكل جوارحه.

فكيف بالكلمة الحسينية وقد كانت جسر العبور إلى المعرفة الحقّة، والمعرفة أرفع قدراً وأعلى منزلة، فقد كانت السائق النزيه إلى حيث شاء قائلها تجول معه في كل مكان، وتعبّر عن رأيه في كل آن، وترسم وجهه في نبضات الزمان، فكيف بها وهي كلمة إمام الأمة وكلام الإمام إمام الكلام!.

فكيف بها وقد سلكت في طريقها مسلكاً حسناً إلى قلوب المؤمنين، وعصرت من كثيف نحرها دم المجاهدين، وعمّرت من محيط حروفها مسجد المصلّين، وغرست من بذور معانيها غابة الإسلام، غابة السلم والسلام.

نعم، هي كلمة طيبة، كلمة الإمام والأمة، ألم يخلق الله سبحانه وتعالى محمداً (ص) نوراً من أنواره، واسماً من أسمائه، وإماماً لأمته.

حبيب الله ومبلّغ رسالته، هو الإمام الذي هدى الناس إلى الله، والمعلّم الذي دلَّ الخلق إليه، هو كلمة الله سبحانه وتعالى.

والإمام الحسين (ع) هو ابن وصيّه، ومطبّق رسالته، وهادي المنحرفين إلى طريقه، طريق الحق والصواب، الصراط المستقيم، ورافع كلمة الأمة

---

(١) سورة الصف، الآية: ٢ و ٣.

الإسلامية المنتصرة بكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

بهذه الكلمة الطيبة بنت دولة الإسلام عزّتها، وبهذه الكلمة أنارت للعالم سبل هدايتها، وبهذه الكلمة اعتقت المستضعفين من أسر العبودية فعرّفت الإنسان على ذاته، وأعطته قيمته، وخلّصته من ظلامة السجن وظلم المستبدين فوضعت يده على عنق وجوده الأسير حتى هب بطلاً صنديداً قوياً إلى ساحة الشهادة، ساحة الشرف والفداء.

في رحاب الكلمة الحسينية المحقّة وجد نفسه البعيدة عن حقها والمستضعفة في مجتمعها، وجد نفسه التي بدأت تشع بأنوارها الخالدة حتى عرف طريق الحق، طريق الشهادة، وهي أبقى وأنقى وأرقى طريق عرفه الإنسان الحر الكريم.

في رحاب الكلمة الحسينية تعلّم المؤمن المعرفة الحقّة، ووعاها بقلبه ولسانه، عرف الله سبحانه وتعالى، وعرف السلوك إلى سعادة داره، والدار الآخرة خير وأبقى.

في رحاب الكلمة الحسينية عرف المسلمون المؤمنون كيف يتم اتحادهم وكيف يصنعون نصرهم، وما هو شعارهم، كما عرفوا أنّ الاتحاد عن طريق الجغرافيا والأفراد والأعداد هو اتحاد فاشل لا محالة. فالمشكلة ليست في العدد، ولافي الكثرة، وقد جرّبت دول كثيرة في حروبها شراء المرتزقة، فما كان لها أن تربح الحرب ولا أن تذوق حلاوة النصر.

يكمن سر النصر الحسيني في رسوخ العقيدة الإسلامية، وفي التمسّك بمبادىء الإسلام المحقّة، وفي البذل الصادق من قلبٍ يطفح بالإيمان، وروح عشقت رسالة الرحمٰن.

والمشكلة في توحيد العرب المسلمين لا تختفي وراء العشيرة والقومية والتقدمية، ولا تختبىء في الحدود الجغرافية وعدد السكان والمعدات العسكرية، هذه كلها من عناوين الضعف والفشل، وإذا كانت حرب العشائر والخلافات في مفهوم القومية مظهراً من مظاهر البطش والجاهلية، تصبح ولا

شك حربنا مع إسرائيل تحت عنوان العشيرة والقومية والتقدمية ضرباً من ضروب الجاهلية البغيضة.

ومنذ زمن ليس بالبعيد حاولت الدول الاستعمارية المستكبرة ـ ومنها بريطانيا ـ في زمن الأمبراطورية العثمانية أن تدخل إلى بلادنا، وما كان لها ذلك إلا بعد أن غذّت بنفسها الروح القومية والإقليمية والطائفية، وحرّضت العرب تحت شعار الأعراب والعروبة لينسلخوا عن الدولة العثمانية التي شبّهوها بالرجل المريض، وذلك ليسهل عليها تمزيق دولة كبرى حكمت باسم الإسلام مساحة كبيرة من العالم.

وصارت القوميّة هذه جسراً من جسور الاستعمار، ومعبراً صالحاً إلى بلادنا، وبسلاح العروبة نفسها طعنت الأمة العربية المسلمة بخنجر مسموم واغتصبت فلسطين السليبة.

وعن طريق الجغرافيا نفسها تمزّقت خريطة العالم الإسلامي، وبزيت القومية نفسها احترقت الأمة العربية.

وبعد هذا وجب علينا نحن المسلمين أن لا نقاتل من موقع وطني ولا نحارب من موقع حربي أو عشائري، ولا من أي موقع قومي أو جغرافي أو تقدّمي، وإنما نقاتل من موقع الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

نقاتل من أجل إعلاء كلمة الله، نقاتل أعداء الله من أي لون أو جنس كانوا.

نقاتل من أجل عقيدتنا والحفاظ على مقدساتنا.

والبارحة في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك كان يوم القدس الذي دعىٰ إلى إحيائه إمام الأمة ونائب الإمام الحجة عجل الله فرجه «الإمام الخميني» ـ العظيم ـ قدّس سرّه ـ فكانت المسيرات المؤمنة الصاخبة التي عبّرت عن رأيها.

القدس العزيزة التي قال عنها الإمام المغيّب السيد موسى الصدر حفظه الله: أمانة في أعناق المسلمين ولن تعود إلا على أيدي المجاهدين المسلمين.

فهل حفظ العرب الأمانة؟ وهل يحافظون عليها ويعملون على استردادها؟!.

القدس اليوم تستصرخ ضمائر المسلمين في كل أنحاء الدنيا وتقول أنا لكم وأنتم لي، يا أبنائي فانقذوني من أيدي الطغاة المجرمين، جراحي أثقلتني وقلبي أصبح عبئاً على صدري، وما عدت أتحمّل بُعدكم عنّي ورؤية الكفّار يدنّسون أعتابي.

إخوة الإيمان، المشكلة هي مشكلة الإيمان، مشكلة التمسك بحقّنا وعقيدتنا ورسالتنا، المشكلة هي حرب ضد الإيمان، حرب أميركا وأعوانها ضد المسلمين المؤمنين، حرب الكفر ضد الإيمان الذي نتعلّمه من الله على لسان نبي الهدى والرحمة محمد بن عبدالله (ص) **﴿أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**[1] .

والدين عند الله الإسلام، ومن الإسلام نأخذ كل شعاراتنا، ومن الإسلام نستمدّ كل قوّتنا، ومن الإسلام نبني دولة عزيزة كريمة مهابة، ومن الإسلام نتعلم السلوك المستقيم ونسلك الدرب الذي يقودنا إلى النصر.

وفي الإسلام يكمن الاكتفاء لقيادتنا وجيشنا ودولتنا وأمتنا، هو حبل الله المتين الذي يشد أزرنا، ويجمع شتاتنا، ويوحّد صفوفنا.

من الإسلام نأخذ شعاراتنا، ولسنا بحاجة لأن نستعير شعارات من الغير،

فهل لنا أن ننتصر على عدونا بغير الاعتماد على أنفسنا؟

وهل يمكن أن ننهج نهجاً صحيحاً بغير فكرنا؟

وهل يمكن التغلب على مصاعبنا بإرادة غيرنا؟

فإذا كان لا يمكن أن نولد بجلد غيرنا فكيف يليق بنا أن ننزع ثوب إسلامنا لنلبس أثواباً جاهزة من أميركا وفرنسا وبريطانيا وروسيا؟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

نقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقائدنا غير محمد (ص)

نستعطي القوة من الشيطان، ونلبس ثوب الذل والهوان ونحن خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر!.

نقول: الدين لله والوطن للجميع وكأن الله لم يخلق الوطن!

ونردّد شعارات الحرية والأخوة والعدالة على أعتاب سالبيها وننسى قرآننا أو نتناسى أن هذه الأصول والمبادىء هي من مبادىء إسلامنا!

نقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بأفواهنا ولا نعمل بها وندّعي أننا حسينيون!

هيا لنقولها من أعماق قلوبنا، ولنطرد الشيطان الذي يوسوس في صدورنا، نعمل بشعاراتنا الإسلامية لتذوب في هذه الكلمة كل خلافاتنا وتصهر كل دماء الأمة، وتنطلق هادرة كالسيل العرم لا يقف في وجهها تيار المستكبرين، فتزول الحدود، وتزول السدود، وتتوحّد القلوب المؤمنة لتحقّق النصر، نصر المؤمنين على أعدائهم في استرجاع فلسطين السليبة والقدس الحبيبة.

نقول شعارنا الإسلامي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من قلوبنا وليس من حناجرنا، قولاً صحيحاً في إيماننا وأعمالنا، لأنه ليس من شيء اسمه الإيمان إلا إذا كان عملاً متقناً وأفعالاً.

يقول الإمام الكاظم عليه السلام: «الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل».

وهكذا كان شعار سيد الشهداء في مدرسته الحسينية التي تخرّجت منها قوافل الشهداء، قالوا وصدقوا في قولهم، آمنوا وعملوا قدر طاقاتهم خير بذل وأكرم عطاء.

تحيّتي لكم ولكل المؤمنين العابدين المجاهدين في سماء إيمانهم العاطر، تحيّتي لكم ولكل العاشقين الذين إذا ما جنّهم الليل نفضوا عنهم

سبات الكرى، وسبّحوا في شتاء الذكر، واغتسلوا بماء الفطرة.

هنيئاً لكم أيها الخارجون من أجسادكم لتقرعوا بوّابة الرحمٰن بأكفّ الدعاء، وتركبوا على مطية التسبيح لتصلوا مع الفجر البهي على نداء المؤذن المثقل بالجمال والمضمّخ بالعطر الخاشع الحنون.

بأي لجام عقلتم الكلام حتى صار بين أيديكم ورداً وياسمين وشقائق نعمان! وبأي مديةٍ جرحتم أكباد الحروف حتى صارت وكأنها تبراً خالصاً وعطراً طيباً!

يقول ظاهرها الذي يسم وجهها أنه سيرة الروح الخالدة التي قال فيها الرحمٰن:

﴿سيماهم في وجوهم من أثر السجود﴾[1]

ويقول باطنها: تعال معي إلى مأدبة الله التي دعانا إليها رسوله الكريم[2] .

أيها الحسينيون الصادقون دلّوني ماذا فعلتم عساي أرحل إليكم مع الصباح فتحملوني معكم في سفركم البعيد العجيب لاحتل صدر قوافي ندائكم، وأصعد في سلّم التراتيل التي في صلاتكم إلى قمّة تعلو إلى أنبل غاية وتشهد الحق .

دعوني أجوب معكم لاتعلّم معنى ابتهالاتكم، وأبصر لون سفراتكم التي تصطفيها الحروف وتحبّها المعاني.

دعوني أبذر نفسي بغابة العشق الإلٓهي تحت كروم الرجاء، أقطر ذاتي شراباً طيباً مع الحب قطرة قطرة في عناقيد الأناشيد الحسينية، والتراتيل النبوية ارتاح هناك لأرى الجنة الخالدة، أرى جميع الأخوة الشهداء، وأرى كل

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٤٨.

(٢) يقول الحديث الشريف: القرآن مأدبة الله والداعي إليها محمد رسول الله. المجازات النبوية للشريف الرضي.

المجاهدين المؤمنين يردّدون هذه المقولة:

هذه الدنيا جسور ومعابر ننتقل منها إلى عالم أرحبِ وأبقى وأنقى، فمن عمل صالحاً كانت قدماه قويّتين، وعزيمته عالية، يقطع مُسافة أطول، ويغوص أكثر في أعماق محيطها، وينال درجة أرقى في سلّمها، ويحصّل وساماً رفيعاً في مراتبها.

والسالك الأخف حملاً هو أدنى وصولاً وأقرب منزلاً، والدنيا مليئة بالسفن وعليكم أن تختاروا السفينة الأقوى والأنظف لتحملكم مع كل ما لديكم من متاع.

فأول هذه السفن هي نفسك التي تدرّبها وتعوّدها على ممارسة الفضائل والمجذاف الذي يحرّكها هو جسدك، وعاء النفس وحافظها.

وأمتعتك هي تلك التي اشتريتها بنقود الثروة الكبرى التي وهبك الله إياها من بصر وسمع وذوق ولمس وشم، وعقلٌ وحب وقلب، وأنت في هذه الدنيا الفانية لست سوى سائح متجوّل في عالم ستهجره عن قريب أو بعيد، عائداً إلى الله تعالى، الوهاب العزيز الحكيم، وسوف تُسأل وتحاسب كيف صرفت وقتك؟ وماذا اشتريت بنعم ربكِ؟ وكيف نقلت قدميك ويديك؟ فهل اشتريت بسمعك كلمة سوء؟ أو كلمة طيبة؟ وماذا حملت معك في سفينتك من بضاعة رديئة أو حسنة؟ وهل ابتعت بأنفك رائحة الحرام؟ وهل اشتريت بلسانك قبيح القول أم جيده؟ وهل وضعت في خزانة قلبك غير الله؟.

والآن وفي كل آن، كلنا يسأل كيف يكون الرحيل الجميل؟ وكيف يتم انتقاء البضائع؟ وكيف يكون اجتياز السبيل؟.

الحقيقة إننا في معركة مع الحياة، وعلينا أن نجمل اختيار سلاحنا ونحسن اختيار بضاعتنا، ونتزوّد خير الزاد، والمريض لا تشفيه الأماني، والقول يبقى كلاماً إذا لم تنفذ الأماني، وخير الناس من انتفع به الناس، أي من كان كلامه قرين أعماله، وكانت يداه حليفة لسانه.

التصميم:

في الطريق إلى الكوفة وصلت أنباء إلى الحسين تفيده عن تخاذل أهل الكوفة وردّتها، ورغم ذلك تابع مسيرته التاريخية المظفّرة، فقد لقيه الفرزدق في منطقة يقال لها الصفاح، استنبأه الحسين أخبار أهل الكوفة فأجابه بقوله: قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية.

فقال الحسين: صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكل يوم ربّنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيّته، والتقوى سريرته.

فلماذا هذا الإصرار؟ وما هي الدوافع البعيدة أو غير المرئية التي دفعت بالحسين إلى أن يتخذ هذا الموقف الحازم والتصميم على خوض المعركة رغم تخاذل الأنصار وقلّة الرجال؟!.

يريد الإمام العظيم أن يعلّمنا بإقدامه المبارك وتصميمه المدروس معنى الشهادة في سبيل الحق، وكيف يكتسب الإنسان اسم الشهيد.

الشهيد الذي يسعى نحو الموت يطلبه بكل عزم وقوة، وهو غير الذي ينتظر الموت حتى يأتيه.

الشهيد الذي يفتح صدره للجهاد فيقتل في قلب المعركة التي يخوضها ضد أعداء الله.

آمن الحسين بسلوك القتال الثوري كحل لجميع المشاكل في أمة جده التي يبغي إصلاحها، ولم يبق أمامه أي احتمال للتراجع بعد أن رأى وجوب النهوض بالثورة، ولقد بدأ منذ خطواته الأولى بتحدّي السلطة المنحرفة ولم يتراجع عنها في أي لحظة، بل مضى بإصرار مصعّداً المسيرة، فإما النصر على أعداء الله وإما الشهادة في سبيل الله.

إن شموخ الإيمان ورسوخه، وعمق العقيدة وإدراك أبعادها لا يستبين إلا

في تلك المواقف الصعبة والمآزق الحرجة، وعندما يتعرّض الإيمان للاختبار عندها فقط يعرف مقدار التديّن ومستوى العقيدة، ذلك أن الأيام الهادئة المطمئنة لا تحمل في طياتها المحكّ الذي يميّز المؤمن الصادق عن غيره من المقاتلين العاديين الذين وصفهم الشاعر:

صلى وصام لأمرٍ كان يطلبه حتى قضاه فلا صلّى ولا صاما

وهذه الفئة وصفها الله في كتابه العزيز بالآية الكريمة:

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[1].

وقال تعالى في وصف هذه الفئة من الناس الذين يجهرون بإخلاص النية وهم في حقيقة أمرهم أبعد الناس وأشدهم خطراً على الإسلام:

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[2].

هذا النموذج، ذو الوجهين، كان في الماضي، ونراه اليوم في واقعنا المعاش يعبّر أصدق تعبير ويوحي إلينا بدروس وعبر لا يمكن الاستغناء عنها لنكون في حيطة وحذر من العدو الداخلي قبل العدو الخارجي.

وفي أيام الشدّة عندما تقع أماكننا المقدسة بين أيدي أعداء ديننا وعقيدتنا وتتعرض حياتنا للخطر ورسالتنا إلى الانحراف يعرف عندها مقدار الإيمان المستعار المزيف من الإيمان الصحيح السليم، الإيمان العميق المترسّخ في قاع الضمير والقلب والروح.

والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا الإسلامي المجيد، نتذكر بكل فخر

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) سورة الحج، آية: ١١، ويعبدون الله على حرف: هم في شك وقلق وتزلزل في الدين.

واعتزاز في هذا اليوم يوم استشهاد الإمام علي بن أبي طالب (ع) عندما نام على فراش النبي وهو مهدّد بالموت، ليفديه بروحه من أجل إكمال المسيرة الإلٓهية.

وقصة رسول الإمام الحسين (ع) إلى أهل الكوفة قيس بن مسهر الصيداوي عندما ألقى عليه القبض الطاغية ابن زياد وطلب منه أن يصعد المنبر ويسبّ الحسين وأباه وأخاه وإلا قطّعه إرباً إرباً، فما كان من قيس المسلم المؤمن الشجاع إلا أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس إن الحسين بن علي من خير خلق الله، وابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد خلّفته بالحاجر فأجيبوه وانصروه، وإن الكذّاب ابن الكذاب هو عبيد الله بن زياد فالعنوه والعنوا أباه...»

والنتيجة التي حصلت له، وهو يعلمها جيداً، كانت الإعدام فوراً.

واليوم نرى أصحاب الحسين وأنصار الرسالة الإسلامية يضحون بأنفسهم من أجل الدفاع عن الدين، والذود عن الحق الذي أوصانا به الرسول الأعظم، هؤلاء القوافل من الشهداء الأبطال تحدّوا الطغاة المستكبرين، ووقفوا وقفة حسينية علوية فيها الجرأة والعزّة والكرامة، نعم إنهم رجال العقيدة الصادقة، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفوا بوعدهم، فآمنوا بالإسلام عقيدة ونظاماً فودّعوا الحياة بنفوس أبيّة، ورؤوس شامخة، وقلوب مؤمنة، وسمعة عالية نبيلة، ورتبة سامية، رتبة الشهادة التي لا تعلوها أي رتبة أخرى.

هؤلاء المؤمنون الصادقون تمثّلوا بقائد الثورة الحسينية الإمام الحسين بن علي (ع)، الذي صمّم على خوض المعركة مع المشركين الظالمين وهو يعلم مصيره ويدرك نهايته.

من مغالطات المؤرّخين المرتزقين، الذين يرغبون في طمس الحقائق بما يخترعون من غيوم سوداء وألاعيب سرعان ما تتكشّف للعلماء العاقلين المنصفين،من هذه المغالطات قولهم: إن الحسين قد تردّد في سيره إلى الكوفة ساعة رأى الخطر محدقاً به، فتارة كان يدفع مصمّماً لا يلقي بالاً لنصيحة، ولا

يلين لإشفاق، كمن تتعثّر قدماه في الطرقات التي يسلكها!

وقالوا أيضاً: كيف وثق الحسين بأهل الكوفة ولماذا خرج إليهم؟.

قبل الجواب على التساؤل الأول المعروف بالعقل سلفاً نتحدّث عن مصرع مسلم بن عقيل الذي هزّ بمصرعه كيان الإمام الحسين (ع) هزّاً فأشفق على من بقي من إخوته، إشفاقه على هذه الفئة القليلة من أبنائه وأسرته ورفاقه وأصحابه، فاعتراه ما يعتري أي قلبٍ كبير من الحنان والرحمة، وأطل بذلك الأب والأخ والصديق من كوى روحه، ولكنّها غيمة عرضت وبقي التصميم الأكيد الذي لابدّ منه، وبقي ما يجب أن يبقى في ذاكرة الحسين الإمام المعصوم، أو ما قدر أن يكون.

إخوة مسلم وأهله وأصحابه قطرت قلوبهم حزناً على مسلم الشهيد وصمموا على الأخذ بثأره أو الشهادة مثله.

إن مثل هذه الموقف أثّر تأثيراً عميقاً في نفس الحسين، وزاده تصميماً على المضي في التوجّه إلى الكوفة، بل في التصدّي لأعداء الحق الذي مؤداه الهلاك لفئة قليلة لا ناصر لها، وأحاط بها الأعداء الأجلاف من كل جانب، ولا خلاص، فالحرب الحرب، ومنها لا مناص.

ما حصل في مجرى تاريخ الشعوب السياسي، وما يجري اليوم يرى الحاكم أن عليه واجباً، فإما أن ينفي المعارض للحكم الذي يشكّل خطراً على أمن دولته دون اللجوء إلى التصفية الجسدية، وإما أن يأسره ومن معه.

وكان في الاحتمال في حكم بني أمية أن يتجنّب الحرب فيؤسر الحسين ورفاقه ثم يسجن أو ينفى، علماً أن جيش الحسين قلّة ولا يشكّلون خطراً على عبيد الله بن زياد، ولا على جيش يزيد بن معاوية، وكان على ابن زياد وابن معاوية أن يكتفيا بأسر الحسين، ونفيه أو سجنه وتجنّب قتله والتمثيل به، وقتل الأطفال وسبي النساء...

ذلك أن الحسين لم يؤذِ هؤلاء إيذاءً يشكّل هذ الحقد ضدّه، أو يجعل لهم سبيلاً عليه، وفوق هذا كله فهو يستند إلى كتب كثيرة من أهل الكوفة،

كما هو معروف بين الناس عامة بعدله واستقامته وإنسانيته وتقواه، ثم موقعه من رسول الله ومحبته له ولأخيه الحسن، فقد قال عنهما الأحاديث الكثيرة في محبتهما، منها:

«من أحبهما فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني».

و«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

والحسن والحسين من أهل الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وأخيراً شخص الإمام الحسين القابل لكل حوار.

وعلى الرغم من كل هذا فإن الفريق المعادي للحق سلك إلى الحسين طريق الحقد والقسوة والهمجية الجاهلية، وهي طريق غير طريقه وحالة لا تشبه حالته، فما هو السبب الذي أوصل بهم إلى هذه الفاجعة المؤلمة؟!

الجواب واضح ومعروف. إنها الهمجية الحاقدة والحماقة الجاهلية، لم يكن عند يزيد أي شيء من الروية أو الحلم أو الحكمة، بل كان عارياً من كل قيمة إنسانية، كان محكوماً بنزق الشباب، وكبرياء المنتصر، وحميّة الجاهلية، يضاف إليها حمق مأثور، وطيش مغرور، وتعصب موفور.

أما ابن زياد فهو بدوي جاهلي، والبدوي معروف ببعده عن الحوار الرصين فلا يصبر على تفاهم، أو يستلين لمنطق، أحمق مغرور وقح، وهو بلا مرية ذو تناغم في الخلائق مع يزيد، وكل ما عنده ملك له يدافع عنه ويحميه عن طريق الغريزة، وكأنه طفل صغير كل ما حوله ملك له.

ورفاق ابن زياد كوفيون، والكوفة أقرب إلى الصحراء، ومزاج أهلها الجدة والتسرّع من جهة، والمال والمنفعة العابرة من جهة أخرى.

وفوق هذا فابن زياد محكوم بقدر آخر لعله أشد بؤساً من قدر يزيد، فهو أحمق، نزق، موتور، حقود، وحريص على بضاعته ومكاسبه وخائف من سرعة الزمن، وهو عبد مقيّد بسيّده.

وكل هذا يجعل منه شخصاً دنيئاً حقيراً، وعصبياً رخيصاً، ووحشاً ضارياً.

إنها معادلة من الحوادث تقابل بأرقام وتعطي حلاً أو جواباً مفاده أن جزاء الحسين ما كان يصح أن يجيء على ما جاء عليه. إنه الظلم الواضح والجور الصارخ، والتجاوز الجارح.

عندما قال إخوة مسلم بن عقيل: «والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق إخوتنا» رد الحسين قائلاً: «والله لا خير في العيش بعد هؤلاء».

والآن أصبح الحسين يشعر وكأنه أحيط بسور من المكان بَعُد به عن موطنه الحجاز، وسور ثان من الأعداء الذين لا قلوب لهم ولا ضمائر! وسور ثالث نفسي هيّأته الأحداث بمقتل مسلم وحزن ذويه، وتأثر الحسين لذلك تأثراً جلياً.

ثم حماس الأخوة لمقتل أخيهم، وعزمهم على أن يثأروا له، فكل ذلك حدّد جوّ المعركة، ورسم معالم الطريق، طريق النفاذ.

أضف. إلى ذلك أن أبناء العمومة يتحابّون، لذا أراد أخوة مسلم من الحسين أن يمضوا، وهم على أي حال لا يبالون.

والحسين كما هو معروف عنه لم يكن ذلك الرجل المتردّد، فإذا عزم على أمر درسه ومحّص فيه ومضى إلى تنفيذه بعون الله.

وكيف يكون متردّداً من قطع هذه المسافة بين مكة والكوفة وهي مسافة طويلة، ومساحة مترامية الأطراف زماناً ومكاناً!!.
المعطيات تقول: إن الحسين كانت له منافذ للنجاة فلماذا لم يفعل؟.

جواب ذلك واقع عملي، إذ كيف يحاول النكوص من ذلك المأزق من جلب معه سائر أفراد أسرته، وقطع تلك المسافة الطويلة واقتنع تماماً بصواب ما يخطّط وما ينفّذ، وامتلأت نفسه بالعزم الأكيد، والإرادة التي تثنيها الشدائد، والقلب الكبير العامر بالإيمان، والشجاعة النادرة.

إن ما جرى للحسين (ع) كان يعرفه تماماً، ويدرك نهايته على أكمل وجه، وقد أراده بحرية تامة، ورسمه لينفّذه برغبة وقناعة، من هنا يعد الحسين بن علي صانع أمجد موت في الحياة.

ومن هنا سمّي سيد الشهداء أكرم من في الأرض وأنبل بني البشر، ولا غرابة، فالناس في الأرض كالشجر تأتلف أشكالهم وقدودهم وتختلف أفكارهم وأمزجتهم وسلوكهم، وفي هذه الأرض نرى قطعاً متجاورات، وجنّات من نخيل وأعناب، منها ما امتدّت غصونه، واختلف لونه، وعمقت جذوره، ومنها ما له زهر يفوح وثمر طيب يؤكل، ومنها ما ليس له شيء من ذلك، على الرغم من أنها تسقى من ماء واحد!!.

منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف قلّ أن يذكر الناس اسم يزيد وابن زياد وابن سعد وابن ذي الجوشن إلا كما يذكر أحدنا حيواناً مؤذياً كالعقرب والخنزير وما شابه.

بينما عندما يتردّد اسم الحسين يتردّد اسم البلبل، والروضة، والجدول والنسيم، والماء، والشعاع في العيون، والكلمة الحسنى في الأفواه والقلوب.

ذلك واضح بيِّن بين الخطوط والألوان، فالحسين دخل في تراث الإنسانية واحداً من بناة شمائلها، وعمارة حضارتها، فغلّب جانب الخير والحق والجمال على جانب الشر والباطل والقبح، فأصبح كوكباً في كل سماء من أرض البشر، يجري اسمه على الأقلام مجرى نشيد الانتصار على الأوتار.

أمره أمر البطل شاهداً وشهيداً، أقدم بشجاعة قل نظيرها في تاريخ الأبطال العظام.

إذا قلّبنا صفحات التاريخ وجدنا كثيراً من القادة على اختلاف وتباين في المعتقد، والمنهج، والفضيلة، لكن واحداً من هؤلاء لم يكتب وهو على شفير النهاية بعينيه وقلبه وجسده ودمه كما كتب الحسين وهو يحمل معه أفلاذ كبده كلهم، وأحباء قلبه جميعاً، وأصحابه المخلصين الأوفياء الذين اختاروا بعزم وتصميم وشوق وقناعة عزّاً بالموت بين يديه.

الحسين الحسين، يكفي أن يبقى اسمه لهذه الأمة أروع نشيد على مدّ العصور، وسيرة الحسين في تاريخ الشهادة أجمل لحن تعزفه الملائكة لقوافل الشهداء الحسينيين الأبطال على كافة أرض الله الواسعة.

السبايا:

كثر القتل، واستشرى الذبح، وابتلّت ثرى كربلاء بالدماء، وضجّت أرجاؤها بالدعاء، زهقت فيها الأرواح الزكية، وتقطّعت فيها الجوارح النقية، وحوّمت فوق سمائها ملائكة الرحمٰن، تندب الحق وأهله والحسين بن علي عليهما السلام ثابت الجنان، قوي الإيمان، كبده تفرى ألماً ولا يطأطىء رأسه إلا للملك الديان.

يرى إخوانه وأهله وأصحابه عرضة للموت، ويرى أكبر أولاده «علياً» تتناوشه السيوف والرماح وتمزق جسده الطاهر، يرى ذلك فتصغر الدنيا في عينيه، وهو الذي لم تكن عنده تساوي شيئاً أمام طاعة الله والفناء في ذاته جلّ وعلا، فيقول متحسّراً آسفاً على فلذّة كبده:

ـ قتل الله قوماً قتلوك يا بني، وعلى الدنيا بعدك العفاء.

أمّا عن السبايا فماذا ترانا نقول؟

أبناء محمد بن عبد الله مجرى أنهار الخير والبركة والهداية في مكة والمدينة، وفيض الرحمة والحنان والعطاء في ذلك العصر، ودنيا كل قطر ومصر، يساقون نساءً وأطفالاً مخلّفين وراءهم فلذات أكبادهم، صبغت دماؤهم التراب، ويدفعون منهوكين إلى المجرم عبيد الله بن زياد، ابن من؟ ابن سمية. وسمية، هذه من تكون. . . ؟؟.

فيالغرابة الأقدار!!! وياعجباً كل العجب من إنسانية الإنسان التي وصلت إلى هذا الحد مع الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً!!!.

مع السبي المبتلى غلام مريض أمر عبيد الله بن زياد بقتله، فطرحت بطلة كربلاء، أخته زينب نفسها عليه مولولة: «اقتلوني معه» فرقّت قلوب المجرمين

لها وتركوه، فكان وحده الذي انساب منه نسل الحسين الطاهر الشريف، ذلك هو علي زين العابدين (ع) صاحب هشام والفرزدق الذي قال فيه ميميّته المشهورة[1] :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجدّه أنبياء الله قد ختموا
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك: «من هذا؟» بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
ما قال «لا» إلا في تشهّده لولا التشهّد كانت لاؤه نعم
إذا رأته قريش قال قائلها: إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
مقدّم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفّهم سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
يُستدفع الشر والبلوى بحبّهم ويسترب به الإحسان والنعم

ثم جهّز ابن زياد السبايا وأرسلهم إلى يزيد، ثم بعث بهم هذا الأخير جميعاً إلى المدينة، ومع زينب «العقيلة» سيقت أختها فاطمة، وقد كانتا كجناحي الطائر من الحسين (ع)، وسيق معهما أيضاً سكينة بنت الحسين وبقية نساء بني هاشم سبايا أسيرات.

وجاز الركب بساحة المعركة حيث أشلاء الشهداء، فصاحت زينب لهذا المشهد الأليم وقالت: «يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء! هذا الحسين بالعراء، مرمّلٌ بالدماء، مقطع الأعضاء.

يا محمداه! هذه بناتك سبايا، وذريتك مقتلة، فضجّت النسوة من ورائها بالنواح، وبكى كل عدو وصديق.

---

(١) يوجّه الكلام الهشام بن الحكم الذي كان يتجاهل احترام الناس وتقديرهم للإمام زين العابدين حيث أفسحوا له الطريق دون الخليفة الأموي هشام فحنق وغضب وتساءل عنه متجاهلاً.

ودخل الموكب الكوفة، ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوي، وأخذت نساء الكوفة يندبن متهتكات الجيوب على الكريمات المستذلات، لم تطق زينب ذلك صبراً، لم تطق رؤية أهل الكوفة وهم الذين خذلوا أباها وأخاها الحسن عليهما السلام، وأسلموا ابن عمها مسلم بن عقيل، وطلبوا أخاها الحسين فلمّا جاءهم ملبّياً طلبهم باعوا سيوفهم ليزيد اللعين.

لم تطق أن ترى أهل الكوفة يبكون «الحسين» وآله وهم ضحاياهم، وقد تذكّرت ذمَّ أبيها «الإمام علي» عليه السلام أهل الكوفة وشكواه منهم، ثم سرّحت بصرها حيث جثث القتلى الشهداء ممزّقة بالعراء، وأشارت إلى الباكين فسكنوا وطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً، ومضت تقول:

«أما بعد يا أهل الكوفة، أتبكون؟ فلا سكنت العبرة، ولا هدأت الرنَّة! إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ألا ساء ما تزرون.

أي والله، فأبكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، فلن ترحضوها بغسل أبداً، وكيف يرحضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ومدار حجتكم، وهو سيد شباب أهل الجنة؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء!.

أتعجبون لو أمطرت دماً؟! ألاساء ما سوّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون...

أتدرون أيّ كبد فريتم، وأي دم سفكتم، وأي كريمة أبرزتم؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات والأرض يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا».

قال من سمعها:

«فلم أر والله أنطق منها، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضجّ الناس بالبكاء وذهلوا، وسقط ما

في أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء».

مضت حتى بلغت دار الإمارة، فأحسّت بالغصّة في حلقها، وترنّحت الدموع في مقلتيها، لكنّها أبت عليها أن تذل.

ثم وضعت يمناها على ما بقي من قلبها المفجوع خشية أن يتصدع حين أشرفت على القاعة الكبرى، ورأت المجرم عبيد الله بن زياد جالساً حيث تعوّد أبوها أن يجلس...

أخذتها الدهشة، وهزّ كيانها العجب، عندما قارنت بين الماضي المضيء والحاضر المظلم، بين دخولها على أبيها عزيزة كريمة وبين دخولها على ابن زياد أسيرة يتيمة ثكلى.

ما هذه الأيام السوداء، وما هذه الدنيا، كرب وبلاء! لقد فقدت أباها، وولديها وشقيقيها، وبقية آلها، فأين اليوم من البارحة لكي تقف الموقف الجدير بحفيدة الرسول (ص) وعقيلة بني هاشم، وهي أشد حاجة إلى ذاك، لتؤدّي دورها البطولي الذي ينتظرها.

وتقدّمت زينب في مهابة وجلال، وحفّت بها إماؤها، وأخذت مجلسها قبل أن يؤذن لها بالجلوس، قال لها ابن زياد وقد غاظه ما كان منها: «الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم».

فردّت ولكن بقوة وصلابة: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه (ص) وطهّرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله».

وسيق الموكب مرة أخرى إلى دمشق... ورأس الحسين (ع) ورؤوس السبعين من آله وصحبه، وزينب ترمق رؤوس الشهداء! وكان يزيد قد دعىٰ أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله، ثم أمر بإدخال السبايا، وجعل أهل المجلس ينظرون إلى بنات البيت الهاشمي وقد كنّ حتى أمس القريب عزيزات منيعات مصونات! فغضضن أبصارهن على استحياء.

انتفضت زينب تصيح في وجه الطاغية قائلة: صدق الله يا يزيد: ﴿ثم

كان عاقبة الذين أساؤا السُّوأى إن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾[1]

أظننت يا يزيد أنه حين أخذت علينا بأطراف الأرض، وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة؟! وأنّ هذا لعظيم خطرك! فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلانا فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك، وقد أمهلت ونفست، وهو قول الله تباك وتعالى:

﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾.

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نسائك وإمائك وسوقك بنات رسول الله (ص) وقد هتكت ستورهن، وأصلحت أصواتهن، مكتئبات تجري بهن الأباعر، ويحدو بهنّ الأعادي من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد، ليس معهن ولي من رجالهن! وكيف يستبطىء في بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن، والإحن والأضغان. . . ؟.

أتقول: «ليت أشياخي ببدر شهدوا» غير متأثّم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا أبي عبدلله بمخصرتك!!!.

ولمَ تكون كذلك وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة، بإهراقك دماء ذرية رسول الله (ص)، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، ولتردن على الله وشيكاً موردهم، ولتودّن أنك عميت وبكمت وأنك لم تقل: «فأهلوا واستهلوا فرحاً».

. . . اللهم خذ لنا بحقّنا، وانتقم لنا ممّن ظلمنا.

ثم قالت: والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله (ص) برغمك، وعترته ولحمته في حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث، وهو قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) سورة الروم، الآية: ١٠.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

وسيعلم من بوأك، ومكّنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحكم الله... والخصم محمد (ص) وجوارحك شاهدة عليك.

فبئس للظالمين بدلاً، أيكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

مع أني والله يا عدو الله وابن عدوّه استصغر قدرك، واستعظم تقريعك، غير أن العيون عبرى، والصدور حرّى، وما يجزى ذلك أو يغني وقد قتل الحسين (ع)، وحزب الشيطان يقرّبنا إلى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله.

فهذي الأيدي تنزف من دمائنا، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات، فلئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا مغرماً حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك.

تستصرخ يا ابن مرجانة!!... ويستصرخ بك، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد (ص)، فوالله ما اتقيتُ غير الله... ولا شكواي إلا إلى الله... فكد كيدك، وإسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً.

ثم صاحت:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأممِ
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى وقتلى ضرّجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحميَ

لقد أضرمت زينب النار في القلوب، وهزّت المشاعر، وأيقظت النفوس المتخدّرة حتى سرت البلبلة بين الناس، وكثر اللغط، وساد الهرج.

يروى أن زوجة يزيد «هند ابنة عبدالله بن عامر» قالت له: غداً يا يزيد

تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك... ويجيء الحسين وجده رسول الله شفيعه!».

يا يزيد أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله!؟.

عودة الركب بالسبايا إلى المدينة:

عادت عقيلة بني هاشم مع موكب السبايا إلى مدينة جدها الرسول (ص) التي كانت تترقّب أبناء سبط رسول الله بفارغ الصبر عندما خرج إلى الكوفة ملبّياً شيعته هناك، ولكن الذي راعها وأخذ منها كل مأخذ صوت منادٍ ينادي:

«إن علي بن الحسين قد قدم إليكم مع عمّاته وأخواته.

إذاً يا ترى أين الإمام الحسين؟ وأين النجوم الزاهرة والصحبة الطاهرة من بني الزهراء وآل عبد المطلب؟.

انتشر صدى النعي في كل أنحاء الجزيرة انتشار النار في الهشيم حتى بلغ سفح أحد، ثم ارتد إلى البقيع فقباء، وما لبث أن تلاشى مع صراخ النائحين وعويل النائحات.

لم تبق مخدّرة في المدينة إلا خرجت من خدرها نائحة معوّلة، ومنهن زينب بنت عقيل بن أبي طالب، أخت مسلم البطل المظلوم الشهيد، ومعها نساؤها، وهي حاسرة تلوي بثوبها وتصرخ، وأهل الركب الحزين يشاهدون الجموع التي خرجت لاستقباله، لقد استقبلوا بما لا يجري به قلم على أنامل إلا إذا كان وراؤها قلب قُدَّ من صخر.

لقد عاد الركب من سفره بعد تلك الغيبة التي لم تتجاوز أشهراً معدودات والحزن مخيّم على المدينة الحزينة على شهداء البيت النبوي.

لقد حثّتهم مناياهم سراعاً، حتى إذا بلغوا وادي الموت حصدهم الموت حصداً ولم ينج منهم سوى هذه البقية الحزينة من الصبية اليتامى والنسوة الثكالى!.

حزنت مدينة الرسول حزناً عميقاً على العترة الطاهرة، وأقامت أياماً بلياليها تشهد المأتم الرهيب، لا يعكّر صفاءها سوى النواح الفاجع والندب الحزين.

والأرامل والثكالى يسعين كل يوم إلى القبور فيندبن الأعزاء الذين غُدروا بكربلاء، وترجّع المدينة أصداء أصواتهن الحزينة فيُبكي لهنّ الأصدقاء والأعداء...

حدّثوا أن زوج الإمام علي (ع) أم البنين كانت تخرج إلى البقيع لتبكي أبناءها الأربعة: عبدالله، وعثمان، وجعفراً والعباس، وقد استشهدوا جميعاً في كربلاء، وتندبهم ندبة حزينة مثيرة تحرق قلب كل من سمعها، حتى لانِ قلب مروان بن الحكم القاسي عدو الطالبيين، كان يأتي ليسمعها فلا يزال يسمع ندبتها حتى بكى!.

وقيل أن الرباب زوج الإمام الحسين (ع) وأم سكينة عادت بعد مصرعه إلى المدينة وبقيت تنوح وتبكي سنة حتى ضعفت وماتت! وزينب بنت عقيل «أخت مسلم» كانت تندب وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم   ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم[1]

وأما بطلة كربلاء العقيلة زينب فدموعها غزيرة جداً لأن اللهيب في قلبها أطفأ تلك الدموع، فهبّت تطلب ثأراً، وهذا الدم المسفوح لا ينبغي أن يضيع هدراً.

كان وجود السيدة زينب في المدينة كافياً لأن يلهب القلوب المؤمنة بالحق على الشهداء الأبرار، ويؤلّب الناس على حكم الطغاة وجورهم، وهذا ما ضايق الحكام الأمويين حتى أنهم كتبوا مع واليهم بالمدينة إلى يزيد: «إن وجودها بين أهل المدينة مهيّج للخواطر، وإنها فصيحة، عاقلة، لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بالثأر، ثأر «سيد الشهداء» الإمام

---

(١) راجع الأبيات في ص ٦ وقد نسبت إلى العقيلة زينب أخت الإمام الحسين (ع).

الحسين (ع)، عندها أمره الطاغية يزيد المعروف بنزقه وطيشه أن يفرّق البقية الباقية من آل البيت في الأقطار والأمصار، ولما علمت بالخبر قالت غاضبة:

قد علم والله ما صار إلينا: قتل خيرنا، وسيق الباقون كما تساق الأنعام حملنا على الأقتاب، فوالله ما خرجنا وإن أريقت دماؤنا»[1].

لم تعش السيدة زينب بعد مقتل أخيها الحسين سوى عام ونصف العام، لكنها استطاعت في هذه الفترة القصيرة أن تقلق مضاجع الأمويين وتغيّر مجرى التاريخ.

لقد ظن حكام بني أمية أن في قتل الحسين (ع) يسدل الستار على الفصل الأخير من المسرحية الكربلائية، وما نحسبه يسدل حتى تتبدل الأرض ومن عليها!.

الحسين (ع) إمام الجماهير المؤمنة، باق في المهج والأرواح، ومأساة الحسين مأساة إنسانية خالصة تأخذ بلب كل إنسان، وتستثير مشاعر الشرفاء.

الحسين شهيد وسيد الشهداء وإمام الشاهدين، والشاهدية حضور تام في الذات والمجتمع، والكون، تولد منها الشهادة عملاً لذلك الحضور.

إن الغمامة المحمّلة بإيحاءات البحر، ونسمات الفلك، فتحت فمها لتقول كلمة الحق، كلمة العودة إلى المنبع، مثلما تئن الأوتار والنايات، وتصفر العلائم الموسيقية منسلّة من الجسد لتعود إلى قلب الأرض وهي تحدو حول وصول الشمس حداء الصيرورة، وهو في الوقت ذاته نشيد الحب الأكبر، والجمال الأعظم، والجلال المطلق.

كلمة الحسين الشاهدة والملتزمة تقول الموت البطولي كما لم تقله شهادة في تاريخ الأرض، لأنها عبارة جده الرسول الأعظم التي كتبها من فوح القرآن وسوف تبقى ما بقي أنبل إنسان، ولا يستطيع أن يخفيها أو أن يغيِّر مجراها بنو مروان مهمّا تصنّعوا في الظلم والبهتان.

---

(١) راجع بلاغات النساء لابن طيغور، والمرأة في الإسلام لمريم نور الدين فضل الله.

لم تمض السيدة زينب (ع) إلا بعد أن أفسدت على ابن زياد ويزيد وبني أمية لذّة النصر المصطنع! لقد سكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس المترحين بالظفر، فكانت فرحتهم بنصرهم قصيرة، وكان نصراً مؤقتاً لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة قضت في نهاية الأمر على دولة بني أمية.

بعد خروج السيدة زينب (ع) من عند الطاغية يزيد أحسّ أن سروره بمقتل ابن رسول الله (ص) قد شابه كدرٌ خفي أخذ يزداد ويتكثّف يوماً بعد يوم حتى استحال إلى ندمٍ دائم، عكّر عليه صفو حياته طيلة الأعوام الثلاثة من آخر أيام حياته.

يروي الطبري وابن الأثير أنه لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي (ع) وآله وأصحابه وبعث برؤوسهم إلى يزيد سرّ بقتلهم أولاً، ثم لم يلبث قليلاً حتى ندم على قتل الحسين فكان يقول: «وما كان عليّ لو احتملت الأذى وحكّمته فيما يريد؟...

لعن الله ابن مرجانة (قول عبيد الله بن زياد) فإنه أخرجه واضطرّه... ثم قتله فبغّضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلي حسيناً!... ما لي ولابن مرجانة لعنه الله!».

وسمع يحيى بن الحكم الأموي يقول:

«سمية» أمسى نسلها عدد الحصى   وليس لآل المصطفى اليوم من نسل!

شغل الناس بعد وفاة السيدة زينب (ع) بالحديث عن استجابة السماء لدعاء العقيلة الهاشمية الطاهرة، وراحوا يملأون لياليهم بسمر غريب عجيب عن غضب السماء للدم الطاهر المسفوح من أجل إعلاء كلمة الله وتثبيت شريعة الله.

هكذا كان هدف الإمام الحسين (ع) الإمام المعصوم الذي عليه أن ينفذ وصية أبيه (ع) وجده (ص) في صيانة الرسالة الإسلامية من الانحراف والظلم والطغيان، عليه أن يصلح أمر الأمة الإسلامية أمة جدّه رسول الله (ص).

... وتداعى الحكم الأموي الظالم، وسقط الحكم الأموي المنحرف وقامت على أعقابه الدولة العباسية، وظهرت الدولة الفاطمية بالمغرب، وما صاحب هذا كله من أحداث دامية، وما أعقبه من معارك أليمة كتبت تاريخ الإسلام كلّه منذ مقتل الإمام الحسين (ع).

وقد حدث ما هو أهم من هذا: لقد تأصل المذهب الحسيني، وكان له أثر بعيد في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في البلاد الإسلامية عامة.

وبقي ذكر الحسين (ع) عطراً فوّاحاً طيباً، ترتّله الأفواه كما ترتل آيات التنزيل، وبقي أنصار الحسين المجاهدون المؤمنون يسجّلون البطولات ضد كل انحراف وضد كل المستكبرين في العالم في جنوب لبنان وفي فلسطين وفي أفغانستان وفي كل مكان.

وبقيت الحسينيات تذكر مأساة كربلاء كل عام، وتقيم العزاء لسيد الشهداء وآله الطاهرين وأصحابه الأوفياء وتردد: «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلا».

مبادىء الثورة الحسينية وأهدافها النبيلة

بعد استشهاد الإمام علي (ع) تربّع معاوية على كرسي الخلافة، وخلا له الجو ليفعل ما يريد من أجل تثبيت نفسه في الحكم، وقد استغلّ الإسلام والمسلمين من أجل ذلك.

فإن الرسول الأعظم الذي أرسله الله جلّ وعلا لنشر الإسلام وتبليغ الرسالة، وإن كانت سواعد المسلمين المجاهدين وسيوفهم التي حاربت من أجل الدين قد طوّعت كبار الرؤوس الجاهلية وحطّمت الكفر والطغيان، وإن كان مجيء الدين الحنيف من أجل صياغة نفس الإنسان وتطهيرها من كل ما علق بها من أدران الجاهلية، فإن معاوية قد استغل كل ما عنده من قوى لتحويل كل ذلك من أجل مصلحته الشخصية ومصالح الأمويين الدنيوية.

كان عليه أن يحقق أمنيات أمية ليرفع هامته على هاشم ولو مرة واحدة.

كان معاوية ينظر إلى الدين على أنه وسيلة من أهم الوسائل يستخدمها لصالحه وصالح عشيرته، لذلك عمل بكل ما عنده من حيل ودهاء لإيهام رعايا الأمويين أنه يحكم بتفويض إلّهي، وأن خلفاء أمية هم حقاً خلفاء رسول الله، والهدف من ذلك ـ كما هو واضح ـ ليجعل من الثورة على الأمويين عملاً محظوراً، وإن جوّعوا وحطّموا وظلموا وشرّدوا المؤمنين.

لقد جعلوا لأنفسهم باسم الدين الحق في قمع أي تمرّد، وردع أي مقاومة وثورة تقوم بها جماعة من الناس وإن كانت محقة في طلباتها، من هنا نرى معاوية يسلك مخططات خطيرة ومخالفات كثيرة، فاستعان على ذلك بطائفة من الأحاديث المكذوبة على النبي وآله (ص) وقد وضعها ونسبها إلى النبي نفر من تجّار الدين الذين كانوا يؤلّفون جهاز دعاية عند معاوية بن أبي سفيان، استعان بهم وبأمثالهم في عقد مجالس القصص والوعظ فأيدوا بها الحكم الأموي عن طريق الدين، وقد جعل معاوية القصص عملاً رسمياً تابعاً للدولة فرتّب قصّاصاً ووعّاظاً يوميين في المساجد والمحافل، وأنفق عليهم من مال الدولة المال الوافر، فجدّوا في الدس، ووضعوا الكثير من الأحاديث النبوية المزورة التي تخدم مصالحهم الشخصية.

من أجل ذلك طلبوا من الناس أن يحاربوا الإمام الحسين (ع) مستندين في طلبهم هذا إلى ما عهدوه من السند الديني للحكم الأموي.

ولا ريب أنه لو تيسّر لهم ما أرادوا واستحكمت هذه الفكرة في أذهان الناس دون أن تكافح ويُفضح زيفها وانحرافها عن الدين الحنيف لقضي تماماً على كل محاولة مقبلة الهدف منها تقويض أركان الحكم الفاسد الذي يمارسه الأمويون وأعوانهم من المرتزقة.

وفي الواقع أن الدعايات والسياسات الأموية قد فشلت في تحقيق أهدافها، لأن الحق لا ينطفىء نوره، وسوف يأتي الصبح ويفضح الليل الخائب الذي يجرّ أذياله مدحوراً.

ومن أجل تغيير هذا الوضع الفاسد كان لا بد من وجود رجل له المهابة

الكبرى في نفوس الناس قاطبة ويتحلّى بالعقل المستنير، والإرادة القوية والعزيمة الصادقة، والإيمان الراسخ الذي لا تزعزعه الرياح مهما عنفت واشتدت، رجل ذو مركز ديني مسلّم به عند الأمة المسلمة بأسرها.

ومن لهذه الأمة في تلك المحنة سوى إمام الشاهدين وسيد الشهداء الحسين بن علي، الإمام المعصوم ابن الإمام المعصوم، إنه الغمامة المحمّلة بإيحاءات البحر ونسمات الفلك، فتحت فمها لتقول كلمة العودة إلى المنبع مثلما تئنّ أوتار النايات وتنس العلائم الموسيقية لتعود إلى قلب الأرض وهي تحدو حول الشمس حداء الصيرورة، وتشدو نشيد الحب الأكبر، والجمال الأعظم والخير الصميم، لأن كل شيء يغرق آنئذٍ في الجمال المطلق.

الحسين (ع) لبس درع الرسالة النبوية، رسالة جده المصطفى، فوجد في كل حلقة منه نبضة قلب يتفجر عزيمة، والعزيمة الحسينية تشع بضوء يتماوج بألف لون ولون.

تطلّع إمام الشاهدين والشاهدية إلى فوق فلمح كوّة مفتوحة على الجنة، وبسمة عريضة من العرش الإلّهي كأنها تقول له:

سر في درب الشوق، وأسرع، فأنت محوط بالعناية الإلّهية.

كان من الضروري في ذلك الوقت وجود مثل هذا الرجل العظيم ليفضح الزخرف الديني الذي يتظاهر به الحكام الأمويون، ويكشف ذلك الحكم على حقيقته وجاهليته، وبعده عن مفاهيم الإسلام الحقة، وهذا ما صرّح به سيد الشهداء عندما قال:

«... لم أخرج أشراً ولا بطراً وإنما خرجت من أجل الإصلاح في أمة جدي».

فضح الحسين الحكام الأمويين وكشف حقائقهم، ووضعت الثورة الحسينية خطاً فاصلاً بين الدين الإسلامي والحكم الأموي المنحرف والمزيّف.

لذلك أصرّ الحكّام الأمويّون على قتله وقتل آله: آل علي، وآل عقيل

وأبنائهم، وقتل صفوة من أصحابهم تفيض قلوبهم تقى وورعاً وديناً، وتزكو نفوسهم حرصاً على مصلحة المسلمين ورسالة الإسلامُ.

من جرائمهم المنكرة أنهم منعوا الماء عن جيش الحسين حتى قتلوهم عطاشاً وفيهم الطفل الرضيع والمرأة المرضع، ثم سبوا بنات النبوة حاسرات بلا غطاء ولا وطاء، ونقلوا رؤوس القتلى مع السبايا من كربلاء إلى الكوفة إلى الشام...

كل ذلك جرّد الأمويين من كل صفة إنسانية، ومن كل صيغة دينية، وكان دليلاً بالغ الأداء يعمل على تقويض كل ركيزة دينية للحكم الأموي في نفوس المسلمين.

الذي زاد في موقف الأمويين حراجة أن الحسين لا يصرّ على القتال بل أعطاهم الفرصة الكافية ليتّقوا بها ارتكاب قتله وقتل آله وصحبه، ولكنهم أبوا إلا القتل، وأصروا عليه، فزادهم ذلك فضيحة في المسلمين، وجعلهم بمثابة الثائرين على الإسلام نفسه، ولقد اكّد الحسين علىٰ هذه النقطة، - إمتناعهم عن كل حل سلمي وإصرارهم على قتله ومركزه في نفوس المسلمين - تأكيداً رائعاً، فدأب في كل فرصة تؤاتيهعلىالكلام في تأكيد هذه الحقيقة للجيش الأموي.

وهذه بعض النماذج من خطبه التي ألقاها في مناسبات عدة:

«أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يجب لكم عليّ، وحتى اعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وانصفتموني. كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة، ثم أفضوا إليَّ ولا تنظرون، إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين...

ثم قال:

أما بعد. فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها،

وانظروا: هل يصلح لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟!

ألست ابن بنت نبيكم (ص) وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟!

أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أوليس جعفر الشهيد الطيار عمي؟!

أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله (ص) قال لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»؟!.

فإن صدّقتموني بما أقول ـ وهو الحق ـ والله ما تعمّدت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه، وإن كذّبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله (ص) لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!.

ثم قال لهم الإمام الحسين (ع):

فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكّون ـ أثراً ما ـ أني ابن بنت نبيكم؟! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، وأنا ابن بنت نبيكم خاصة.

أخبروني: أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟ أم مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحه؟.

عندها صمت وحيره دون كلام، فنادى:

يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار، وأخضرّ الجناب، وطمت الجمام، وإنما تقدم على جندٍ لك مجنّدة، فأقبل!

ثم تابع قائلاً:

لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله:

إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»[1].

بهذا الكلام فضح الإمام الحسين الزخرف الديني واللعب السياسي والانحراف عن الخط الرسالي في الحكم الأموي، لقد أشعرهم أن الظلم يجب أن يزول ولا يزول إلا بالثورة، وأن حكمهم باسم الدين حكم مزيّف.

ظن البعض من الذين يدّعون البحث العلمي أن الحسين قد وقف هذا الموقف طالباً الرحمة، فيا سبحان الله!.

إنه الغباء أو العداء! وأنهم لبعيدون عن فهم هذا اللون من مواقف الأبطال العقائديين.

الحسين كان يدرك بالمنطق الرياضي إدراكاً شمولياً أنه مفارق جسده وعيشه، وتأكد بكل ما لديه أنه قريب بوجهه من نور الله، لذلك وقف وقفة عز وكرامة ولم يقل: «إلّهي إلّهي لماذا تركتني» بل صاح بكل جرأة: «إلّهي إلّهي أنا قادم إليك» وكأنه يرى دمه ودماء رفاقه الشهداء أمام بصره رياضاً طفحت ورداً وفلّاً وشقائق نعمان.

وإذا بكلمة الحسين الشاهدة، الملتزمة، المحقّة، تقول الموت البطولي كما لم تقله شهادة في تاريخ الأرض، إنها عبارة جده محمد (ص) التي كتبها من فوح القرآن، وقالها من بوح جسده ذي القلب السماوي، ليعبر الضفة قبالة والده الإمام علي فريد الدهور، وصاحب القول المأثور، والعمل المشهور في حب الحق الأعلى!

لم يثنه عن عزيمته الشاهدية في الشهادة ما كان له من مراحم الأبوة والعرش الشعشعاني الذي تربّع فوقه على قلوب المجاهدين المؤمنين من ـ الصحابة ـ برسالة جده محمد (ص) حبيب الحب الذي تتوهج روحه في سماء الله؟.

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٢٢ والكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٨٧ وقد ورد الخبر بتفاصيله في كتاب ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين.

نقول لهؤلاء الأدعياء: لقد آثر معاوية بطنه ومقعده، وآثر يزيد شهوة جسده، وعمل المغيرة من أجل الحصول على لُقَيْمة، وعمرو بن العاص جرَيْعَة ومات ابن زياد وابن الجوشن وابن سعد منذ أن ولدوا وبقي الإمام الحسين بن الإمام علي يذكر حياً، نَضِراً، فوّاحاً كلّما ذكر محمد وآل محمد، ورسالة محمد (ص).

فالشفاه التي ترتل اسمه كما ترتل آيات التنزيل، والقلوب التي تعزف أنغام حبه، والعقول تعجب ببطولته وجرأته وصدق إيمانه، ليست وقفاً على العرب وحدهم، ولا على المسلمين وحدهم، فذلك للذي يتفوق بحال من الأحوال، أما الحسين فهو لكل حال، ولكل الأزمان.

فالحسين موجود في قلوب المؤمنين، وفي خواطر المسلمين الصالحين، والحسين باق في الوجود منذ أن أبدع الله الجمال والمجد والجلال! إنه الحسين بن علي، حفيد محمد النبي (ص) الذي ينشد اسمه جميع المسلمين وكأنهم في معارج ابتهال وصلاة!!.

لقد انكشف ذلك الزيف الديني الذي موّه به الأمويون حكمهم سريعاً بعد مصرع الحسين وآله وصحبه، فالجنود العائدون نشروا تفاصيل الملحمة المروّعة في طول البلاد الإسلامية وعرضها، والمؤرخون رووا أنه لمّا وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله، وسرّه ما فعل، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى بلغه بُغض الناس له، ولعنهم وسبّهم، فندم على قتل الحسين[1].

منذ ذلك اليوم تحطّم الإطار الديني الذي أحاط به الأمويون حكمهم الفاسد الظالم، ولم تعد لهم أي حرمة دينية عند الجماهير المسلمة، هذه أولى النتائج الإيجابية التي أحدثتها الثورة الحسينية في نفوس الجماهير.

أما النتيجة الثانية التي أحدثت تغيّراً خيّراً في المجتمع الإسلامي فهي

---

(١) ذكر الخبر أكثر المؤرخين منهم الطبري ج ٤ ص ٣٩٨ وابن الأثير في الكامل ج ٣ ص ٣٠٠ وفي تاريخ الخلفاء ص ٢٠٨.

إحداث أخلاق جديدة، ومفاهيم جديدة، ونظرة إلى الحياة تختلف اختلافاً كلياً عن النظرة العادية السابقة.

والثورة الإصلاحية تصبح ضرورة عندما تخفق جميع الوسائل الأخرى في تطوير الواقع المعاش.

والقائمون بالثورة هم ولا بد أفضل أفراد الأمة وأبرز أعيانها، هم النخبة الصالحة، والطليعة المُقدّرة.

والثورة تصبح قدر هذه النخبة ومصيرها المحتوم حين تفشل جميع وسائل الإصلاح الأخرى، وإلا فإن هذه النخبة تفقد مبرّرات وجودها، ولا بد لهذه الثورة الإصلاحية من أن تبشّر بأخلاقٍ جديدة، وقيم إنسانية جديدة لها دورها البناء في تقديم وتطوير مركبة الحضارة الإنسانية.

فهي تحيّ المبادىء والقيم التي هجرها المجتمع أو حرفها وشوهها كما كانت الحال في المجتمع الأموي الذي شوّه الأخلاق الإسلامية وعاد بها إلى العصبية القبلية والأحوال الجاهلية.

ولمّا انتهى الواقع إلى ذلك الحد من السوء والفساد غدت الثورة علاجه الوحيد.

إذن الدعوة إلى نموذج من الأخلاق أسمى مما يمارسه المجتمع أصبح ضرورة لازمة، وذلك حتى تتغيّر نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى مجتمعه وإلى الحياة بصورة عامة.

ومن لهذا التغيير الجذري غير الإمام الحسين (ع) وآله وأصحابه في ثورتهم على الحكم الأموي الفاسد والمنحرف، ليقدّموا الأخلاق الإسلامية العالية بكل ما فيها من صفاء ونقاء بأعمالهم الصالحة ودمائهم الطاهرة وحياتهم الغالية، فهم من غير طينة الذين يقولون بألسنتهم، هم من طينة حسينيّة علوية نبوية شريفة.

اعتاد أكثر الناس في المجتمع الأموي على التملّق والرياء والغش وبيع الضمير بالمال، فكنّا نرى الزعماء الدينيين والسياسيين يخضعون ليزيد على

علمهم بحقارته وانحطاط أخلاقه، كما خضعوا أيضاً لعبيد الله بن زياد على علمهم بمنبته الوضيع وأصله الحقير، وخضعوا لغير هذا وذاك من الطغاة الذين يملكون المال والجاه والنفوذ ليحصلوا على النعمة والرفاه.

كان هؤلاء يخونون ضمائرهم، ويخونون مجتمعهم، ويخونون إسلامهم، عرف المجتمع الأموي آنذاك هذا اللون من الرجال كما عرف لوناً آخر من الزهّاد الدجّالين الذين كانوا يتظاهرون بالزهد كذباً ونفاقاً، وقد وصفهم الإمام علي (ع) بقوله:

«ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية»[1] .

لذلك كان غريباً على كثيرٍ من الناس آنذاك أن يروا إنساناً يخيّر بين حياة رافهة فيها المال والمتعة والنفوذ والتقدير وبين الموت موحشاً هو وأولاده وأخوته وأهل بيته وأصحابه فيختار الثاني.

لقد كان غريباً جداً على أولئك اللون من البشر أن يروا إنساناً كهذا إنه الحسين بن عليّ، فرع الدوحة وواحد من أهل الكساء، أهل البيت، الذين أكرمهم الله وطهّرهم تطهيراً.

لقد هزأ بالموت فإذا به ذو عرش على قلوب الملايين، قال للموت: قد تجيء في كل لحظة وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكنني أيها الموت أريد أن تموت أنت وأن أحيا إلى الأبد قطرة في محيط التاريخ.

وبعد أربعة عشر قرناً ينادي الإمام الحسين هذا الجيل عسى أن يسطع منهم ضوء يهدي، وعطر يرفع، وصوت يهب سامعه إلى نجدة الحق، ونصرة الشمائل من أجل بناء حياة كريمة، وإنسانية سعيدة، وحضارة رافهة.

هذا النموذج الفريد من الأخلاق النبيلة، وهذا النوع المشرق من السلوك

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٩٨.

الإنساني الرفيع هزّ الضمير المسلم هزّاً، وأيقظه من سباته المَرَضي الطويل ليشاهد صفحة جديدة من الحياة الحرّة الكريمة يكتبها الإنسان بدمه في سبيل المبدأ الشريف، والحياة الأبيّة البعيدة عن كل ذلّ وعبودية.

لقد كشف الإمام الحسين (ع) للناس جميعاً زيف الحياة التي يحياها أصنام اللحم، وشق لهم طريقاً جديداً في العمل، وقدّم لهم أسلوباً جديداً في ممارسة الحياة، أسلوباً مضيئاً لا طريق غيره جديراً بالإنسان، هذا النموذج الرفيع من السلوك الحسن بات خطراً أكيداً على كل حاكم يجافي روح الإسلام في شريعته العادلة السمحاء.

وهدف الإمام الحسين هو شق الطريق الصحيح للأمة المحرومة المستضعفة لتناضل وتجاهد وتكافح من أجل إنسانيتها، ومنذ بداية الثورة في المدينة المنورة حتى ختامها الدامي في كربلاء الحزينة نلمح هذا النمط من السلوك العالي.

ولنتأمل إجابته للحر بن يزيد الرياحي حين قال له: «أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن».

فقال له الإمام الحسين (ع): أبالموت تخوّفني؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك!! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ـ حين لقيه وهو يريد نصرة رسول الله (ص) ـ فقال له: أين تذهب فإنك مقتول؟! فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه	وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم	كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما[1]

ولما أحيط به من كل جانب قيل له: إنزل على حكم بني عمّك.

(١) راجع الطبري ج ٤ ص ٢٥٣ والكامل ج ٣ ص ٢٦٥.

فقال: «لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد، ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، **وهيهات منا الذلة**، يأبى الله لنا ذلك، ورسوله، والمؤمنون، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[1] .

لقد طرح الإمام الحسين شعار «هيهات منا الذلة» من خلال ثورته المباركة لينبّه الأمة الإسلامية إلى أصالتها الرسالية، وعقيدتها القرآنية التي جعلت المؤمنين أعزّة في دستور الله تعالى: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**.

أراد سيد الشهداء أن يوضّح للملأ من المسلمين أن المحاولات الأموية التي سعت إلى تشويه الإسلام وإفراغ الأمة الإسلامية من محتواها العقائدي هي محاولات جاهلية يرفضها الإسلام، ويرفضها كذلك المؤمنون والغيارى على مفاهيمه الصحيحة وأحكامه العادلة.

أراد سيد الشهداء أن يصحّح مفهوم الذلّ ومفهوم العزّ الذي تحوّل في أذهان كثير من الناس إلى مفهوم قلق مضطرب من خلال ممارسات الأمويين المنحرفة والباطلة وأعوانهم المرتزقة من القُصّاص والتجار...!!.

فهناك البعض من الناس من يرى أن العزّة هي أن يكون للواحد منهم عشيرة كبيرة مرهوبة الجانب تدفع عنه كل ضيم واعتداء، وبذلك يكون اعتماده على العصبية القبليّة التي كانت محوراً لكل تحركاته وتصرفاته.

وقد صور الشاعر الجاهلي حالة الفرد تجاه قبيلته فقال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهناك البعض الآخر من الناس، إن في الجاهلية القديمة أو الحديثة، من يرى أن العزّة هي من شأن الفرد الذي يملك المال الكثير والثروة الطائلة

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٢٥٨.

والجاه والسلطان، فلذا كانوا يحترمون الغني، ويقدّرون الثري، وهو وحده زعيمهم، وصاحب الشأن عندهم ما دام يملك المال، فإذا خفّ المال خف الاحترام والتقدير.

ولا ريب أن هذا المفهوم هو مفهوم خاطىء يرفضه الإسلام، وقد شجب أصحابه ولم يوافقهم عليه، وفي قصة قارون وفرعون لدليل واضح وعبرة وعظة لكل من أراد تصحيح المفاهيم الخاطئة والأعراف المنحرفة التي كان يسير عليها الناس في جاهلياتهم وضلالاتهم.

ففرعون ـ وفي كل عصر فرعون ـ أراد أن يفرض سيطرته على بني إسرائيل بدعوى الربوبية لهم.

وكذلك فعل قارون، المضروب به المثل في الغنى المادي، اعتدّ بماله وعظمة ثروته، والناس في نظره كالحيوانات يسخرهم لخدمته لقاء دريهمات معدودات، ولولا النبي موسى (ع) وصحبه من الأنبياء الأطهار لبقي الظلم مخيّماً، ولبقي العسف مسيطراً على ذلك الشعب المستضعف، ولاستمرت تلك النظرة المنحرفة من الناس إلى مفهوم العزّ ومفهوم الذل!.

وإن حكام الدولة الأموية وعلى رأسهم معاوية وابنه يزيد قد ساروا على خطى السنّة الفرعونية والانحراف القاروني والجاهلية العمياء، فضلّلوا الناس بشتى الطرق ومختلف الأساليب الخادعة، وألبسوا الناس ثوب الذلّ الذي يرفضه إسلامهم ويلفظه إيمانهم.

ولكن هؤلاء باتوا مبلّدي الإحساس والشعور، فكانوا أشبه بالأموات الذين وصفهم المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميّت إيلامُ

هذه الفئة من الناس قد تنازلت عن عزّتها وكرامتها من أجل حفنة من المال قدّمها لها الطغاة، واستعبدوها بها فلجموا أفرادها النطق بالحق والدفاع عنه.

والبعض الآخر من الناس المضلّلين قد أغرتهم المناصب الدنيوية

والمراتب والجاه فذلّوا وأطاعوا إطاعة العبيد حتى تعطّلت حواسهم عن السمع والإبصار، وتعطل تفكيرهم عن التعقل والإدراك، لقد أفقدتهم شهوة الحكم والسعي وراء المنصب كل إحساس بظلم الطاغية وجور الحاكم.

وقسم آخر من المؤمنين «أصحاب النفوس الأبيّة، والأنوف الحميّة، الذين طابت جدودهم، وطهرت حجورهم، ولا يؤثرون طاعة اللئام على مصارع الكرام» نظروا بعين الإسلام، بعين الله، التي تأبى الذلّ، وترفض الاستعباد، ولا تقبل بأي شكل المساومة على عزّة نفسها وكرامتها.

لذلك أبوا كل العروض الدنيوية الرخيصة، واعتصموا بحبل الله المتين، فلم تغرّهم الزعامات، ولا متاع الدنيا الزائل، ولا المآدب الدسمة، لقد انتصروا على أنفسهم فبقي ذكرهم حيّاً، نضراً، فوّاحاً كلّما ذكر محمد وآل محمد ورسالة محمد.

فالشفاه التي ترتل اسمه كما ترتل آيات التنزيل، والقلوب التي تعزف أنغام حبه ليست وقفاً على عرب المسلمين، فذلك شيء للذي يتفوق بحال من الأحوال، أما الحسينيون فهم لكل حال وعلى مدى الدهور.

المسلمون الواعون رفضوا أن يكونوا سائمة ذليلة يقودها يزيد بن معاوية وأتباعه ومن هم على شاكلته، لأن الذل يرفضه الله عن عباده المؤمنين برسالته، وقد حذرّهم من التنازل عنه، إذ ليس ملكاً خاصاً لهم، ولا يستطيعون التخلّي عنه، إذ أن كرامة المسلمين هي ملك الله ألبسها المؤمنين، وأبى عليهم التنازل عنها مهما قست الظروف واشتدّت الأحوال.

وقد سئل الإمام الصادق عن تفسير الآية الكريمة: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين...﴾** فقال (ع): إن الله فوّض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، إن المؤمن أعزّ من الجبل، إن الجبل يُستقلّ منه بالمعاول والمؤمن لا يستقلّ من دينه شيء...

يرشح من هذا التفسير الكريم الملامح الواضحة لمفهوم العزّة التي هي ثابتة للمؤمن بمقدار ما هي ثابتة لله ولرسوله، وعميقة متأصلة بمقدار عمق

الذات البشرية، لأنها مستمدّة من مصدر العزّة الأصيل، ومن مبدعها الرحمان الرحيم.

ولمّا كانت العزّة بهذه المثابة من العمق والأصالة فهل يمكن أن يتنازل سيد الشهداء والإمام المعصوم لطاغية متجبّر خرج عن دين الله وخالف شريعة الله وحكمه.

الإمام الحسين (ع) إمام معصوم ابن إمام معصوم، لبس درع الرسالة وتلقّى العزّة من جدّه رسول الله، وأبيه ولي الله، وتربّى في كنف وحجر سيد رسل الله، ورضع لبانات المجد والكرامة من أشرف خلق الله.

لقد أعلنها الإمام الحسين صريحة مدويّة فقال:

«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد».

فقد رفض (ع) واقعاً معاشاً وطريقاً أراده الطغاة، فعليه أن يضع يده بيد يزيد عن ذلّ وإهانة وأن يقر إقرار العبيد، ولكنه رفض كلتا الحالتين وأبى أن يتنازل عن أعزّ ما ملكه عن آبائه وأجداده ميراثاً طيّباً وطبيعة خيّرة أبيّة.

هو درس مفيد لعصره ولكل عصر بعد عصره، درس لكل إنسان يسأم الذلّ والهوان من قبل الحاكم الظالم.

واليوم وبعد مضي قرون متعددة نجد كيف يمارس أكثر الحكام الظلم والجور، وكيف يعاملون الذين يعارضونهم بالامتهان والإذلال في كل البلاد التي ترفع شعارات الحرية وأمثالها من النعوت والصفات، ولنتأمل السجون والمعتقلات كم تضم من الملايين الذين كمّموا أفواههم، وسدّوا أسماعهم، وضربوا سوراً حديدياً بين الإنسان وأخيه الإنسان، فأرصدوا عليه الجواسيس باسم المخابرات، وقتلوا الآمنين بحجة الحفاظ على الأمن، حتى أنهم حوّلوه إلى آلة صمّاء يسيّرونها كيفما أرادوا من أجل منافعهم وخدمتهم.

سيد الشهداء في موقفه البطولي المثالي يقول لهذا الإنسان المستضعف المظلوم: أرفض القيد وحطّمه، وارفع صوتك مجلجلاً في وجه الحكّام الطغاة حتى تدكّ عروشهم.

يقول الإمام الحسين لكلّ المستضعفين في الأرض: أعلنوها غضبة حسينية تحرق الظالمين وتمحق الظلم، أعلنوها صرخة مدويّة عارمة، ولتكن دماؤكم شلالاً هادراً يعيد للأحرار كرامتهم، ولتكن أجسادكم معبراً للمناضلين من أجل الحرية الإنسانية التي كرمها الله رب العالمين.

إن صوتك يا سيد الشهداء ويا إمام الشاهدين والشاهدية تحوّل في نفوس الأحرار لحناً يردّده كل الشرفاء الأحرار الذين رفضوا الذل والهوان، واعتنقوا رسالتك، وعشقوا مسيرتك، وساروا على نهجك.

فكنت المعلّم الهادي، والمرشد المستنير بنور الله، وكنت الإمام الذي فتح فتحاً مبيناً، وهدى هدياً سليماً، وخطّط مخطّطاً مستقيماً، فعلى خطاك سار الحسينيّون الشرفاء، وعلى نهجك خطا الشهداء الأبرار،ومن تعاليمك نهل الشرفاء الأحرار، المؤمنون برسالة جدك محمد بن عبدالله، الذي تتوهّج روحه في سماء الله.

كلّهم ينشدون اسمك الكريم وكأنهم في معارج ابتهال وصلاة!!!

أطلق الإمام الحسين شعار «قتال السلطان الجائر واجب على كل مسلم» يقول (ع) للمسلمين ـ في زمانه وفي سائر الأزمنة ـ أن السلطان الذي يتولّى الحكم يجب أن يتحلّى بالعفّة والنزاهة والطهارة لأن بيده الحفاظ على الدستور ـ الشريعة ـ المتمثّلة بالكتاب والسنّة، وعليه أن يقوم بتنفيذ الحكم الإسلامي العادل.

أما الحاكم الجائر الذي يخالف كتاب الله وسُنّة نبيّه ويظهر الفساد، ويعطّل الحدود، ويستأثر بالفيء، ويحلّل الحرام، ويحرّم الحلال، فعندها يجب على كل فرد يحمل الهويّة الإسلامية الرافضة للظلم والجور أن ينهض لضرب اليد الظالمة ومحاسبة الطاغية الخائن، لتضعه الأمة أمام القانون وتحاسبه على جميع تصرفاته وانحرافاته، وتحاكمه وتقتصّ منه.

هكذا يعلّمنا أبو الفداء وسيد الشهداء، وهكذا يعلّم الأمة الإسلامية في كل مصر وعصر.

يعلّم الأحرار المستضعفين ليصرخوا في وجه الظالمين المستكبرين وليضربوا على أيدي الطغاة الجائرين، وإلاّ فهم وإياهم شركاء في تحمّل الجريمة المفجعة، جريمة التعدّي على شريعة الله، ذلك أن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

إن طاعة ولاة الأمور واجبة إذا توفرت فيهم الشروط الإسلامية التي نصّ عليها الإسلام في أحكامه العادلة، فالخليفة الذي رشحته كفاءته العلمية والأخلاقية والفقهيّة لقيادة الأمة، وأهلته مواصفاته الشخصية الكاملة لتولّي زمام الأمور، هو الذي يتقيّد به المسلم ويقدّره ويطيعه، أما الذي ينحرف عن جادّة الإسلام، ويكيد للمسلمين، فينكث عهد الله، ويعطّل الحدود، فيحلّ قتاله، بل يجب من الوجهة الشرعيّة إزاحته عن كرسي الحكم وتولّي السلطة.

ومن نتائج الثورة الحسينية:

١ ـ بثّ القوّة الخيّرة في التغيير النضالي وبعث الروح النضالية، في الأمة الإسلامية.

لقد أحيت ثورة الحسين الروح النضالية في الإنسان المسلم، وحطّمت كل حاجز نفسي واجتماعي يقف في وجهه من تلك الحواجز التي أشرنا إليها قبل قليل ـ تحطيم الإطار الديني الذي أحاط به الأمويون حكمهم الفاسد المنحرف عن الخط الرسالي الصحيح ـ فجاءت ثورة الحسين لتقول للإنسان المسلم: حافظ على منزلتك الاجتماعية، ولا تساوم على دينك، ولا تبع إنسانيّتك وكرامتك، ولا تستسلم للطغاة الجائرين، ناضل قوى الشرّ والفساد بكل ما أعطاك الله من قوّة، وضحّي بكل شيء في سبيل الحفاظ على المبادىء الحسينية، المبادىء النبويّة، المبادىء الرسالية الإلّهية.

جاءت الثورة الحسينية وأعدّت الناس إعداداً كاملا للثورة بما بعثت في نفوسهم من روح نضالية، ولا ريب أن لهذه الروح شأناً خطيراً وهامّاً في حياة الشعوب المتحرّرة، وفي تغيير المجتمع الإنساني إلى مجتمع ترفل في رحابه الحياة المطمئنّة الهادئة، والحضارة الإنسانية السعيدة إن صمود الروح النضالية

يثير في نفوس الحكّام الطغاة حب التسلّط على الشعب الذي تستشري فيه روح الخنوع والتواكل فيرضى بالقعود دون النضال والكفاح، ولم يعد يُرجىٰ منه القيام بمحاولة جدّية لتطوير واقعه، وكبح جماح الظلم والجور عن كاهله.

لذلك وجدنا الإمام علي بن أبي طالب (ع) حريصاً على وجود هذه الروح النضالية واستمرارها حيّة نامية في نفوس الشعب لتبقى عنده القدرة على الثورة حين تسمح الظروف لقيامها، يشهد على ذلك الكلمة التي قالها (ع) وهو على فراش الموت بشأن الخوارج:

«لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[1].

ومفاد هذا القول أن الخوارج كانوا قد تمرّدوا على الحكم الذي يتجاوب مع مصالح الأمة الإسلامية العليا، وأفكارهم كانت سخيفة وباطلة لذلك حاربهم الإمام علي (ع)، ولكن هذا لم يغيّر موقفهم من الحكم الأموي حيث كانوا يرونه حكماً خاطئاً منحرفاً. وظلّوا شوكة في جنب الحكم الأموي طوال مدّة حكمه.

ويظهر واضحاً مدى تأثير ثورة الحسين في بعث روح الثورة في المجتمع الإسلامي الذي أخلد للسكينة مدّة عشرين عاماً لم يقم خلالها بأي تمرّد على الرغم من توفّر دواعي الثورة خلال هذه الأعوام الطوال.

فمَنذ مقتل أمير المؤمنين علي (ع) إلى حين قيام الثورة الحسينية لم يقم في ذلك المجتمع أي احتجاج أو تمرّد جدّي جماعي على ألوان الاضطهاد والتقتيل والتجويع ونهب أموال الأمة التي مارسها الحكام الأمويون وأعوانهم، بل كان موقف الجماعة المستفيدين من الحكم إيجاد المبرّرات الدينية والسياسية للمخالفات الأموية. والتاريخ يعيد نفسه، حيث نشاهد اليوم الجماعات المستفيدين من استمرار الحرب اللبنانية منذ أربعة عشر عاماً ونيف، وكلما لمع بريق أمل أو حل في الأفق عمدوا إلى تعكير الجو حتى

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٣٣ وهو في قوله هذا يعرض بمعاوية بن أبي سفيان.

تستمر الحرب وتستمر التجارة والربح لجيوبهم ومصالحهم الشخصية.

عشرون عاماً مرّت على المجتمع الأموي، من سنة أربعين إلى سنة ستين للهجرة، وموقف الكثرة الغالبة من الجماهير الخضوع والتسليم، أما القسم الباقي من الشعب المؤمن الذي يعرف الحق ويعرف أصحابه كان يترقّب زعيماً ثورياً عظيماً يقودهم إلى النضال والكفاح ضد الحكم الأموي الظالم والمنحرف.

نذكر أن التمرّد الوحيد الذي كان يصادفه الأمويون طيلة العشرين عاماً الطويلة، وعلى فترات متعاقبة، هو تمرّد الخوارج، علماً أن هذا التمرّد لم يكن متجاوباً مع المجتمع الإسلامي، لذلك لم يكتب له النجاح.

لكن ما حدث بعد الثورة الحسينية كان شيئاً آخر، كان تمرّداً يحظى بعطف المجتمع الإسلامي كله، لأنه كان ينبع من واقع المجتمع: من الظلم، والاضطهاد، والإرهاب، والتجويع، والتشريد، والتقتيل.

ولم يتمكن بعدها الحكام الأمويون من قمع هذه الثورات بجيوش وأعوان لهم من واقع المجتمع، لقد كانوا يعرفون أن ثمّة تجاوباً نفسياً بين الثائرين وبين القاعدين عن المشاركة في الثورة، لذلك اضطروا إلى قمع التمرّد وإطفاء لهيب الثورات بجيوش أجنبية عن مناطق الثائرين، فجلبوا جيوشاً شاميّة وأقرّوا حاميات دائمة في مراكز الحكم.

هذه صورة موجزة عن وضع المجتمع الإسلامي بعد ثورة الإمام الحسين (ع)، وهذا ما أحدثته الثورة الحسينية من تأثير واضح في هزّ كيان الأمة الإسلامية وتغيير الواقع المرير في المجتمع الأموي آنذاك.

٢ ـ الثورة الحسينية قوة هائلة لتفجير ثورات عديدة.

بثت ثورة الحسين عليه السلام الروح الثورية في الشعب المسلم، فقضت بذلك على روح التواكل والخنوع والتسليم للحاكمين الظالمين، فقد جعلت من الجماهير المسلمة قوة معبّأة على أهبة الإنفجار في أي وقت مناسب.

ولقد استمرت هذه الثورات طيلة الحكم الأموي حتى قضت عليه بثورة

العباسيين التي استمدّت قوتها من إيحاءات الثورة الكربلائية.

صدرت هذه الثورات عن وعي تام للواقع وإحساس عميق بانحرافه المشين وانحطاطه وقسوته.

وسوف نذكر أهم هذه الثورات التي أخرجت الناس من الذل إلى العزّ وقضت على روح التواكل والخنوع للحكام الظالمين:

أ ـ ثورة التوّابين:

حركة التوابين كانت أول رد فعل مباشر بعد مقتل الإمام الحسين في مدينة الكوفة، وقد انبعثت عن شعور بالإثم والندم، والرغبة الجامحة في التفكير في مستقبل الأمة الإسلامية، والتكفير عن الخطايا لتقاعسهم عن نصرة سيد الشهداء ابن بنت رسول الله.

قُتِلَ الإمام الحسين، ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة، عندها وبعد فوات الأوان أحس الشيعة بالندم الشديد فرأوا أنهم أخطأوا خطأً كبيراً بعدم نصرة الحسين وتركهم إجابته، فقد قتل إلى جانبهم بعد أن أرسلوا الكتب العديدة إليه كي يأتي إلى الكوفة ويخلصهم من جور حكام الأمويين الظالمين المنحرفين.

فاجتمعوا وقرروا أنه لا يمكن غسل العار عنهم وتكفير الإثم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه، ففزعوا بالكوفة إلى خمسة من رؤوس الشيعة المعروفين وأعيان قومهم وهم: سليمان الخزاعي، والمسيب الفزاري، وعبدالله التميمي، ورفاعة البجلي، وعبدالله الأزدي، فاجتمعوا وبدأ المسيب بالكلام فقال:

«... كنا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا حتى بلا الله خيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبينا (ص). وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا

عنه بألسنتنا، ولا قويّناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربنا وعند لقاء نبيّنا... ولا والله لا عذر دون أن تَقْتلوا قاتليه والموالين إليه، أو تُقْتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك...»[(1)].

وتكلم بعد المسيب سليمان الخزاعي، زعيم التوابين، فقال:

«إنّا كنّا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبيّنا، ونمنّيهم النصر، ونحثّهم على القدوم، فلما قدموا ونينا وعجزنا، وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولد نبيّنا وسلالته، وبضعة من لحمه ودمه... ألا انهضوا، فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، وما أظنّه راضياً حتى تناجزوا من قتله أو تبيروا.

ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ إلا ذلّ، كونوا كالأول من بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيهم: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم...».

وبدأ سليمان بالتحرك السريع فكتب إلى سعد بن حذيفة ومن معه من الشيعة بالمدائن فأجابوه إلى دعوته، وكتب إلى المثنّى العبدي في البصرة والشيعة هناك فأجابوه كذلك.

وكان أول ما ابتدأوا به أمرَهم بعد قتل الحسين (ع) سنة إحدى وستين للهجرة، وما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس في السر إلى الثأر من قتلة الحسين والطلب بدمه، فكان يجيبهم النفر بعد النفر، والقوم بعد القوم من الشيعة وغير الشيعة.

وفي ذلك الوقت مات يزيد ولحق بأبيه وجده فخرجت طائفة منهم يدعون الناس، فاستجاب لهم بعد هلاك يزيد الكثير من الناس، فخرجوا يشترون السلاح في العلانية ويجاهرون بجهازهم.

حتى كانت سنة خمس وستين في ليلة الجمعة لخمس مضين من شهر

---

(1) راجع الطبري ج ٤ ص ٤٢٦ (ثورة التوابين).

ربيع الثاني توجّهوا جميعهم إلى قبر الحسين (ع)، ولمّا وصلوا إليه صاحوا صيحة واحدة وكلّهم يبكون أشد البكاء فنادوا:

«يا رب، إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».

وغادروا القبر مستقلّين، فقاتلوا جيوش الأمويين حتى أبيدوا جميعاً[1] .

والمتهم الرئيس في نظر التوابين هو النظام وليس الأشخاص، وكانوا مصيبين في اعتقادهم، ولذا وجدناهم يتجهون إلى الشام ولم يلقوا بالاً إلى من في الكوفة من قتلة سيد الشهداء الإمام الحسين (ع).

هذه الثورة انبعثت عن الشعور بالإثم والندم، فأخطأوا وندموا وتابو عسى الله أن يغفر لهم، ومن يقرأ خطبهم وكتبهم يلمس فيها هذا الشعور العميق بالإثم والندم.

وانطلاقاً من هذا الشعور، تحرّك الثوار التوّابون يريدون الانتقام وليس لهم هدف آخر، لا يريدون نصراً ولا غنيمة ولا ملكاً ولا مغانم، بل خرجوا من ديارهم وهم على مثل اليقين بأنهم لا يرجعون إليها، «كانوا يريدون أن يموتوا، ولقد بذل لهم الأمان فلم يقبلوا»[2] .

وما يلاحظ أنه لم يكن لهذه الثورة أهداف اجتماعية واضحة ومحددة بل كان الهدف الواضح منها الانتقام والتكفير.

وقد رأينا في ما مرّ معنا عن الطبري أن الاستجابة للثورة لم تقتصر على الشيعة وحدهم، بل شاركهم فيها غيرهم من المظلومين والمحرومين ممّن كانوا يأملون تغيير الأوضاع عن طريق إزالة الكابوس الأموي.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٩ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ص ٤٦٩.

وكون هذه الثورة انتقامية انتحارية لا هدف للقائمين بها إلا الانتقام والموت في سبيله يفسر لنا قلّة عدد المستجيبين لها إلى النهاية، جاء عن الطبري على لسان سليمان الخزاعي أن ستة عشر ألف رجل لم يخرج معه منهم سوى أربعة آلاف، ولم يستجب للدعوة من المدائن إلا مائة وسبعون رجلاً، ومن البصرة إلا ثلاثمائة رجل[1].

فالعمل الانتحاري من أجل نصرة الحق وإزالة الجور والظلم لا يستهوى إلا أفراداً على مستوى عالٍ من التضحية والاعتقاد الراسخ والتمسك بالمبادىء الحقّة، وهؤلاء وإن كانوا قلّة في كل زمان فهم مصابيح منيرة، فهم بين كواكب الإسلام عبرة، وللمتأملين فيهم فكرة وللمواقف منهم حضارة.

وعندهم ستزيد أعيننا دهشة، وتفيض قلوبنا نبضاً مدوّياً موصولاً، وإذ بنا على شفة الموت وجفن الحياة، وبينهما مشرف الشاهدية، وهذه باعتقادنا فوق الحياة والموت لأنها إنهمار على بحر الله العزيز الحكيم، الذي يأبى للمسلمين المؤمنين الذلّ والهوان ويطلب لهم العزّة والكرامة.

ولكن وإن لم يكن لثورة التوابين الانتحارية أهداف اجتماعية واضحة إلا أنها فاعلة جداً من حيث تأثيرها العميق في مجتمع الكوفة، فقد عبّأت خطب قادة هذه الثورة وشعاراتهم عامّة جماهير الكوفة للثورة والتمرّد على الحكم الأموي.

لذلك وجدنا أنه لم يكد يبلغهم خبر هلاك يزيد حتى ثاروا على العامل الأموي عمرو بن حريث فأخرجوه من قصر الإمارة واصطلحوا على عامر بن مسعود الذي بايع لابن الزبير[2].

فكان ذلك مطلع عهد جديد زال فيه سلطان الأمويين عن العراق.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦٦.

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٠٤.

ب ـ ثورة المدينة المنورة:

تختلف ثورة المدينة عن ثورة التوّابين اختلافاً واضحاً، وذلك من حيث الدوافع والأهداف، فلم تكن تستهدف الانتقام فقط، بل عملت بكل إمكاناتها على تقويض الحكم الأموي الظالم والمنحرف عن الخط الرسالي الذي خطه رسول الله (ص) واستشهد من أجله حفيده سيد الشهداء الإمام الحسين (ع).

منذ مقتل الحسين ونار هذه الثورة تتأجّج في صدور الحسينيين المؤمنين والذي كان يلهب هذه النار ويسعى لتفجيرها في أي وقت السيدة زينب شقيقة الإمام الحسين عليهما السلام.

فمنذ وصولها إلى المدينة دأبت على تعبئة النفوس وتأليب الناس على حكم يزيد، حتى أنّ واليه على المدينة عمرو بن سعيد الأشدق خاف على نفسه من نقمة الحسينيين فكتب إلى يزيد يخبره بما حصل قال في الكتاب:

«إن وجودها بين أهل المدينة مهيّج للخواطر، وأنها فصيحة، عاقلة، لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين».

فماذا كان الرد من يزيد؟ قال له: فرق بينها وبين الناس[1]

والسبب المباشر لاشتعال الثورة هو أن والي المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان قد أوفد وفداً من أهلها إلى يزيد، من هذا الوفد: عبدالله بن حنظلة الأنصاري، وعبدالله بن أبي عمرو بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، ورجالاً من أشراف أهل المدينة دخلوا على يزيد فأكرمهم وأعظم جوائزهم لكي يكسب عطفهم ويستميلهم إليه بالمال، ولما رجعوا قدموا المدينة جميعهم ما عدا المنذر بن الزبير، فإنه قدم العراق، ولما وصل هؤلاء المدينة أظهروا عيب يزيد وشتموه وقالوا للناس مجاهرين:

قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير،

---

(١) راجع بطلة كربلاء للدكتورة بنت الشاطىء.

ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخرّاب (اللصوص)، وإنا نشهدكم أنّا قد خلعناه.

وقام عبدالله بن حنظلة فقال:

«جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بنيَّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلت عطاءه إلا لأتقوّى به».

وبعدما سمع الناس ما سمعوا عن استهتار يزيد ومجونه خلعوا يزيد وبايعوا عبدالله بن حنظلة وولّوه عليهم.

وأما المنذر بن الزبير، فقدم المدينة وكان ممّن يحرّض الناس على خلع يزيد بعد أن اعترف أنه أجازه بمبالغ طائلة ليقطع لسانه.

قال المنذر: «إنه قد أحازني بمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه: والله أنه ليشرب الخمر، والله أنه ليسكر حتى يدع الصلاة».

وبعد أن سمع أهل المدينة هذه الأخبار وأمثالها من رجال صدق وثقة وإيمان ثاروا على الحكم الأموي، وطرد الثائرون عامل يزيد ومن لفّ لفّه من الأمويين، ولم ينفع المال والوعود ولا التهديد والوعيد عن القيام بثورتهم، ولكن يزيد كان لهم بالمرصاد فسرعان ما أرسل جيشاً من الشام، عاصمة الأمويين، وقمع ثورة المدينة بوحشية متناهية، ومن ثم دعىٰ القائد الأموي مسلم بن عقبة المري الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء[1].

وبعد أن فرغ الجيش الأموي من قمع ثورة المدينة باشر بقمع ثورة ابن الزبير في مكة.

ولكن ابن الزبير كانت له أطماعه الشخصية في الحكم، وكان يرى في الحسين منافساً خطيراً له، وبذلك لا يمكن اعتبار ثورة ابن الزبير امتداداً لثورة

---

(١) راجع الطبري «ثورة المدينة» ج ٤ ص ٣٦٦.

الحسين ولا ريب أن استجابة الناس للثورة التي قام بها كان مبعثها تلك الروح الجديدة التي بثتها ثورة الحسين الدامية في نفوس الجماهير.

والآن جاء دور المختار الثقفي في العراق ليطالب بثأر الحسين (ع).

ج ـ ثورة المختار الثقفي:

هو المختار بن أبي عبيدة الثقفي، ثار بالعراق مطالباً بثأر الإمام الحسين وكان ذلك سنة ست وستين للهجرة.

وقد استجاب الناس للمختار وانقلبوا على ابن الزبير لسبب جوهري وهو أنَّ المجتمع في العراق آنذاك كان يطلب إصلاحاً اجتماعياً، ويطلب الثأر من الأمويين، فاستجاب لابن الزبير علّه يحقّق آمالهم في الإصلاح الاجتماعي والانتقام من الحكم الأموي، ولكنّه قد خيّب ظنّهم، ولم يكن سلطانه خيراً من سلطان الأمويين، حيث قرّب قتلة الإمام الحسين وأبقاهم سادة في ظل سلطانه كما كانوا سادة في ظل حكم يزيد، ولم يحقّق العدل الاجتماعي الذي كانوا يطلبونه.

أما المختار فقد سار على سيرة الإمام علي بن أبي طالب التي كانوا يحنّون إليها لأنها حقّقت لهم أقصى ما يمكن من الرفاه والعدل، وهذا ما جعل الناس الثائرين ينقلبون على ابن الزبير ويستجيبون لدعوة المختار.

ومما زاد في تكتل الناس حول المختار هو أنه قد أنصف طبقة كانت مضطهدة في المجتمع الأموي، تلك هي طبقة الموالي، وهم من «المسلمين غير العرب» فقد كانت عليهم واجبات المسلمين ولم تكن لهم حقوقهم أثناء الحكم الأموي، ولمّا استتبّ الأمر للمختار أنصفهم تماماً وجعل لهم من الحقوق مثل ما لغيرهم من المسلمين عامة.

وقد أثار هذا العمل سادة القبائل والأشراف فتكتّلوا ضد المختار وتآمروا عليه، وأجمعوا على مقاومته، وكان على رأس هؤلاء المتمرّدين الخائنين قتلة

الإمام الحسين، ولكنّهم فشلوا في حركتهم[1].

وحركة التمرّد هذه التي قادها قتلة الحسين، كانت حافزاً للمختار على التعجيل بتتبع خصوم سيد الشهداء وآله الكرام في كربلاء، فقد قتل منهم في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً[2]، ثم تتبّعهم فقتل منهم جمعاً كثيراً ولم يفلت من زعمائهم أحد كابن ذي الجوشن وابن ذي سعد وابن الحجاج وابن ربعي وغيرهم[3].

وتوالت الثورات والانتفاضات والتمرّد على الحكم الأموي الجائر والمنحرف.

ففي سنة ٧٧ للهجرة ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج بن يوسف، وخلع عبد الملك بن مروان.

ومطرف كان والياً للحجاج على المدائن ولكنّه كان صاحب ضمير حي لم يجرِ وراء المال والجاه والمناصب، ولم تعمِ عينيه عن رؤية الحق الإعطيات التي منّاه بها الأمويون، وقد كلم أعيان قومه فقال:

«أما بعد. فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال فيما أنزل علينا: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

وإني أشهد الله أني خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، فمن أحب منكم صحبتي، وكان على مثل رأيي فليتابعني، فإن له الأسوة وحسن الصحبة، ومن أبى فليذهب حيث شاء، فإني لست أحب أن يتبعني من ليست له نيّة في جهاد أهل الجور.

أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٥١٧.
(٢) الطبري ج ٤ ص ٥١٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٤ وهم: شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد، وعمرو بن الحجاج، وشبث بن ربعي.

أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبّوا»[1] .

وفي سنة ٨١ للهجرة ثار عبد الرحمن الأشعث على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان، وسبب هذه الثورة هو الفتوح الاستعمارية التي أدرك الشعب المؤمن أنها ليست في مصلحته.

وقد استجاب الناس لنداء عبد الرحمان، وتمكن وأنصاره من خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق.

ولمّا بلغ البصرة بايعه جميع أهلها وقرّائها وشيوخها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام وخلع عبد الملك بن مروان.

وقد استمرّت ثورة ابن الأشعث هذه من سنة ٨١ هـ إلى سنة ٨٣ هـ وأحرزت انتصارات عسكرية وقضت على الحجاج بجيوشه الشاميّة[2] .

هذه هي ثورة عبد الرحمان بن الأشعث، وهي ثورة قام بها العرب دون الموالي، العرب العراقيون الذين استخدموا في الفتوح الاستعمارية دون أن يحصلوا على غنائمها، بينما كان يفوز بالغنائم والإعطيات الجنود الشاميّون الذين تركهم الحجاج في العراق ليستعين بهم على قمع الثورات التي يقوم بها العراقيون.

وفي سنة ١٢١ هـ كانت:

د ـ ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع):

انطلقت ثورة زيد من الكوفة سنة ١٢٢ هـ، وكانت شعارات الثائرين:

«يا أهل الكوفة أخرجوا من الذلّ إلى العزّ، وإلى الدين والدنيا»[3] .

وقد لقيت هذه الثورة استجابة واسعة من الجماهير المسلمة في أقطار

---

(١) الطبري (ثورة مطرف).
(٢) الطبري «ثورة ابن الأشعث».
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٣٩.

كثيرة من بلاد الإسلام، فقد بويع على الثورة في الكوفة نفسها، ثم تلاها: البصرة، والموصل، وواسط، وخراسان، والري، وجرجان.

ولقد كان حرياً بثورته أن تنجح لولا اختلال التوقيت، فقد حدث ما دفع زيداً إلى إعلان الثورة قبل الموعد الذي بينه وبين الأمصار، فخنقت الثورة في مهدها.

وسبب آخر وهو وجود الجيش الأموي الشامي الذي كان مرابطاً في العراق[1].

وقد تكوّن بفضل هذه الثورة جهاز ثوري دائم، هو على أتم الاستعداد للمساهمة في كل عمل ثوري ضد السلطة وهم فرقة الزيدية التي ترى أن الإمام المفترض الطاعة هو كل قائم بالسيف ذوداً عن الدين ضدّ كل الحكام الظالمين.

وقد كانت نهاية زيد نهاية مفجعة، ولكنها أثرت تأثيراً بيّناً فيما نجم عنها من ثورات متتالية أدت إلى انهيار دولة الشام انهياراً نهائياً.

وهذا ما يُظهر بوضوح تأثير ثورة الحسين (ع) في تغذية الروح الثورية في نفوس الجماهير المؤمنة بالرسالة النبوية، وما ثورة زيد إلا قبس من ثورة جده في كربلاء.

هذه النماذج الرائعة من الروح الثورية بثّتها ثورة الحسين في الجماهير المسلمة المؤمنة، فقضت بذلك على روح التواكل والخنوع والذل والتسليم للحاكمين الظالمين، فقدّمت الشهداء الحسينيين بدمائهم الزكية ونفوسهم الأبيّة من أجل إحقاق الحق وتثبيت شريعة الله سليمة خالصة كما أرادها الرسول الأعظم رسول الإسلام والسلام محمد بن عبدالله (ص).

وقد استمرّت هذه الثورات طيلة الحكم الأموي تنتقده وتقاومه وتتمرّد ضد ظلمه وطغيانه، ذلك أن مقاومة الحاكم الظالم واجب شرعي.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٥.

وكان من نتائجها أن قضت على الحكم الأموي بثورة العباسيين، هذه الثورة التي لم تكن لتنجح لو لم تعتمد على إيحاءات الثورة الكربلائية الحسينية، وعلى منزلة الثائرين الحسينيين عند المسلمين.

ولكن وإن لم تنتصر هذه الثورة على تغيير واقع الشعب المسلم فقد انتصرت في تغيير وجوه الحاكمين، وحفظت للشعب إيمانه بنفسه وبشخصيّته، وبحقّه في الحياة والسيادة، وفي نظرنا إن هذا الاّ نصر عظيم.

إن أخطر ما يُبتلىٰ به شعب من الشعوب هو أن يُقضىٰ على الروح النضالية في نفوس أبنائه، فسرعان ما يذوب في خضم المجاهدين، وتذوب شخصيته، ويفقد وجوده المعنوي.

إن كل شعب مؤمن برسالته ومقوماته ومبادئه وعقيدته يشق لنفسه طريقاً جديداً في التاريخ لأن روح النضال بقيت حية في نفوس أبنائه، وهذا ما حققته ثورة الإمام الحسين المباركة.

لقد أشعلت في نفوس المؤمنين تلك الروح الحية المجاهدة، الروح التي استمدّت قوّتها من روح الله فبقيت عالية، عزيزة، حيّة، مستمرّة، تعبّر عن نفسها دائماً في انفجارات ثورية، وعواصف عنيفة ضد الحاكمين الظالمين.

وإن فشلت هذه الثورات التي مرّ ذكرها في تحقيق الهدف المطلوب فإنها نجحت إلى حدّ بعيد في إبقاء الروح النضالية التي تدفع الشعب المسلم المؤمن إلى التمرّد على كل ظلم أو هوان، ليصرخ في وجه الطغاة قائلاً بقلب عامر بالإيمان: نحن لكم بالمرصاد، وسوف نزلزل عروشكم ولو بعد حين.

واليوم تعدّدت وسائل إخضاع الشعوب المستضعفة وحيكت لها المؤمرات المختلفة مرّة من الخارج وأخرى من الداخل، كل ذلك من أجل إبتزازه وسلب خيراته، ومع ذلك لم تنجح وسائل القمع الحديثة، ولم يستكن الشعب، ولم يضعف، وإنما بقي ثائراً معبّراً عن شخصيّته وإنسانيته بالثورة بالدم الزكي الطاهر، والجهاد المقدس، والتضحية بأغلى ما يملك من قوّة.

هذا صنيع الثورة الحسينية، وهذا ما أحدثته هذه الثورة المباركة في

إذكاء الحرية في التطور الحضاري والرقيّ الإنساني.

الثورة الحسينية نبّهت الأفكار والمشاعر، ونمّت الروح النضالية في الثورات التي جاءت بعدها، والتي صنعت تاريخ الكفاح الدامي من أجل التحرر، والنضال، والكفاح، والجهاد المبارك المشروع.

وما نستفيده في مرحلتنا الثورية الراهنة هو أن نجعل لتاريخنا صلة وثيقة بحياة الإنسان ومطامحه الإنسانية الخيرة، وأن نعدّه ليكون متفاعلاً ومتكاملاً مع الأحداث الثورية البنّاءة سيّما مع الجانب الاجتماعي من الحياة الإسلامية.

والغاية من ذلك هو الإسهام في تكوين شخصية إنسانية سويّة تسهم في إثارة الحماس الخلّاق تارة، وتنمية الروح النضالية في نفوس الناس تارة أخرى، ليكون الجميع على أهبة الاستعداد للدفاع عن كرامتهم، والذود عن رسالتهم حينما تتعرّض للانحراف عن الخط الرسالي الصحيح.

إن أمتنا الإسلامية تمرّ اليوم في أدق وأخطر مرحلة من مراحل كفاحها عبر العصور، ولقد حقّقت انتصارات باهرة سجّلها التاريخ عبرة جليلة ونبيلة للأجيال اللاحقة، فيجب أن تحافظ عليها، وتعمل في الوقت نفسه على تحقيق انتصارات جديدة، ففي كل عصر حكام طغاة ظالمون، وفي كل عصر مجاهدون مؤمنون، هم لهم بالمرصاد.

إن ثورات الأمم هي التي تمثّل روحها وإيمانها، وإنّ تاريخ الثورات هو التاريخ الصحيح للشعوب المجاهدة.

ففي التاريخ نجد المحور الأساس لشخصيّتها العقائدية والنضالية، المحور الذي يمنعها من الزيغ والانحراف، ويعصمها من النكول والتهاون.

وتاريخ أمتنا النضالي تاريخ مضيء، فالثورات التي قامت بها الأمة الإسلامية عبر العصور كانت تعبّر تعبيراً فطرياً حرّاً عن وجدان هذه الأمة، وعن إنسانيّتها، وعن رغبتها الحارة في الحياة الحرّة الكريمة.

وتأتي الثورة الحسينية في كربلاء قبساً هادياً، ومشعلاً مضيئاً على رأس هذا التاريخ، هي الثورة الإنسانية الأولى التي دفعت الناس المستضعفين في

طريق النضال بعد أن كادت تخبت في نفوسهم جذوة النضال بفعل سياسة الأمويين.

والثورة الحسينية هي أغنى ثورة بالعزم والتصميم على المضي في الطريق الدامي الطويل إلى نهايته، فإما النصر وإما الشهادة.

هي ثورة أُمتحِنَ أبطالها بأقسى امتحان، فلم يهنوا ولم يضعفوا، بل ثبتوا كالطود الراسخ، لا تؤثّر فيه الرياح العاتية، ظلّوا ثائرين ضد الحكام الظالمين حتى سقوطهم صرعى في سبيل مبدئهم الحق.

هي أنبل ثورة قام بها ثوار حسينيون لم يستهدفوا من ثورتهم مغنماً شخصياً، وإنما استهدفوا تحرير مجتمعهم من الحكام الطغاة الذين يسومون الناس العذاب والجور والظلم والاضطهاد، من هنا تأتي أهميتها التاريخية الإنسانية، فهي النموذج المحتذى، النموذج الذي جاء كاملاً ليستوحي منه كل المجاهدين الثائرين على الظلم عبر العصور.

ومن هنا وجب على الكُتّاب في عصرنا أن يشرحوا الدور الهام الذي أسهمت به الثورة الحسينية في تغذية الروح النضالية، والكشف عن أخلاقيّتها وإحلالها محلها اللائق بها في تأريخنا الثوري العظيم.

الاختراق السياسي للمشروع الثوري الحسيني

توفي معاوية[1] بعد أن اطمأن بوراثة الخلافة لابنه يزيد، لكنه أورثه معها ميراثاً ثقيلاً من المعضلات السياسية والاجتماعية التي أخفق مؤسس الدولة الأموية في وضع حلول جذرية لها.

فكان يكتفي بتطويق الأحداث الحاصلة معتمداً على شخصيّته الشديدة والمرنة في آن معاً، وعلى الجهاز القوي الذي أحاط به من عيون تراقب بحذر، وآذان تسمع بشغف، تفيد الحاكم سياسياً وتستفيد منه ماديّاً.

والمشكلة الأساس التي ابتلي بها المسلمون بعد وفاة الرسول (ص) هي مشكلة الخلافة، التي كان الكثير يتحيّن لها الفرص المناسبة.

ففي مكة احتج عدد من أبناء الصحابة الكبار، وكرّسوا عدم اعترافهم بشرعيّة الأمر الواقع.

وفي المدينة غليان مكبوت، ونار تحت الرماد من الأنصار لاستعادة الدور المفقود والأرض السليبة[2].

وفي الكوفة، مركز التشيّع الرئيس حيث قطع شوطاً بعيداً في التكوين والتنظيم، وخاصة بعد مقتل حجر بن عدي الكندي، فالمعارضة اتخذت العصيان العلني والثورة الشعبية بدل الاحتجاج الصامت والرفض الخفي.

هذه التحولات لم تكن بنت ساعتها، فقد بدت ملامحها في وقت سابق،

---

(١) توفي عام ستين للهجرة.
(٢) راجع «الحجاز والدولة الأموية» للدكتور إبراهيم بيضون ص ٣٢٦ يذكر الخلاف الذي وقع قبيل وقعة الحرة بين أهل المدينة والعامل الأموي لاستعادة أراضيهم.

في عهد معاوية، حيث كنا نرى الوفود من شيعة الكوفة يتوجهون إلى المدينة سرّاً، إلى مقر القيادة العلوية، ليناقشوا الوضع السياسي، والبحث في القيام بثورة تجاه الحيف والظلم الأموي.

فسليمان بن صرد الخزاعي الذي رفض صلح الحسن (ع) مع معاوية، حسب رواية الإمامة والسياسة، كان أول الذاهبين إلى المدينة مخاطباً القيادة باسم أحد الوفود:

«فأعد للحرب جذعة، وأذن لي أشخص إلى الكوفة، فأخرج عنها عاملها، وأظهر خلعه، وأنبذ على السواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين»[١] .

والإمام الحسن (ع) كان يرى بعين البصيرة، فأدرك أن الأسباب التي دفعته إلى التنازل ما زالت قائمة، وأن «دفع الحرب إلى يوم ما»[٢] أمر واقعي تفرضه الظروف آنذاك، وهو موقف سليم فيه الكثير من الرؤية الواضحة والتصرّف الواقعي المتزن.

هذا التريّث في الإقدام على الثورة في عهد معاوية كان من أجل الجماهير التقيّة «بقياً عليها من القتل»[٣] ، جماهير آمنت بقضيّتها ولم تتلوّث بالصراع القبلي الإقليمي الجاهلي، أمثال:

حجر بن عدي، وسليمان بن صرد الخزاعي، والمسيّب بن نجبة الفزاري وغيرهم من شهداء الحركة الشيعية الأوائل في الكوفة.

والإمام الحسين (ع) كان يرى أيضاً بعين أخيه، وبعين أبيه وجده، كان يرى بعين الله، فسلك منهجاً واقعياً، ورأى من مصلحة الأمة الإسلامية أن يتفادى مواجهة غير مجدية مع معاوية، لأنه كانت لديه المسوّغات نفسها في المهادنة، متحالفاً مع الوقت المناسب والفرصة السانحة، نستشف ذلك في معرض ردّه على سليمان بن صرد الخزاعي، الزعيم الكوفي، قال (ع):

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٥١.
(٢) الأخبار الطوال للدنيوري ص ٢٢١.
(٣) المصدر نفسه.

«ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً، فإنها بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم»[1] .

في هذه الهدنة كان الإمام الحسين (ع) دائب العمل في الاتصال مع القيادات الشيعية التي أتيح لها القدوم إلى الحجاز، والتي كان يلتقي معها بطريقةٍ ما خشية الوقوع في فخّ السلطة الراصدة لكل حركة يقوم بها الحسين (ع) من خلال سفرائه المخلصين، وأعوانه الأوفياء للخط الرسالي.

وفي ذلك الوقت مرّت الحركة الشيعية بأخطر أدوارها النضالية مستعيدة تقويم أحوالها السياسية العامة في إطارٍ من السريّة التامة، ولقد استطاع الإمام الحسين (ع) في هذه المرحلة تهيئة الناس عامة في نقمتهم على الحكم الأموي وبيان أخطاء الحكّام الأمويين بأسلوب هادىء رصين.

ولا شك أن مهمة الإمام الحسين (ع) كانت على جانب من الصعوبة حيث كانت أجهزة السلطة الحاكمة مفتّحة عيونها، تراقب بكل حذر اتصالات الزعيم الشيعي الوحيد، المنقذ للبلاد من ظلم الأمويين وطغيانهم[2] .

ولا ننسى العامل الجغرافي الذي كان يزيد الأمور صعوبة في ظل التباعد الواقع بين قواعد الحركة الشيعية في الكوفة وقيادتها العليا في الحجاز، وهذه ثغرة هامة لها تأثيرها الواضح في إخفاق المشروع الثوري الحسيني، بعد التفريغ السكّاني الذي تعرّض له الحجاز منذ حملات الفتوح الأولى، وانتقال مراكز النفوذ إلى الأمصار، إلى الشام، وإلى العراق الخزّان الثوري لأية ثورة شيعية مرتقبة.

وهكذا نرى بوضوح تام أن عزم الحسين (ع) على مغادرة الحجاز لم يكن سوى استجابة لتلك المعطيات التي أوشكت على النضوج وحان موعد انتقالها من السريّة في الخفاء إلى الظهور علانية بعد غياب مؤسس الدولة

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٥٢ وحلساً: ملازمة بيته.
(٢) أعيان الشيعة ٤/القسم الأول كان لمعاوية عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس من كبيرة وصغيرة.

الأموية، ورجل الأمويين القوي، معاوية بن أبي سفيان[1]، من خلال ذلك نرى أن الثورة الحسينية لم تصدر من الحجاز وإنما كانت شبه ناضجة في الكوفة، مقر الحركة الشيعية الرئيس.

وقد ذهب الشيخ محمد مهدي شمس الدين[2] هذا المذهب في وصفه المرحلة التي سبقت الثورة فقال:

«كان رأي الحسين ألا يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبتعدوا عن الشبهات، وهذا يوحي بأن حركة منظمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين، وأنّ دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضنّ بهم الحسن (ع) عن القتل فصالح معاوية، وأن مهمّة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها معاوية، انتظاراً لليوم الموعود».

ثم قال: «وأكبر الظن أن الحسين (ع) لو ثار في عهد معاوية لما استطاع أن يسبغ على ثورته هذا الوهج الساطع الذي خلّدها في ضمائر الناس وقلوبهم والذي ظل يدفعهم عبر القرون الطويلة إلى تمثّل أبطالها، واستيحائهم في أعمال البطولة والفداء»[3].

وحدث ما كان في الحسبان، فقد تسلّم يزيد زمام الحكم عن أبيه معاوية ويعلم كل الناس أحوال يزيد، وشخصيّة يزيد البعيدة كل البعد عن شخصية الحاكم المسلم، «فالرجل لم يكن في موقع يستحق أن تناط به أمور الناس، أينسى عصبيّته القَبليّة»... كان مولعاً باللهو، منصرفاً إلى البطالة، إذ كان يلبّس كلاب الصيد ثياباً فخمة، ويغمرها بالحلي، ويعنى بقرد أسماه «أباقيس» يلبسه الحرير، ويحليه بالجواهر، ويركبه أتاناً ليسابق الجياد، فتأمل قول: «أمير المؤمنين» وما فيها من استهتار بمركز الخلافة[4]!!!.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ج ٣ ص ١٥٠.
(٢) ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية ص ١١٧.
(٣) المصدر السابق ص ١١٩.
(٤) الحسين بن علي للدكتور علي شلق ص ٩٨.

وقال السيد عباس علي الموسوي «الحديث عن يزيد، حديث عن الرذيلة بجميع فصائلها وخصائصها»[1] .

فالفرصة كانت جد مؤاتية أمام الحركة الشيعية في الكوفة لتقوم بمهمّتها المنشودة «حيث بادرت إلى الاتصال بقيادتها في «المدينة» في الوقت نفسه الذي جابهت فيه الأخيرة أولى تحدياتها العلنية، في لقاء الحسين مع الوالي الأموي (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) الذي تلقّى أوامر الخلافة الصارمة بانتزاع بيعة الحسين وآخرين من أبناء الصحابة، ممّن عارضوا مبدأ الوراثة في السلطة وتصدّوا لمعاوية نفسه»[2] .

ولا شك أن الحسين (ع) بما له من نظر ثاقب كان حذراً جداً في تحركاته منذ أن فرضت عليه الإقامة في الحجاز، تحسّباً لأي طارىء، وخشية الوقوع هدفاً سهل المنال أمام الوليد ومروان بن الحكم.

فهو عندما ذهب لمقابلة الوالي في دار الإمارة على رأس مجموعة مسلحة من أنصاره قال معبراً عن موقفه الجديد من السلطة:

«إن مثلي لا يعطي بيعته سراً، ولا أراك تجتزىء منّي سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية»[3] .

والوليد يدرك ما وراء كلمات الحسين من إصرار على الرفض، ولكنه بقي متمادياً معه في الحوار وكأنه يتجاهل نصيحة مروان له: «أحبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه»[4] .

وإثر هذه المقابلة عُزل الوليد تخوّفاً من ضعفه أو تقاعسه حسب الرواية التاريخية.

في هذا الوقت رحل الحسين (ع) إلى مكة ليواجه مسؤولياته التاريخية

---

(١) دروس من ثورة الحسين (ع) ص ٢٣٢.
(٢) اتجاهات المعارضة في الكوفة للدكتور إبراهيم بيضون ص ٣٨.
(٣) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٨٩.
(٤) المصدر نفسه.

ويقوم بدوره المطلوب، وفي هذه المدينة المكرّمة استغرق الإمام في موقفه السياسي يراجع حساباته بدقة وتأمّل، مستوضحاً الصورة للموقف السياسي العام في عهد يزيد، إن في «المدينة» التي التجأ إليها عبدالله بن الزبير ومعه طموحه البعيد وشعوره بالتفوق على يزيد، أم في الكوفة مُركز شيعته ونخبة أنصاره من أبرزهم: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر[1].

وقد قرروا بدء التحرك، وحث ابن مظاهر على موافاتهم إلى الكوفة وتسلّم قيادة الثورة التي اختمرت في النفوس.

وكما نرى أن دعوة الإمام الحسين (ع) جاءت محصّلة لفترة طويلة من المعاناة والنضال المتزامن مع العهد السرّي للمعارضة خلال حكم معاوية وولاته: المغيرة وزياد وابنه عبيد الله.

في هذه المرحلة بدأت الكتب تتوالى على الإمام الحسين في منفاه الطوعي، ومعظمها كان من زعماء القبائل اليمنية التي عرفت بولائها للبيت العلوي منذ حروب صفين.

ويبدو أن بعضهم ألحّ على الحسين بالانتقال إلى العراق استجابة للموقف المبدأي الذي اتخذه من البيعة في المدينة، والتزاماً بالثورة التي نضجت في صدور أهل الكوفة.

ونظراً للرصانة الحسينية المعروفة والحذر الشديد خلال العهد السري للحركة الشيعية، رأى الحسين إيفاد اثنين من أوثق معاونيه إلى العراق بغية التمهيد لانتقاله الذي أصبح أمراً لازماً، أحدهما:

مسلم بن عقيل: الذي اتخذ محور مهمته في الكوفة، وقد اقتصرت على ترتيب انتقال الحسين إليها في الوقت المناسب. وثانيهما:

سليمان بن صرد الخزاعي: وهو من أنصار الحسين ومواليه[2]، وكانت

---

(١) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٩.
(٢) الأخبار الطوال ص ٢٣١.

مهمّته الاتصال بشيعة البصرة، ودعوتهم إلى إحياء معالم الحق، وإماتة البدع[1]، لكن هذا المخطط لم يكتب له النجاح في البصرة كما في الكوفة، فقد أفشى أحد زعماء البصرة الذين اتصل بهم سليمان وهو «المنذر بن جارود» بالخبر إلى عبيد الله بن زياد (صهره)[2].

أما مسلم فقد تيسّر له الوصول إلى الكوفة، وتم نزوله في دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي[3]، الذي ترك جماعته والأسرة الأموية الحاكمة وانضم إلى الحركة الشيعية، حيث نجح في توظيف ميله هذا إلى تحقيق أهداف خاصة له تحت ظل المظلة الشيعية.

وهنا عادت الكوفة إلى واجهة الأحداث السياسية منذ تنازل الإمام الحسن (ع).

ولكن عيون الحكم الأموي كانت ترصد هذا التحرك في التصدّي لمهمة مسلم التي وصلت أخبارها لمسامع الخليفة في دمشق، وكان من نتيجتها أن عزل الوالي الأنصاري النعمان بن بشير، الذي أظهر منذ بداية حكمه شعوراً غير صدامي تجاه التحرك الشيعي، لقد كان شعوراً موسوماً بالاعتدال، جاء في رواية للطبري قوله:

«لا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيها يهلك الرجال، وتسفك الدماء وتغصب الأموال... فإني لا أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا أشاتمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنّة ولا التهمة»[4].

إنه موقف عادل ليس فيه تطرّف وبعيداً عن الانسياق مع المرتزقة المتطرّفين في القبض على المبعوث الحسيني.

---

(١) من أبرز هؤلاء: الأحنف بن قيس، مالك بن مسمع البكري، المنذر بن جارود، ومسعود بن عمرو، قيس بن الهيثم، عمر بن عبدالله بن معمر الكامل ج ٤ ص ٢٣.

(٢) المصدر نفسه ج ٤.

(٣) الطبري ج ٦ ص ١٩٩.

(٤) الطبري ج ٦ ص ١٩٩.

لقد كلف هذا الموقف (النعمان) في عدم الانسياق وراء المتطرفين، فقدان منصبه الذي عهدت به إليه السلطة، فأعطته إلى مغامر جديد من ثقيف هو عبيد الله بن زياد، الذي نفَّذ فوراً إعدام موفد الحسين إلى البصرة، مركز ولايته، قبل ضم إدارة الكوفة إليه.

ولا غرو فالعلاقة قديمة ووثيقة بين أمية وثقيف، فالأخيرة قد التزمت بالدفاع عن النظام الأموي الحاكم «دون ثمة حساب للرموز الإسلامية المنتهكة على يده، سواء كانت بشرية كمقتل الإمام الحسين (ع) في العهد السفياني أو دينية كضرب الكعبة بالمنجنيق في العهد المرواني من الدولة الأموية»[١].

فما كان من يزيد والحالة هذه ـ المعروف بإنفعاله وعدم كفاءته السياسية ـ الاّ أن سارع فوراً إلى عزل والي الكوفة المعتدل واستبداله بوال طاغية، لا يخاف الله، ولا يتورّع من سفك الدماء، فكان أكثر تطرفاً من أبيه. أجهض ابن زياد المؤامرة في البصرة التي حملها المبعوث الحسيني بعد أن أناب عنه أخاه عثمان بن زياد، واصطحب معه بعض شيعتها ممن يخاف تحركه أثناء غيابه[٢].

وصل الكوفة متنكّراً لتضليل أهلها الذين كانوا يترقّبون وصول الحسين (ع)، فقاد الثورة المضادة في المدينة بالاعتماد على عدد من أعوان الحكم الأموي، كان بعضهم قد رافقه من البصرة وآخرون وافوه إلى الكوفة.

ولم يلبث أن أمسك بزمام الأمر بسرعة فائقة مستعيناً بالشرطة والأشراف من بعض القبائل، ومستفيداً من الارتباك الذي أحدثه ظهوره المفاجىء في الكوفة.

فكان من أول مهمّاته تعقّب مسلم بن عقيل عن طريق بعض زعماء الشيعة في المدينة، وسرعان ما اكتشف مكان وجوده صاحب شرطته محمد بن

---

(١) اتجاهات المعارضة في الكوفة للدكتور إبراهيم بيضون ص ٤١.
(٢) الأخبار الطوال ص ٢٣٢ والطبري ج ٦ ص ٢٠٠ والشيعي الذي يخافه هو: شريك بن الأعور الحارثي.

الأشعث[1] ، وذلك بعد انتقاله من دار المختار الثقفي إلى دار هاني بن عروة[2] ، المعروف بمروءته العالية، والتزامه الشيعي، فرفض هاني تسليم ضيفه دون أن يحسب أي حساب للسجن أو حتى للقتل، فقال:

«لو لم أكن إلا واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه»[3] .

وفعلاً لقد مات دونه لأن الوالي الأموي قد أصرّ على تسلّمه معتبراً اختفاء هاني في منزله خيانة كبرى في نظر الوالي الثقفي المتفاني وأسرته في خدمة النظام الأموي، ولذلك جاء قراره بإعدام هاني فوراً.

وفعلاً كانت الصدمة قوية ومفاجئة، أصابت الناس بالذهول بأول شهداء الثورة الحسينية في الكوفة، والمخطط غايته بلا ريب ترويع الناس، وضرب «البيعة» شبه الإجماعية التي انعقدت لمبعوث الحسين (ع) في الكوفة[4] .

ولا يخفى ما لتلك العملية من جرأة قوية جداً تحمل في طيّاتها التحدّي العام لمجتمع يضجّ بالعداوة للحكم الأموي، إلى جانب هذا انتصار علىٰ قبيلة مذحج، القبيلة اليمنيّة الكبيرة لابن عروة الشهيد البطل[5] .

وبعد هذا كلّه كانت الضربة الأليمة الأخرى وهي قتل مسلم بن عقيل التي تمّت في أعقاب ذلك مباشرة في الكوفة، بما يمثّله من نفوذ واستقطاب في الطائفة الشيعية لم يبلغها الشهيد الأول.

وهذا ما يوضّح أن هنالك خطة مدبرة متقنة مضادة للثورة الحسينية قد أعدّها الوالي الثقفي مسخّراً لها كافة أدوات الدولة العسكرية والإعلامية والنفسية، كما يحصل في كل عصر، وكما نشاهد نحن اليوم بأم أعيننا، فضلاً

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٧.
(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٠٣.
(٣) المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٠٦.
(٤) الأخبار الطوال ص ٢٣٨.
(٥) الطبري ج ٦ ص٢٠٢.

عن الإعطيات المالية والهبات التي أغرقت الكثيرين من المرتزقة ومحبي الدنيا والسلطان، روى ابن الأثير:

«خذ ثلاثة آلاف درهم ثم اطلب مسلم وأصحابه والقهم وأعطهم هذاالمال» والقول منسوب لابن زياد إلى أحد مواليه[1].

في هذه المرحلة الحاسمة مرّت الحركة الشيعية في موقف صعب جداً حيث ظهرت فيها بدايات الفرز الجدي الذي انتهى إلىٰ إخراج «شيعة صفين» الكبار المعروفين، المدانين بالتواطؤ والتخاذل.

فكان لا بد من بروز تيار جديد نقي السيرة، أخذ يتقدم إلى الصفوف الإمامية في الحركة الشيعية المجاهدة، وقد كان على اتصال دائم بقيادته التي يؤمن بمبادئها في الحجاز، وفي خلال عشرين عاماً تم التمهيد للثورة الحسينية التي اختمرت في النفوس الشريفة الفاضلة، والفضل في ذلك بلا ريب يعود إلى حسن تصرف الإمام الحسين (ع)، ونظرته الصائبة البعيدة في تأخير «اليوم الموعود».

من جانب آخر، ومن الجانب الأموي الحاكم، كان عبيد الله بن زياد الذي اختص فترة طويلة بملاحقة الثائرين وقمع حركات المعارضة في العراق، لم تغب عنه أحداث الكوفة أبداً، ويبدو أنه قد استوعبها، وامتلك مفاتيحها، وعرف أسرارها، فتأهّب بكل الوسائل التي يملكها لتطويقها في بدايتها.

وهناك أمر آخر لا يقل خطورة عما ذكرنا، وهو تحرك الخوارج الخطير بقيادة ابن أدية التميمي[2]، الذي أحبطه الوالي الثقفي في الصميم بعد مجزرة جماعية لم ينج منها حتى زعيمهم الآنف الذكر، وبذلك قضي على تحرّك الشيعة في الكوفة[3]، نفهم من خلال ذلك أن الدولة الأموية كانت متحسبة لهذا التحرك الشيعي الكوفي ممثّلة بأقوى أدواتها القمعية حينئذ، وفي ذلك تم فرز

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٢٥ والطبري ج ٦ ص ٢٠٣.
(٢) الطبري ج ٦ ص ١٧٤ وما بعدها وهو أبو مرداس بن أدية التميمي.
(٣) الكامل ج ٤ ص ٩٤.

الحركة الشيعية، فأسقطت القيادات المخضرمة التي احتوتها الدولة ومعها الانتماء السطحي للخط الشيعي.

ولا أظن أن قائداً آخر غير عبيد الله بن زياد كان قادراً على أداء المهمة الصعبة التي نفّذها بسرعة ونجاح.

وقد شرح أسباب نجاح هذه الخطة الدكتور إبراهيم بيضون فقال:

«ولعل أحداً من رجالات الإدارة الأموية لم يكن قادراً بالكفاءة نفسها على أداء المهمة الصعبة التي تصدّى لها عبيد الله بن زياد، وتأتي في طليعة العوامل التي حقّقت النجاح لهذه المهمة:

١ ـ التكوين السياسي للوالي الثقفي:

هو متحدّر من أسرة موالية للبيت السفياني منذ عصر «الإيلاف» القرشي، والمنتمي بالفطرة لمدرسة سياسية من أبرز طرائقها العنف دون التحرج من استخدام التصفية الجسدية للعناصر المعارضة.

٢ ـ الضرب بشدّة والإطاحة بالرؤوس الكبيرة بالسرعة نفسها التي دخل بها الوالي الثقفي إلى الكوفة، بغية التأثير على موقفها العام وترويع الجمهور فيها «إعدام هاني بن عروة ومسلم بن عقيل» حيث كان قتل الأخير ـ كونه موفد الحسين وممثّله الشخصي في الكوفة ـ الضربة الأعنف التي تلقّتها الثورة بعد أن توحّدت فيه قيادات المدينة وأسلمت زمامها إليه.

٣ ـ قوة الأمويين الذاتية في الكوفة:

لا سيما وأن هذه الأخيرة كانت دائماً بؤرة المعارضة الأكثر خطورة في العالم الإسلامي.. لم يكن قتل مسلم بن عقيل ـ شهيد الثورة الثاني ـ الذي تم في أعقاب قتل هاني بن عروة يتم بسهولة لو لم تكن خطة مضادة متقنة أعدها الوالي الثقفي.

وقوة القمع المعدّة من السلطة كان يجري تشكيلها من القبائل العراقية الموالية للنظام، والأداة المطواعة في قبضة الولاة، كانت لا تزال منصرفة

بثقلها نحو هذا الدور الأمني بعد انطفاء وهج الدور الجهادي التوسعي الذي مارسته في العهد الراشدي.

٤ ـ القوة المسلحة التي اصطحبها ابن زياد إلى الكوفة:

فقد انتخب من أهل البصرة خمسمائة كانوا على ما يبدو جزءاً من الحامية الأخيرة، ومن المفترض أن هؤلاء قد أمّنوا دخوله الهادىء إلى الكوفة والسيطرة على الوضع فيها بالتنسيق مع حامية المدينة الأموية.

٥ ـ بث الأموال وشراء المواقف:

المواقف غير الثابتة، وكان هذا الأسلوب أحد أبرع الأساليب الأموية التي استخدمت لهذا الغرض منذ الحرب الأهلية في صفين، وثمّة محاولات في هذا السبيل لجأ إليها ابن زياد للنيل من الموقف الثوري في الكوفة وتمييع الالتزام بالثورة، بما في ذلك البحث عن موفد الحسين إبّان احتجابه في أعقاب متغيّرات المدينة[1].

وهكذا كان للخطة الثقفيّة المضادّة للحركة الشيعية الحسينية حظّها من النجاح لأنها كانت على خطّ كبير من البراعة في التحرّك، والسرعة في التنفيذ مما سبّب في إسقاط المشروع الثوري الحسيني.

وقد رافق هذا جهود الأشراف والزعامات السابقة الذين مهّدوا للسلطة سبل القبض على مسلم بن عقيل، سفير الأمام الحسين إلى الكوفة، وإعدامه في وسط الجماهير على رؤوس الأشهاد، وبذلك قد ساهموا في خدمة الأهداف الأموية.

روى الأصفهاني في مقاتل الطالبيين:

«فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم إليه ثم قال: أشرقوا على الناس فمنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة

---

(١) الأخبار الطوال «الدينوري» ص ٢٣٥.

وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم»[١] .

مما يبدو أن السلطة الأموية كانت تهدّد بالقوّات الشامية وتلوّح باستخدامها عندما تتصعّب الأمور وتتعقّد.

أما القوة القَبليّة فقد كانت قي قبضة «الأشراف» الذين كان لهم من السطوة والنفوذ ما يُتفوّق به على رجالات مسلم، «فلمّا سمع الناس مقالتهم (الأشراف) أخذوا يتفرّقون وأخذوا ينصرفون»[٢] .

وكان هذا مؤشّر الإخفاق والفشل للمهمة التي أسندت إلى مسلم بن عقيل في الكوفة والتي انتهت به إلى الإعدام.

ويبدو أن استعادة الكوفة، مركز الحركة الشيعية الرئيس، لصالح الحكم الأموي لم تكن كل هواجس الوالي الثقفي الذي كان عليه متابعة المهمة كاملة وتحقيق ضربة أخرى تستهدف رأس الثورة بعد أن استهدفت قاعدتها.

فقد تعرّض بعض قيادات الثورة البارزة للاعتقال والبعض الآخر للنفي مما أدى بالكوفة إلى الانطواء على نفسها وبالتالي إلى العزلة عن العالم الخارجي.

ولعلّ ابن زياد كان يتوخّى من ذلك عدم التأثير على قرار الحسين بالخروج إلى العراق، استجابة لبيعة الكوفة شبه الاجماعية[٣] قبيل تحول الموقف.

وهنا شدد الوالي الثقفي من تحرياته بعد وصول رأسي مسلم وهاني إلى دمشق.

روى الدينوري في أخباره الطوال:

«بلغني أن الحسين بن علي قد فصل من مكة متوجهاً إلى ما قِبلك،

---

(١) مقاتل الطالبين ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٦.

(٣) اتجاهات المعارضة في الكوفة للدكتور إبراهيم بيضون عن الطبري ج ٦ ص ١٩٩.

فأدرك العيون عليه، وضع الأرصاد على الطرق وقم أفضل القيام...»[١].

هذا ما أوصى به يزيد عامله، فهو يرغب في الاطلاع اليومي على مسيرة الحسين إلى العراق، قال:

«واكتب إليّ الخبر كل يوم»[٢].

من هذا المنطلق يرتدي خروج الحسين طابع البطولة والعظمة، لأنه قد اتخذ قراره الطوعي في المواجهة اليائسة المسبوقة بالترهيب والعنف والترويع وقطع الرؤوس البارزة في القوم.

ومضى الإمام الحسين (ع) بعزم وصبر وثقة، ولم تثبط همّته التحولات المعاكسة متابعاً خروجه التاريخي مع عياله وأهله وبعض الاتقياء من أصحابه[٣].

ولقد أصبحت الشهادة مطلباً محتّماً وقضيّة لازمة سعى إليها الإمام المعصوم بكل إرادته.

هو عهد عهده إليه أبوه وجده، ولا مجال أبداً للأخذ والرّد في تنفيذه.

عرف مصيره معرفة يقينية، وعلم أنه ليس هناك ثمة مفاجآت على مستوى الكوفة المحاصرة، وثورتها المجهضة، سوى تحوّل بسيط هو انضمام القائد الأموي الحر بن يزيد إلى القافلة الصغيرة[٤].

وكان السقوط البطولي، والموقف التاريخي، والجهاد الإنساني، والشهادة الحقّة في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، ومن أجل إصلاح أمة الله أكسبت الثورة الحسينية صفة الثورة الرائدة، أو الثورة الإنسانية الخالدة لأنها أولى الحركات الثورية في التاريخ الإسلامي إلتي تصدّت للانحراف

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٢٤.

(٤) الأخبار الطوال ص ٢٤٩ والكامل ج ٤ ص ٤٦ والحر بن يزيد التميمي عهد إليه ابن زياد باستطلاع تحرك الحسين والحؤول دون اقترابه من الكوفة.

والظلم والاستئثار، فضلاً عن الحكم الوراثي والعصبيّة القبليّة الجاهلية.

وهي أيضاً تمثّل بداية التحرك الإيجابي والجدّي للأكثرية المحرومة المستضعفة، رافعة صوتها الجريء المحق في استعادة الحق المسلوب، والدفاع عن القيم الإسلامية التي أصبحت منهارة في ظل الحكم الأموي.

من خلال هذا المنظور نرى أن الثورة الحسينية ليست ثورة محلية تمتد على مساحة الحركة الشيعية في زمن محدود، وليست ثورة يطمح قائدها من خلالها إلى الرئاسة والسيادة وكسب المال والجاه.

إنها ثورة إنسانية إصلاحية عالمية انعكست تراثاً مجيداً ونموذجاً جهادياً على كافة الحركات الثورية في ذلك العصر وفي كل عصر.

لقد بدأ عهد جديد من النضال السياسي والموقف الجهادي مع تحرك الإمام الحسين (ع) وانتفاضة الكوفة المباركة التي خرجت من مكمنها السري إلى دائرة النور، لتظهر الحق أمام أعين الناس المطبقة، أو التي تتظاهر أنها مطبقة إما خوفاً وإما طمعاً، هذا على المستوى العملي.

أما على المستوى التنظيري فقد تركت تأثيرها الواضح على الفكر السياسي الإسلامي، وعلى المنهجية الثورية العامة، التي بلغت ذروة التحدي في مواجهة الظلم والتغلّب على الذات والتضحية من أجل إحقاق الحق واحترام المبدأ.

والكوفة ـ مسرح الثورة المُجهَضة ـ أصيبت في الصميم بعد استشهاد الحسين وأبنائه وأصحابه[1]، وإن فشلت الثورة الحسينية في إسقاط الحكم الأموي المنحرف إلا أنها انتصرت في التمسّك بمبادئها واحترامها لموقفها النبيل الذي كان وما زال وهجاً يتدفّق نوراً وخيراً وحقاً لكل الروّاد المصلحين في العالم، وقد كانت إرهاصاً لمرحلة جديدة من التشيّع الذي أخذ سمة أكثر واقعيّة في مفهومه السياسي والإصلاحي، ولم يعد مجرد الولاء لحق علي (ع) وأبنائه في الخلافة، بل أصبح حزباً منظماً له مبادؤه وأصوله ومنهجيّته.

---

(١) المصدر نفسه. لم ينج من أولاده (ع) إلا علي الأصغر وكان مريضاً.

ونقطة هامة أخرى من نجاحات الثورة الحسينية وهي:

أ ـ تمكّن الإمام الحسين (ع) من التعبير عن أهداف الثورة الاجتماعية والإنسانية.

ب ـ إشعار الناس بواقعهم السيء المرير.

ج ـ كشف الحكم الأموي على حقيقته بكل ما يحمل في حقائبه من عورات وانحرافات جاهلية.

د ـ بعث روح جهادية ومبادىء نضالية جديدة في نفوس عامة الناس.

هـ ـ بث أخلاق جديدة بينهم، مكّنت الإمام من كسب أكبر عدد ممكن من الأصحاب الأوفياء المخلصين الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل المبادىء الإسلامية السليمة التي أرسى عليها المجتمع الجديد قواعد جديدة ثابتة.

لقد كان المجتمع الإسلامي في عهد الإمام الحسين (ع) مجتمعاً مريضاً يُشترى ويُباع بقليل من المال وكثير من التجويع والإرهاب، وما كان من الممكن أن تُردّ إلى هذا المجتمع كرامته وإنسانيّته إلا بالعمل الجهادي الذي يتضمّن أسمى آيات التضحية والاستشهاد.

لم يكن الحسين ذا مال ينافس الأمويين وبيدهم خزائن الأموال الكثيرة، ولم يكن يتجافى عن روح الإسلام وقد تخرّج من مدرسة أبيه (ع) وجده (ص)، فيجلب الناس إليه بالعنف والإرهاب، ولذلك ليس من المعقول أن يطلب نصراً سياسياً آنياً في مجتمع لا يحارب إلا في سبيل المال وبالمال أو بالقسر والإرهاب.

ولكنه استطاع أن يقوم بعمل هزّ فيه أعماق هذا المجتمع مقدّماً له مثلاً أعلى طُبع في ضمائر أبنائه بدم ونار إلى الأبد.

وإذا نحن تقصّينا أسماء من قتل مع الحسين في كربلاء وجدناهم من معظم القبائل العربية العريقة[1] وجلّهم علماء اتقياء.

---

(١) راجع أعيان الشيعة ٤/ قسم أول ص ٢٩٨ وما بعدها.

بين معاوية ويزيد

كان معاوية قوي الشخصية، يتقن ألاعيب السياسة في مجتمعه، فاشترى قسماً منه بالمال، والقسم الآخر بالتخويف والارهاب، له اسلوب خاص في معالجة الأمور، كل مرض سياسي وله في جعبته دواء.

وكان يملك من الحصانة بحيث يدرك أن جهر الحسين بالثورة عليه وتحريضه الناس على ذلك كفيل بزجّه في حروب تعكّر عليه بهاء النصر الذي حازه بعد صلح الإمام الحسن (ع)، كما يعلم بما للحسين (ع) من منزلة عالية في قلوب المسلمين.

وأغلب الظن أنه لو ثار الحسين في عهد معاوية كان من السهل أن يتخلّص منه باسلوبه الخاص الذي اتبعه، وهو دسّ السمّ له، قبل أن يقوم بالثورة، وقبل أن يكون لها ذلك الوهج والدوي في الحياة الإسلامية وفي ضمير التاريخ الإنساني.

هذه طريقة معاوية المثالية في التخلّص ممّن يخشىٰ منافسته له في السلطان، ولقد مارس هذا الاسلوب الحقير في القضاء على الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، وسعد بن أبي وقاص، كما مارسه في القضاء على مالك الأشتر لما توجّه إلى مصر، وفي القضاء على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لما رأى افتتان أهل الشام به[١].

وقد أوجز هو نفسه هذا الاسلوب المثالي في نظره فقال كلمته المأثورة:

«إن لله جنوداً منها العسل»[٢].

روى الأصفهاني قال: «لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص فدسّ إليهما سمّاً فماتا»[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن ج ١ ص ٥٣٣.

(٢) التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ج ص ٧١.

(٣) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٠١.

فلو قام الحسين عليه السلام بالثورة في عهد معاوية وقضي عليه بهذه الميتة التي يعدّها مؤسس الحكم الأموي لأعدائه البارزين، فماذا تكون النتيجة؟

وماذا يعود على المجتمع الإسلامي؟

يقولون: علوي مات حتف أنفه، ممّا يثير الحزن واللوعة في قلوب أهله ومحبّيه وشيعة أبيه ثم يطويه النسيان كما طوى سائر الذكريات.

ونقطة هامة أخرى كان يدركها معاوية من أجل إرضاء رأي العامّة وتثبيت حكمه، وهي استغلاله للدين في سبيل السياسة.

لقد كان يحكم الناس بسلطان الدين، فعليه والحالة هذه أن يسبغ على أعماله غشاوة دينية لتنسجم أعماله مع المنصب الذي وصل إليه «أما ما لا يمكن تمويهه من التصرفات فليرتكبه في السر»[1].

فقد كان حريصاً جداً أن يظهر بسلوك المحافظ على تعاليم الدين، ولا غبار عليه عند العامة التي تقتنع بما تراه العين ولا تذهب إلى أبعد من ذلك، وبالرغم من ذلك فإن بعض الروايات التاريخية تؤكد أنه كان ملحداً لا يؤمن بشيء، مما حدا بالمغيرة بن شعبة، وهو المعروف بتحلّله من الدين أن يغتمّ لما سمعه منه في بعض مجالسه فقال: إنه أخبث الناس[2].

وقد استغل الظروف ليسبغ على حكمه الصفة الشرعية من خلال عدّة أمور أوهم بها العامة أنه يصلح للخلافة وليس كما يقول الإمام علي وشيعته هي:

أولاً: ادعى أنه يطالب بدم عثمان بن عفان من موقع حرصه على الدين والخلافة!!.

ثانياً: بصلحه مع الإمام الحسن (ع) وبيعة الناس له بالخلافة، واحترام

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٩ ومختصر العرب للسيد أمير علي ص ٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٣٥٧.

العهود والمواثيق أمر معروف عند المسلمين، والبيعة عهد لا يمكن نقضه أو الفكاك منه[1].

ثالثاً: تمويهه على الرأي العام في مؤتمر التحكيم بعد معركة صفّين وخدعة رفع القرآن على الرماح.

نخلص من هذا إلى أنّ معاوية قد نجح في إسباغ المسحة الدينية على سلوكه وسائر تصرّفاته أمام العامة، وفي اضفاء الصفة الشرعية على حكمه لدى جانب كبير من العالم الإسلامي.

تجاه هذا الواقع فلو ثار الحسين (ع) مع كونه ضعيفاً من الناحية المادية، لقال معاوية لعامة الناس: إن الحسين طالب ملك وجاه وسلطان، ولا غاية له سوى ذلك!

وعندها لا يرى المسلمون من خوف على الدين، لأن معاوية لم يجاهر بمنكر، فما الذي يحمل الحسين (ع) على الثورة؟.

إذن المجتمع في عهد معاوية لم يكن مهيّئاً للثورة، ولولا ذلك لما صالح الحسن ولما أخّر الحسين، القيام بالثورة إلى يومها الموعود.

وقد حقّق الإمام الحسين (عليه السلام) ما كان يهدف إليه من كشف القناع عن مساوىء الحكم الأموي وظلمه وجوره، وبعده عن الحكم الإسلامي الصحيح، وانتهى الأمر بنجاح كبير حقّقته السياسة الحسينية أوجزه الدكتور طه حسين فقال:

«ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامّة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بني أمية وحب أهل البيت لأنفسهم ديناً»[2].

أما يزيد:

فقد كان عكس أبيه، من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والتروي في

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨ وصلح الحسن ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) الفتنة الكبرى ـ علي وبنوه ـ ص ٢٩٥.

حل الأمور، كان إنساناً صغير العقل، متهوراً، سطحي التفكير، لا يهمّ بشيء إلا ركبه[1] ولا غرو فأسلوبه في معالجة المشاكل التي واجهته خلال حكمه تدل عليه.

كان مغرماً في حب النساء والخمر واللعب بالكلاب، وقد ذكر المؤرخون عن حياته العاطفية الكثير من قصصه التي يرشح منها التهور والنزق والطيش والاستجابة السريعة للإنفعال، وكلها ليست أموراً عارضة، بل هي سمات أصيلة في شخصيّته[2].

ومن كانت هذه صفاته فهو أبعد الناس عن أن يواجه ثورة الحسين باسلوب أبيه.

إلى جانب هذا يقول فليب متّي أن نشأته كانت نشأة مسيحية، أو قريبة من المسيحية[3]، جعلته أضعف ما يكون صلة بالعقيدة الإسلامية التي يريد أن يحكم الناس من خلال أحكامها وتشريعاتها.

وعامة الناس يعرفون حياته الماجنة وانسياقه مع نزواته ورغباته الرخيصة قبل تسلّمه الحكم، لذلك بات عاجزاً عن التظاهر بالورع والتقوى والتلبّس بلباس الدين كما تلبّس به أبوه، وطبيعته النزقة جعلته يجهر بارتكاب المحرمات، ومقارفة الآثام، وكأنه سابق لأبي نواس الذي قال عن نفسه:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ[4]

وبات الأمر واضحاً أنه لم يعد باستطاعة الحكم الأموي وأنصاره أن يشوّهوا ثورة الحسين أمام الرأي العام بأنها ثورة في سبيل الملك

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ـ القسم الثاني ـ ١.

(٢) المصدر نفسه راجع ص ٤ وص ١٠ ـ ١١ تدل على شذوذه الجنسي.

(٣) تاريخ العرب ج ٢ ص ٢٥٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن ج ١ ص ١٥٦.

(٤) راجع أعلام في العصر العباسي للمؤلف.

والسلطان «لأن العامة ترى أن مبررات هذه الثورة موجودة في سلوك يزيد نفسه، هذا السلوك الذي لا يلتقي مع الدين على صعيد»[1] .

ومعاوية يعرف تماماً حجم ابنه يزيد، لذلك سعى جهده ليضمن له الحكم بعد موته، وهو خائف عليه من الإمام الحسين (ع)، فماذا يعمل على الأقل ليؤمّن سكوت الحسين، ولكنه خاب في مسعاه ولم يفز بطائل.

يروي المؤرخون عدّة مواقف للإمام الحسين (ع) مع معاوية حين أخذ يعدّ الأمر لابنه يزيد من بعده، ففي بعض كتبه يقول الأمام الحسين:

«... وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان مما احتويته بعلم خاص!

وقد دلّ يزيد من نفسه على موضع رأيه، فخذ ليزيد في ما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي، تجده باصراً.

ودع عنك ما تحاول[2] ، فما أغناك أن تلق الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت فيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة»[3] .

فيا سبحان الله! ما هذا الكلام المحكم البليغ الصائب، كل كلمة أصابت هدفها فبلغت ما تريده إنه البليغ الحكيم ابن سيد البلغاء وإمام الحكماء.

فتأمل معي المقطع الأخير: فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت فيه... إلى آخر المقطع!!

ولما وصل جواب الإمام الحسين (ع) لمعاوية أدرك أنه بعيد جداً عن

---

(١) ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص ١٣١.

(٢) يريد البيعة له.

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٩٥ وما بعدها.

تناول التفاحة، فماذا يضع من برامج وحيل ليحمل الحسين على البيعة ليزيد؟.

لقد عمد إلى حرمان بني هاشم جميعاً من أعطياتهم حتى يبايع الحسين فلم يتحقق له ما أراد.

ومضى معاوية وترمد، وقبره معروف في دمشق[1] والحسين بقي على موقفه من الإنكار لبيعة يزيد، بقي عطراً على الأفواه، وذكراً طيباً في ضمير المسلمين المؤمنين، وبقي قبره مزاراً لجميع المسلمين في كربلاء إلى جانب أخيه العباس، أبو الفضل وقمر بني هاشم[2].

المجد لا يليق إلا بأهله، والتوصل إلى السلطة واستلام الحكم ليس هو طريقه المنشود، وكل شيء له مكانه الذي يجب أن يوضع فيه، وإذا أخطأ مكانه أوذي به وتضرر منه، فهل يليق بهزيل الجسم أن يلبس ثوباً فضفاضاً عليه؟!. رحم الله المتنبي حيث قال:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

لقد فشل معاوية في تحقيق هدفه، وفشل يزيد وفشلت معهما الألاعيب السياسية، والمؤامرات الدنيئة، وانتصر الحسين (ع) في إحقاق الحق وتثبيته وإصلاح الانحراف في أمة جدّه، وانتصر معه الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

(١) هو إلى جانب الجامع الأموي وإلى جانبه مكان يبول فيه عامة الناس.

(٢) زرته مرات عديدة قبل الحرب بين العراق وإيران فلم أستطع الوصول إلى الضريح أثناء النهار فبقيت إلى الليل من كثرة الزحام، حيث يؤمّه المسلمون من جميع أقطار العالم الإسلامي.

إمام الجماهير المؤمنة

القيادة الصحيحة هي تلك التي تبني قاعدتها من الشعب، وتضم تحت أجنحتها كل المستضعفين وكل الناس من كل عرق وجنس ولون.

أما القيادة التي لا تعتمد إلا على الانتهازيين والنفعيين المرتزقة فهي قيادة فاشلة لا تعمّر طويلاً لا على صفحات التاريخ ولا في قلوب المؤمنين، وسرعان ما تسقط عند أدنى انتفاضة تمرّ بها.

ذلك أن الشعب هو القاعدة الأساسية الثابتة، وأي حاكم مهما أوتي من دهاء وذكاء ولا يعتمد هذه القاعدة يموت موتاً بطيئاً، ولا يكتب له الاستمرار، إلا أن يحكم بالحديد والنار، وليس له إلا أن يسخّر زبانيّته ومرتزقته للدفاع عنه والحفاظ على الكرسي الذي جلس عليه زوراً وبهتاناً، فيقتل على التُهم والظن، ويعمل السيف في رقاب كل من يتفوّه بكلمة يشعر بأنها تؤثر على وجوده، ويجهز على كل حركة أو تحرك، لأن كل ذلك يدقّ مسماراً في نعشه، ويسقطه ويقضي عليه، لذا يحاول بشتى الطرق أن يشتري الضمائر الميتة، ويسخّر كل الأيدي الشريرة للقضاء على هؤلاء الثوريين الأحرار والمجاهدين الأبرار.

ونأخذ شواهد وعِبر من بعض حكّام عصرنا اليوم فنشاهد طرقهم السافلة وأساليبهم الحقيرة التي ينفّذونها عن طريق زبانيّتهم المجرمة، الذين لا يتورّعون عن إهراق الدماء البريئة في سبيل أطماعهم الشخصية، وعلو حظوتهم عند الحاكم الظالم.

بعض حكامنا اليوم استعملوا أساليب رهيبة أشدّ فظاعة مما كان في الأزمنة السابقة، فتفنّنوا في طرق التعذيب، واستعانوا بخبراء واختصاصيين في

هذه المواضيع من أجل تمرين زبانية الحكام الطغاة المتسلّطين على رقاب العباد، أولئك الحكام الذين استلموا الحكم خلسة في ظلام الليل، وأعدّتهم الدول المستعمرة منذ زمن ودرّبتهم في مدارسها.

ولا ريب أنهم فقدوا كل تأييد شعبي لهم، لأن الشعب لا يرحم، وهو لهم بالمرصاد، يحصي عليهم الحوادث الفردية، والمجازر الجماعية، التي تتكرّر كل يوم.

هذا الأسلوب من القمع والقهر والتعذيب ـ أسلوب الحديد والنار ـ اعتمده الحكام الأمويون في عهد معاوية ويزيد وسائر الحكام الذين تسلّموا الحكم من بعده، ونظرة واحدة إلى جرائم أولئك الطغاة في ذلك الزمن تكشف لنا كل تعنّتهم ومخازيهم.

ففي عهد معاوية لم يكن للشعب من كلمة يقولها، أو يجرأ على التصريح بها، لأنه كان يكمّ الأفواه، ويخمد الأنفاس، ويسلّط السيوف على رقاب الشرفاء الأحرار، فأين الإمام الحسن سبط الإمام علي (ع)؟ وأين حجر بن عدي؟ وأين عمرو بن الحمق الخزاعي؟ وأين قافلة الشهداء التي سقطت على أيدي الطغاة من الحكام أنفسهم ومن زبانيتهم التي تدور في فلكهم، أمثال سمرة بن جندب وبسر بن أرطاة والحجاج بن يوسف، الذين قدّموا كل ما لديهم من خدمة لأسيادهم الطغاة؟!

كل هؤلاء حفظهم التاريخ، وسجل أعمالهم على صفحتين متناقضتين. فالطغاة كانوا وما زالوا مسبّة الناس جميع الناس، والشرفاء المجاهدون لا تزال صورهم حيّة في قلوب المؤمنين، شاخصة أمام الشعب، تضطرب وتستصرخ كل المجاهدين الأحرار للأخذ بثأرها، وضرب المفسدين، وقتل الحكام الظالمين أينما وجدوا.

إن الحاكم الذي يفقد ثقته بالشعب، ولا يكسب رضا الجماهير، هو حاكم مكروه ثقيل، يتحيّن الشعب أي فرصة للانقضاض عليه وتمزيقه.

إن قتال أئمّة الكفر وحكّام الضلال واجب شرعي، وكلمة الإمام

الحسين (ع) ما زالت شعار كل مجاهد حر شريف، قال (ع):

«أيها الناس إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل، ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإن هؤلاء قد لزموا الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق ممّن غيّر».

فالإمام الحسين الثائر في وجه الظالمين يطلق شعار «مقاتلة السلطان الجائر واجبة».

لقد أراد أن يفجّر الثورة في داخل الإنسان المستضعف، أراد أن يحطّم عقدة الضعف عند الإنسان المسلم الذي أرهبته سطوة الأمويين، يقول الإمام الحسين (ع) للمسلمين ـ في زمانه وفي سائر الأزمنة ـ أن الحاكم الذي يتولّى زمام الأمة الإسلامية يجب أن يقوم بتحقيق العدالة بين سائر الناس ويحكم بالقسط بين سائر البشر، أما إذا انحرف عن الخط الرسالي، وظلم وجار، ونكث عهد الله، وخالف كتابه، وسنة نبيه، وعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، وأظهر الفساد، وعطّل الحدود، كما فعل معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد من بعده، وغيرهما من الحكام الأمويين، فعندها يجب أن ينهض كل فرد في الأمة قادر على الجهاد والكفاح ليضرب اليد الظالمة التي أبطلت الحق بدل أن تحافظ عليه.

هكذا يعلّمنا الحسين (ع) ويعلم كل المستضعفين في كل بقاع الأرض ليصرخوا في وجه الحاكم الجائر، ويردّوه عن ظلمه، وإلا يكونون وإياه شركاء جريمة فظيعة، جريمة التعدي على الشريعة وخرق الدستور.

الإنسان المسلم ينظر إلى الحق من خلال نافذة الإسلام، فإذا سدّت هذه النافذة أو منع منها فلا يسأل بعدها عن أي شيء!.

فالشعب عامة كره الأمويين واحتقرهم، وعمّت الفرحة في جميع أوساطه

حينما قضى معاوية طاغيتهم ومؤسس دولتهم.

وهذا الشعب نفسه الذي كره الباطل ووقف ضد الحكام الطغاة هو الذي عيّن الحسين (ع) قائداً للمؤمنين في مسيرتهم الجهادية الرائدة.

الشعب وحده هو الذي وقف مع الحسين والتفّ حوله، ونادى به منقذاً من كواسر الظالمين.

فالتعيين جاء عفوّياً فرضه واقع الحال، وعفوية الجماهير المؤمنة هي أفضل وأصدق عفوية.

لم يكن الحسين (ع) وحده في معركة الحق ضد الباطل، بل كانت قلوب الجماهير وواقعها معه ليخلّصها من الظلم والطغيان، والقمع والاضطهاد.

لقد كان الأمل الوحيد، والشخصية المنفردة بحب الناس دون أن يدفع إليهم مالاً، أو يغريهم بسلطان، أو يهدّدهم بقمعٍ وإكراه كما فعل معاوية مع زبانيته.

لقد وجدت الجماهير المؤمنة في الحسين القبلة الوحيدة التي يجوز أن يؤمّها الناس، وليس له بديل، ولا عنه عديل، إنه الإنسان الذي عانقت نفسه نفوس أبناء الشعب، وعشقت روحه أرواح المؤمنين المستضعفين، فالتحمت في وحدة كاملة، وصُهرت قوّة واحدة، فكانوا القاعدة المتينة، وكان الرأس الحكم والحكيم.

كان الحسين قائد الجماهير المؤمنة بحق، وهو الذي يحقّ له أن يحكم ويتولى زمام الأمور، أما الذي يحكم بقوّة السلاح، ويستلم الحكم بالقهر والغلبة، فهو حاكم ظالم يرفضه الإسلام، ويلفظه الإنسان من أي موقع كان.

قائد الشعب الحقيقي هو الذي نادى به الشعب بحرية واختيار وليس من موقع الترهيب والترغيب.

قائد الجماهير المؤمنة هو الذي تنادي باسمه الجماهير بملء اختيارها دون أن يتسلّط عليها الجواسيس والمخابرات وزبانية السلطة.

بعد موت معاوية كان الحسين إمام الجماهير المؤمنة المناضلة التي شربت كأس العذاب على يد الأمويين، ومحطّ أنظارهم جميعاً، للتدليل على الارتباط الوثيق بين القائد الجدير بالقيادة وبين الشعب الأعزل إلا من الإيمان الراسخ، والتمسك بالعقيدة والمبدأ.

وقد وصف المؤرخون الكتب الكثيرة والرسائل التي تعبّر عن الارتباط الوثيق، أرسلت إليه من الكوفة والبصرة تحثّه على المسير إليها، وهذه نماذج منها:

كتاب أهل الكوفة:

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب ورفاعة بن شداد وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد، الذي اعتدى على هذه الأمة فانتزعها حقوقها، واغتصبها أمورها، وغلبها على فيئها، وتأمّر عليها على غير رضى منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، فبعداً له كما بعدت ثمود، إنه ليس علينا إمام، فأقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام والسلام[1].

وكتبوا إليه كتاباً آخر يقولون فيه:

أما بعد، فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، فإذا شئت فاقدم على جندٍ لك مجنّدة والسلام عليك.

وكتاباً آخر أيضاً:

---

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٤.

للحسين بن علي من المؤمنين،

أما بعد، فحيّا هلا، فإن الناس ينتظرونك ولا رأي بهم غيرك، فالعجل العجل، والسلام عليك[1].

وهذا ابن كثير مع تعصّبه للأمويين وتحامله على الهاشميين يقول:

«فلما مات معاوية سنة ستين وبويع ليزيد بايع ابن عمر وابن عباس وصمّم على المخالفة الحسين وابن الزبير، وخرجا من المدينة فارّين إلى مكة، فأقاما بها، فعكف الناس على الحسين يغدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، حين سمعوا بموت معاوية وخلافة يزيد.

وأما ابن الزبير فإنه لزم مصلاّه عند الكعبة، وجعل يتردّد في غضون ذلك إلى الحسين في جملة الناس، ولا يمكنه أن يتحرك بشيء مما في نفسه مع وجود الحسين، لما يعلم من تعظيم الناس وتقديمهم إياه عليه»[2].

فالناس «عكفوا على الحسين يغدون إليه، ويقدمون عليه، ويجلسون حواليه ويستمعون كلامه».

كلام يظهر محبّة الناس للحسين، وتقديرهم له، وأملهم به، وطالما هو موجود في مكة لم يجد الناس رغبة في لقاء ابن الزبير، وقد كشف ذلك المسعودي فقال:

«وبلغ ابن الزبير أنه (الحسين) يريد الخروج إلى الكوفة، وهو أثقل الناس عليه، وقد غمّه مكانه بمكة لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين، فلم يكن شيء يؤتاه أحب إليه من شخوص الحسين عن مكة، فأتاه فقال: أبا عبدالله، ما عندك؟ فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله»[3].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥١.

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٥.

هذه الكتب التي تعبّر عن رأي الجماهير المؤمنة حرّكت وجدان الحسين (ع) لأنها تدلّل أنه هو أملها الوحيد، ولن يكتب نجاحها وظفرها إلا على يديه، فهل يتأخّر عن تلبية طلبها وإبعاد الظلم عنها؟.

إن كل المعطيات تكشف بوضوح أن الناس عامة مع الحسين تراه المنقذ الوحيد وهي معه تؤيده بعفوية طبيعية بعيداً عن عوامل الإغراء أو الإرهاب، لأنها تتصرف بوحي عقيدتها الصافية وما يمليه عليها الواجب الشرعي.

أما الوجهاء والزعماء الذين باعوا أنفسهم للسلطان، وباعوا ضمائرهم للشيطان، فقد خسرت تجارتهم و **﴿خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾**(١).

واليوم وفي كل يوم يعيد التاريخ نفسه، ويقوم أصحاب الدولار والدينار بالدور نفسه، فيساومون على الرؤوس والرعايا التي تسير في ركابهم، فلئن كان رؤساء العشائرفي ما مضى من الأشراف يتصرف فيهم رئيسهم، فإن رؤساء الأحزاب اليوم يمثلون الدور نفسه مع اختلاف في الاسم فحسب.

وفي الكوفة ـ كما في سائر المدن ـ لا نستبعد أن يكون عامة الشعب مع سيد الشهداء قلباً وروحاً، ورؤساء العشائر والزعماء الأشراف قد باعوا أنفسهم للسلطة الحاكمة، وهؤلاء يدبرون بوجوهم سريعاً عندما تدبر الدنيا عن حكامهم الظالمين مهما طال ظلمهم، ومهما طال ليلهم، وكما وصف أبو القاسم الشابي هذه الحالة ـ رحمه الله ـ فقال:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة　　فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بـد لليـل أن ينجلـي　　ولا بـد للقيـد أن ينكسـر

إن الناس في زمن الحسين (ع) كانت قلوبهم معه، وهم على أهبة الاستعداد ليعلنها ثورة وإن خان المتزعّمون والنفعيون والانتهازيون، لأنها ستحوّل أولئك الذين وقفوا إلى جانب الطغاة رموزاً ساقطة يكونون دروساً

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢.

لكل «الذين يعبدون الله على حرف»[1]، ولكل الذين تزلّ بهم أقدامهم عن مبدأ الحق.

إنه درس واقعي لكل من حدثته نفسه أن يخون قضايا شعبه وما تعقد عليه قلوب الجماهير المؤمنة، لكي لا يصبحوا مَثَل عارٍ كأسلافهم الذين عاصروا الحسين (ع) واستدعوه ثم تخلّوا عنه في أحلك الظروف وأصعبها.

من هنا كانت الفوائد من ثورة الحسين لكل الفئات من الناس، الأبرار منهم والأشرار.

ومن هنا نستطيع القول أن الإمام الحسين وإن لم ينجح عسكرياً فقد نجح في تسجيل مواقف بطولية يزين بها التاريخ صدور صفحاته.

وقد كان الحسين (ع) إمام الجماهير المؤمنة، وسوف يبقى إمام الجماهير المؤمنة والمستضعفة على مدى الأيام.

فالسلام عليك يا أبا عبد الله، يا سيد الشهداء، والسلام على أهل بيتك وآل بيت الرسول (ص)، والسلام على جميع الشهداء الأحرار الذين عرفوا الحق فتمسّكوا به واستشهدوا من أجله.

أهل التقوى:

يرتعش وجدان المؤمن رهبة، ويخشع قلبه إجلالاً وتقوى، ثم يطمئن ويهدأ بأنس القرب من الله جلّ وعلا.

وفي ظل هذا الأنس، الذي منه الأنسان[2]، وفي طمأنينة هذا القرب يأتي الإعلان الجاهر، قوله تعالى: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا**

---

(١) راجع الآية: ١١، من سورة الحج.

(٢) إنسان: يقول علماء اللغة إنها لفظة مثنى أنس، وهي أودع لفظة، وأجمل تعبير، وألطف مدلول. الألف أول حروف الهجاء وأبعدها، والنون وهي حرف خيشومي ناعم من حروف المغنة، والسين من حروف الهسهسة الهادئة.

تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾[1] .

السلام عليكم يا أولياء الله وأحباءه، والسلام عليك يا أبا عبد الله الحسين سيد الشهداء، والسلام عليكم يا أهل بيت النبوة، والسلام عليكم يا أصحاب أهل بيت النبوة ورحمة الله وبركاته.

فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، لأنكم آمنتم بالله ورسوله وكنتم متقين، لكم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وكيف تخافون والله معكم في كل شؤونكم وأعمالكم، وفي كل حركاتكم وسكونكم؟

أنتم أولياء الله المؤمنون به، المراقبون له في السر والعلن، الاتقياء الذين آمنتم وكنتم تتقون. كيف تخافون وأنتم على اتصال دائم بالله؟

ومما تخافون ولكم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ إنه الوعد الحق الذي لا يتبدل **﴿لا تبديل لكلمات الله. ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

إن أولياء الله الذين يتحدّث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان، المتقون حق التقوى، والأيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، العمل الصالح، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، هذا هو معنى الولاية لله عزّ وجلّ.

في ظل هذه الرعاية وهذه الحماية لأولياء الله يخاطب الله النبي (ص) وهو أولى الأولياء بما يطمئنهم تجاه المكذبين والمعتدين، وكانوا في ذلك الوقت أصحاب القوة والجاه والمال والسلطان والملك العقيم.

ونحن اليوم ألا نشاهد بأم العين الذين يموتون كل يوم وندفنهم في المقابر؟ هل الموت لغيرنا فقط دوننا؟!

جاء في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين (ع) كان في تشييع جنازة فرأى بعض المشيّعين ـ كما يحصل اليوم ـ يتحادثون ويضحكون، فقال بصوت عال:

---

(١) سورة يونس، آية: ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤.

«كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون، نبوّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلّدون بعدهم».

السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا إمام العاقلين المدركين. فأنت إمام العقل وإمام الحكمة وإمام التقى، وأنت حبيب الله وأنت ولي الله وأشهد أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن علياً ولي الله.

ونحن حينما نسمع بموت أحد فعلينا أن نفكر بالتزوّد لسفرنا، أما ما نعيشه وما نسمعه فهو عكس ذلك، فنسأل بعضنا البعض: كم عمر الميت؟ وكم له من الأولاد؟ وكم يملك من الأموال؟ وما هو سبب موته؟ ونعود إلى بيوتنا وننسى أين كنا، وإلى أين سنسافر عن قريب أو بعيد!.

التقوى الدائمة تنوّر مجالسنا بذكر أولياء الله، وكل مجلس فيه ذكر أولياء الله وعلى رأسهم ذكر الأنوار الطيبة محمد (ص) وآل محمد (ع) فإن أهل هذا المجلس تشملهم رحمة الله، فليكن حديثنا عنهم، ونعمّر مجالسنا بذكرهم.

ومن خلال هذه الآيات الكريمات نرى أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى، إلى أن يصل إيمانهم إلى درجة اليقين بأن كل الموجودات هي ملك الله، ولا مالك إلا الله، ولا أحد له استقلال في أمره، وحياته ليست بيده، وإنما الملك لخالق الخلق، وفاطر السماوات والأرض، العزيز الحكيم رب العالمين.

فيجب دوام العبودية لأولياء الله، والاستمرار في التقوى من حيث التكليف، والتقوى بمعنى أن نكون في وقاية من حساب الله العسير في اليوم الأخير، والتقوى هي الاستعداد لخدمة الله، والالتزام بإطاعته، واجتناب إتباع الهوى حتى يزول عنه الهوى بحيث يصبح ممّن «لا يحب سوى الله»، ويكون حبه وبغضه وخوفه وسروره في الله، ومتعلّقاً بالأمور الروحانية.

ولا ريب أن الوصول إلى هذه الحال هو وصول إلى مقام عظيم وموضع كريم، بحيث يخلع من قلبه كل حب سوى حب الله، فلا المال ولا البنون ولا

القصور ولا الأصحاب ولا الأصدقاء ولا الإخوان يستمر حبّنا لهم ويفيد سوى حبنا لله عزّ وجلّ.

إن من يصل إلى هذا المقام الرفيع هو من أولياء الله، وقد استمرّ على التقوى حتى أزاح عن قلبه كل نزعاته وشهواته وميوله، وتخلّص من عبودية المال وعبودية الأشخاص وعبودية الأصنام، وحينئذٍ له البشارة في الدنيا والبشارة في الآخرة، والله أعلم العالمين.

وقد ورد أن البشارة الدنيوية للمؤمن هي ساعة موته حيث يرى جمال النبي محمد (ص) وآل محمد (ع).

والمؤمن لا تقبض روحه إلا برضاه، فقد ورد في الحديث القدسي:

«ما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته»[1].

وكيف يتم إرضاؤه؟.

يُرىٰ جمال النبي محمد (ص)، وهل أبهى وأجمل من النبي الذي يتوق إلى رؤياه كل قلب فيه ذرة من الإيمان، فلئن كان في البداية راغباً في البقاء في الدنيا حيث المال والبنون، والأخوة الأعزّاء، والأصدقاء الأوفياء الذين يعزّ عليه فراقهم، ولكن عند رؤية محبوبه ينسى كل شيء ويشتاق اللحاق به.

وبشرى ثانية سارّة هي أنه يشرب من نهر الكوثر، فيعرف أن لا انفصال بالموت عن لذائذه، وإنما هو أول سعادته، وبدء فرحته الكبرى التي لا تشبهها فرحة أخرى، وحينئذٍ سيبذل روحه بكمال الشوق، ويسلّم أمره للحق، ولا خوف ولا حزن، فالحبيب ذاهب للقاء محبوبه.

والوعد الإلٓهي وعد حتمي ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ فالمؤمن له البشرى في الدنيا وفي الآخرة، قضاء الله الحتمي، والله لا يخلف الميعاد.

والأمر على هذه الحال حتى قيام الساعة، فمن صار من أولياء الله فإن له

---

(١) راجع أصول الكافي للكليني.

البشرى ساعة الموت فيعطي روحه بسخاء، وله البشرى في الآخرة أيضاً، وذلك هو الفوز العظيم.

فعلى المؤمنين أن يسعوا بشوقٍ للوصول إلى تلك المقامات العالية وأفضل الطرق لذلك هو العلاقة بأولياء الله[1]، لأن مودّتهم واجبة على كل مؤمن ومؤمنة، وإن جاذبية المحبّة كفيلة بإيصال المحبّ إلى محبوبه، ولا ريب أن آثار المحبوب تظهر في المحب.

إن عشق أولياء الله يظهر وينعكس على محبّيهم إلى أن يجعل من قلب المحب مكاناً لائقاً ومقراً مناسباً للمحبوب، فيكون عرش الرحمان في قلب كل مؤمن.

ومحبة الإمام الحسين (ع) لا تحصل دفعة واحدة، وإنما يجب أن تستمر في قلوبنا حتى تنمو تدريجياً في كل سنة من عاشوراء، ننوّر بها مجالسنا، ونحيي بها قلوبنا، ونجدّد بها ولاءنا لسيد الشهداء المظلوم.

ورد في الحديث المأثور الذي نردده في مناسبات عديدة:

«أحيوا ذكرنا رحم الله من أحيا ذكرنا» ذكر أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ومن المعروف أن المحبة تزداد كلما ازداد ذكر المحبوب، ولا رياء في المحبة الصادقة فإنها أمر قلبي، واقتران القول بالعمل أمر لازم لا بد منه.

وقد يسأل سائل: كيف نعرف أولياء الله؟.

فإذا كانت محبتهم واجبة فكيف نعرفهم حتى نودّهم؟.

فهل الذين يصلّون كثيراً هم أولياء الله؟ أم الذين يصومون كثيراً؟ أم الذين يحجّون ويزورون؟.

---

(١) يروى أن المأمون طلب من الإمام الرضا (ع) أن يكتب له رسالة في بيان شرائع الإسلام أصولاً وفروعاً، فكتب له رسالة مفصلة في ذلك، منها: «تجب الولاية لأولياء الله».

إن أولياء الله مخفيّون، لا يُعرفون بالظاهر، فكيف نعرف من ليس في قلبه حب إلا لله، ومن ليس في قلبه خوف إلا من الله! يقول الحديث القدسي الشريف:

«أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[1].

ومن الحكمة أن لا يعرفوا، لأنه لو عرفهم الناس فقد يطلبون منهم جميع حاجاتهم الدنيوية والأخروية ولا يتركونهم.

قال الإمام علي بن الحسين (ع)[2]:

«إن الله أخفى ثلاثة في ثلاثة: أخفى رضاه في طاعته، وأخفى سخطه في معصيته، وأخفى وليّه في عباده».

وهذه حكمة إلّهية، وعناية ربانية منه عزّ وجلّ لعباده، فقد أخفى الله رضاه في أعمال الخير من أجل أن ينتفع الإنسان من جميع الواجبات الملقاة على عاتقه، إذ لو كان معلوماً أن أية طاعة توجب الرضى لأمكن الإنسان أن يقتصر عليها دون سواها، وبذلك يحرم من باقي العبادات، ولا شك أن الصدقات ومساعدة الناس المعوزين توجب رضى الله، ولكن من أين لي أن أعرف من هو هذا الشخص؟ فلعله هو ذلك المورد الذي توجب مساعدته رضىٰ الله.

ورضى الله كافٍ وافٍ لعباده، لأن الله لا يرضى عن عبده إلا إذا كان عبداً صالحاً، يحب الناس محبة خالصة، ويصبر عليهم في الرضى والغضب، يساعد الفقراء، ويعمل كل خير يقدر عليه لكل محتاج محروم دون تمييز أو تخصيص.

جاء في الحديث: «الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله».

فكلمة «عيال» فيها المحبة، وفيها الشفقة، وفيها الرحمة، فمن أراد منّا

---

(١) راجع الثورة الحسينية لآية الله الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب ص ١١٠.

(٢) المرجع نفسه.

أن يقترب من الله عليه أن يساعد الناس كل الناس لأنهم إخوة له في الإنسانية، ولعلّه هو ذلك المورد الذي يوجب رضى الله سبحانه وتعالى.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

«وأشعر قلبك المحبة لهم، واللطف بهم. . . فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق!»[1].

والأمر الثاني أن الله أخفى سخطه في معصيته، فبعض المحرّمات توجب سخط الله، لأن من الذنوب ما يمنع المغفرة ويوجب حرمانها.

وهل التوبة توجب المغفرة؟ قبل كل شيء يجب أن تكون التوبة توبة نصوحاً وليس كتوبة أبي نواس توجب عجزاً وتقصيراً عن مقارفة المعاصي.

والذنب الذي يوجب سخط الله هو ذنب كبير، لذلك فهو يسلب التوفيق للتوبة، فالمخطىء لا يندم على ذنبه، ولا يحاسب نفسه، وتكون عاقبته وخيمة، ولا أدري! كيف يطلب المخطىء عفو الله وهو مستمر في أخطائه، غارق في غمرة ذنوبه، وقد يعذر نفسه فيخفّف الحمل عن كاهله ويقول: إن ذنبي بسيط والله كريم ورحمان رحيم يغفر الذنوب.

يقول كما قال أبو نواس في آخر حياته، محامياً متفلسفاً:

ربي إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم

نقول لأبي نواس وأمثاله من شبابنا اليوم: صحيح إن الله رحمٰن رحيم ورحمته عميمة عامة، ولكنه إلى جانب ذلك هو عادل وشديد العقاب، ومن فيض رحمته أن الحسنة التي يقوم بها المسلم تغفر له عشر سيئات من نوعها، أي أن العفو قدر الذنب والذنب قدر القصاص وبغير هذا لا يرضى ميزان العدالة.

قال تعالى في أمر الذين يستصغرون ويهونون على أنفسهم بأنفسهم: ﴿إذ

---

(١) نظم إسلامية للمؤلف ص ٢٢٤ عن أعلام الموقعين ج ١ ص ٦٨.

تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبوه هيّناً وهو عند الله عظيم﴾[1] .

وينبغي على كل منّا الامتناع عن توهين أي إنسان مهما كان دوره في المجتمع، إذ لعله يكون من أولياء الله وتكون الإهانة لولي الله، وعلينا إعزاز كل المؤمنين فلعلّنا نستفيد من إعزازهم وبركة إكرامهم، ولهذا أخفى الله أولياءه في عباده.

ولعل إخفاء الاسم الأعظم في الدعاء الغرض منه نفعنا بكل دعاء وبجميع أسماء الله الحسنى.

ونخلص إلى القول أن مودّة أولياء الله واجبة وبصورة خاصة أولئك الذين ثبت بالدليل القطعي أنهم أولياؤه، أمثال أصحاب رسول الله (ص) الاثني عشر مثل: سلمان، أبي ذر، المقداد، عمار، أبي هيثم، خزيمة بن ثابت وغيرهم ممن ذكرهم الإمام الرضا (ع).

ولا ننسى مسلم بن عقيل سفير الحسين (ع) إلى الكوفة الذي استشهد بعد أن رموه بالحجارة وجرحوه بالنبال بشكل مفجع كان أول سلام يرفع إليه.

السلام لسائر أصحاب الحسين: «السلام عليكم يا أولياء الله».

وعندما وصل إلى مجلس ابن زياد بكى من دون اختيار فقال له عبيد الله ابن العباس السلمي:

إن من يطلب مثل الذي طلبت لا يبكي، فرد قائلاً:

«والله ما على نفسي أبكي إنما أبكي على أهلي المقبلين، أبكي على الحسين وآل الحسين»[2] عليهم جميعاً أزكى السلام.

لنتأمل هذا الشهيد البطل المجاهد الذي تجاوز ذاته وفني في الإمام الحسين (ع)، فني في أصحاب الحق.

---

(١) سورة النور، الآية: ١٥.
(٢) الثورة الحسينية للسيد عبد الحسين دستغيب ص ١١٩.

فليكن مسلم وأمثال مسلم كهاني وحِجر وغيرهم مثلاً أعلى لنا، نتخذ منه العبرة في حياتنا هذه الصعبة والمليئة بالكوارث والتي صحّ فيها القول: كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء.

وليس لنا أن نقول أين نحن من هذه المقامات السامية؟ وهل نستطيع الوصول إليها؟ نعم إن إرادة المؤمن إرادة متينة قوية لا تلين ولا تضعف وتستطيع أن تحقق المعجزات.

إن الله فتح لنا باب رحمته، وفرش أمامنا بساط النجاة، ودلّنا بواسطة الأنبياء الأطهار والأئمة الأبرار على الطريق الحسيني.

والحزن الحسيني حزن روحاني وجاذبية الحسين سترفعنا بإذن الله لنكون من أولياء الله.

فالمتصل بالحسين متصل بالله، وهو حينئذ من أولياء الله، فلنتمسك بحبلهم، حبل الحق وحبل الإيمان وحبل السلام وحبل الله المتين.

وإليك هذه القصة عن نبي الله إبراهيم (ع) خليل الله، الذي يريد الإمام الحسين (ع) أكثر مما يريد ولده!!.

ورد في الرواية عن الإمام الرضا (ع) أنه لمّا أمر الله عزّوجلّ إبراهيم (ع) أن يذبح مكان ابنه إسماعيل (ع) الكبش الذي نزل عليه فتمنّى إبراهيم (ع) أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده ولم يؤمر بذبح الكبش مكانه فيستحق بذلك رفع درجات أهل الثواب على أهل المصاب، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه:

يا إبراهيم، من أحب خلقي إليك؟

فقال: يا رب، ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ من حبيبك محمد (ص). فأوحى الله إليه: أهو أحب إليك أم نفسك؟

قال: بل هو أحب إليّ من نفسي.

قال: فولده أحب إليك أم ولدك؟

قال: بل ولده.

قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟

قال: يا رب، ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي.

قال: يا أبراهيم فإن طائفة تزعم أنها من أمة محمد (ص) ستقتل الحسين (ع) وابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش، يستوجبون بذلك سخطي.

فجزع إبراهيم (ع) بذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بجزعك على الحسين (ع) وقتله، وأوجبت لك درجات أهل الثواب على أهل المصاب.

وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1].

إن من أحبه رب العالمين ينسى نفسه ويذكر الله، يتحدث عن نعم الله، ويعمل في سبيل الله، ويمشي على بساط الله، ويشرب ويأكل من نعم الله، وكل ما عنده هو من عطاء الله، فحين يكون حب الله في القلب يكون اللسان مشغولاً بذكر الله ونعمه، قال تعالى:

﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[2].

وحين تأتي ساعة الموت يكون هذا التقي قد قطع مرحلة البرزخ من قبل فيرد حيث يجتمع أولياء الله، وفي مقدمتهم أصحاب أبي عبدالله الحسين (ع) تلك هي المواهب الإلّهية، تلك هي العطايا العظيمة.

هذا هو خط الأبرار، خط أولياء الله، وخط نكران الذات، ولكن هناك أيضاً خط معاكس: خط الأشرار الذين يطلبون منفعتهم بزحمة الآخرين، ولا يفيدنّ ولا يحب أحداً أن يفيد وذلك نتيجة الحقد والأنانية والحسد.

---

(١) الثورة الحسينية للسيد دستغيب عن الخصائص الحسينية للعلامة التستري.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد﴾[1] .

ونحن إن لم نكن في خط الأبرار فعلىٰ الأقل أن لا نكون في خط الأشرار! وشتّان بين طريق غضب الله وطريق الرحمة والخير والمحبة.

ولكل من هذين الفريقين لون من الحزن يختلف عن الآخر، فحين يحزن أولياء الله فإنما يحزنون لصدور خطأ منهم أو مكروه، أو لحرمانهم من خير مرتقب، أو لالتفاتهم لصعوبة العقبات فيما بعد.

وكما أن أهل الدنيا يخافون العوز في هذه الدنيا والفقر في مستقبل الأيام فأولياء الله يخافون من الفقر يوم القيامة، وحزنهم هذا سوف ينتهي في ساعة الموت، ففي تلك الساعة لهم الأمن والراحة، قال تعالى:

﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[2] .

ثم إن أهل الدنيا حزنهم وفرحهم ماديان دنيويان، أما أولياء الله فحزنهم وفرحهم روحانيان، وبالتأكيد لا ينبغي أن يشتبه هذا الحزن الروحاني بالحزن المادي.

وخلاصة القول، إنه ليس لدى أولياء الله حزن وخوف ماديان ولكن لديهم حزن وخوف إلٓهيان إن لم يتداركوا ما صدر منهم من مكروه أو حرمان يوجب لهم حزناً قلبياً، كما أن لديهم فرحاً إلٓهياً حين يوفقون لأداء خير فيفرحون بفضل الله ورحمته، لأنهم حصلوا على رضاه سبحانه وتعالى إنه أرحم الراحمين.

والحزن على الإمام الحسين (ع) حزن روحاني.

إن الوصل والفصل الروحانيين يؤثران في من كانت لديه محبة، فهو

---

(١) سورة الفلق.

(٢) سورة الأنعام. آية: ٨٢.

يفرح في الوصل ويحزن في الفراق والفصل.

ومن المحال أن لا يحزن من يحب الحسين (ع) أيام محرّم بمقدار حبه. وهل يمكن لمن يدّعي محبة أهل البيت عليهم السلام أن يكونِ عادياً أيام المصاب؟!.

وهل يمكن أن تكون مصائب الحسين (ع) بلا أثر في أيام محرّم لقلب فيه حب الحسين؟!

لو كان الأمر كذلك لنضب ماء الحب من كل القلوب!!

فالحزن القلبي على الإمام الحسين (ع) سيد الشهداء عبادة عظيمة، وأيام محرّم أعظم العبادات، وعلى المؤمنين أن يعرفوا أنهم إذا اجتمعوا في مجلس فليذكروا الحسين (ع) فإن الحزن القلبي عبادة وهو ينشأ من المحبة، وأساس الدين المحبة، المحبة الصادقة، والمحبة العميقة، والمحبة النبيلة، والمحبة في الله، فالدين ملازم لمحبة الله ورسوله وآله، ومحبة كل شيء مرتبط بالله جلّ وعلا.

صلى الله عليك يا سيد الشهداء، صلى الله عليك يا أبا عبدالله، الذي بذلت وأعطيت خير عطاء.

صلّى الله عليك يا إمام الشاهدين والشاهدية، هويناك من كل قلوبنا! وللسفر عبر الأفلاك بين كواكب الإسلام عبرة، وللتأمل في أهل البيت فكرة، وللمواقف منهم حضارة.

بيد أننا عند الحسين بن علي عليهما السلام ستزيد أعيننا دهشة، وتفيض قلوبنا نبضاً مدوّياً موصولاً، فنحن على شفة الموت، وجفن الحياة، وبينهما مشرف الشاهدية، وهذه بلا ريب فوق الحياة والموت، لأنها عري الذات وامتشاق العزيمة للانهمار على بحر الله، والانديا ح فيه دون شراع.

اللهم ارزقني حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك.

اللهم هبني القدرة للسير على منهج أهل بيتك، والتمسك بكتابك، لأن كل من تمسك بهما لن يضل بعدها أبداً.

وإني أردد دعاء الإمام الحسين (ع) نفسه، وأدعو الله لأكون من أنصاره:

«اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى، وأعمال أهل التقى، ومناصحة أهل التوبة، وعزم أهل الصبر، وحذر أهل الخشية، وطلب أهل العلم، ونية أهل الورع، وحذر أهل الجزع، حتى أخافك اللهم مخافة تحجزني عن معاصيك، حتى أعمل بطاعتك عملاً استحق به كرامتك، وحتى أناصحك في القوة خوفاً لك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكّل عليك في الأمور حسن ظن بك، سبحانك خالق النور، وسبحان الله العظيم وبحمده»[1].

اللهم اهدنا سواء السبيل، ولا تزغ قلوبنا عن حب آل رسول الله، يا رحمن يا رحيم ويا أرحم الراحمين.

السعادة الحقيقية:

جميع خلق الله يطلبون السعادة، ويتمنّون الوصول إليها، والتنعّم بخيراتها وكل من يتمتع بمستوى من الإدراك والرشد هو طالب للسعادة، سعادة الدنيا أو سعادة الآخرة أو الاثنين معاً.

وبعبارة أوضح، الإنسان إما أن يطمح إلى السعادة في أيام هذه الدنيا المعدومة، أو يطمح إلى السعادة الأبدية الأخروية ولا يهتم كثيراً بالحياة الدنيا التي تنقضي سريعاً، وهو يأمل أن تكون ساعة الموت هي أولى ساعات سعادته.

وهناك فئة أخرى من الناس تنشد السعادتين معاً، سعادة الدنيا وسعادة

---

(١) عن الصحيفة الحسينية ص ٨٨.

الآخرة انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[1].

ولكن أين هو طريق السعادة؟ وكيف تتحقق؟.

أكثر الناس الذين نعيش وإياهم يقولون: إن السعادة تتحقق بمجانبة الهم والبعد عن الغم، والراحة والاستقرار، وتوفر سائر ما يحتاج إليه الإنسان من قصر منيف، وعيش لطيف، ومتاع كثير، وسلطان كبير... ولكن الخطأ والاشتباه يحصل في الطريق لتحصيل السعادة، فأغلب الناس يرون أنها تتحقّق بجمع المال وتكديسه بعضه فوق بعض.

وما أدراك ما المال! كم يميل القلوب، ويجرّ على أصحابه البؤس والشقاء بدل السعادة والهناء!.

والبعض الآخر من الناس يرون السعادة في كثرة البنين فيقولون: من لا بنين له لا جاه له، ويردّدون: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لقد نسي هؤلاء القول المأثور: أموالكم وأبناؤكم أعداء لكم فاحذروهم، فكم من الأبناء جلبوا الهموم والمتاعب لآبائهم فأغرقوهم في بحر من التعاسة، وافقدوهم لذّة النوم وطعم الحياة الراغدة، وخيّبوا ظنونهم وآمالهم.

هؤلاء: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا...﴾[3].

وقد وصفهم الإمام الباقر (ع) بدودة القز، فقال:

«مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً»[4].

---

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.
(٢) سورة المجادلة، آية: ١٩.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٥١.
(٤) راجع أصول الكافي للكليني.

وما نراه حقيقة في حياتنا اليومية أن أكثر أصحاب المال لم يجنوا من أموالهم سوى صعوبات بالغة يتمنّون منها أن يعيشوا عيشة الفقراء ولا مواجهة تلك المشاكل المضنية.

إن محور السعادة والشقاء فيما يتعلّق به القلب، فيجب النظر فيما يميل له هذا القلب ويهواه، هل هو أمر دنيوي فانٍ، أم هو أمر أخروي باقٍ؟.

فإن كان الميل نحو أمر فانٍ، وكانت علاقة القلب بأمور دنيوية فذلك الإنسان يكون قد أخطأ دربه ويصبح في شقاء، إذ أن العلاقة بأمر فانٍ فانية معه لا محالة، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

أما الشقاء في الدنيا، بالنسبة لمن يعشقها ويتعلق بها، فهو بسبب علاقته بالمال والجاه الذي يسعى إليه بكل جهد ومشقة لتحقيق أهدافه، ثم لا يصل إلى جزء بسيط من مراده إلا ويتخطّفه المنون، فهو كمن وصفه المتنبي:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وهذا هو الشقاء الدنيوي.

والبعض يسعى بكل جهده لتحصيل المال ويتم له ذلك، ولكنه قد تصنيبه مصيبة فيفقد ذلك المال ويفارقه، فيتحمّل مشاق بالغة في جمعه كما يتحمّل غصصاً مضنية حين يفارقه.

أما عن الشقاء لعباد الدنيا فتبدأ بعد ساعة الموت، فيقضي عمره وقد ملك المال عليه روحه، وتعلّق به قلبه، ثم يموت وهو معاد لملك الموت ومعاد لله عزّ وجلّ ومبغض له حيث يعتقد أن الله يريد أن يفصله عن محبوبه.

أما إذا كان القلب متعلقاً بأمر باقٍ، بأهل البيت والآخرة والله، وكل ما هو مرتبط به جلّ وعلا، فإن تلك العلاقة القلبية بذلك الأمر الأخروي الباقي توفّر لصاحبها السعادة الأبدية والسعادة الدنيوية معاً.

والواقع أن السعادة تكمن في القناعة وغنى النفس، فكلما كان المسلم قنوعاً كلما كان سعيداً، وأسعد الناس في حياتهم ليس الذين يملكون القصور

والأموال، وإنما أولئك الذين يقنعون بما كتب الله لهم من قسمة ونصيب، فهو مقسّم الأرزاق وإليه المصير، هؤلاء هم السعداء الحقيقيون، الراضون بقضاء الحق.

فعن طريق العلاقة القلبية تكون النجاة في الآخرة، فإذا كانت أمنية المسلم أن يحشر مع الحسين (ع) وأصحابه الأخيار الأبرار، وأن يرى علياً وأهل بيته عليهم السلام، وأن يرى محمداً (ص) وآل محمد (ع) تكون عند ذلك سعادته الكبرى التي لا تعلوها سعادة.

وكما للشقاء درجات، كذلك للسعادة درجات، كل إنسان ينال الدرجة التي يستحقّها، فكلما جمع علامات أكثر كلما حصل على درجات أعلى، كحال الطلاب في مدارسهم وجامعاتهم، وكلما عمل أعمالاً صالحة أكثر كلما نال درجة عليا، والله عادل ويأمرنا بالعدل:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[1] .

وأصحاب الإمام الحسين (ع) هم أصدق الأصحاب وأوفاهم، وهم نموذج رجال الله، ولا شك أنه ليس بالأمر اليسير أن يصل الفرد إلى هذه الدرجة من السعادة الأبدية، أما إذا وصل فيقيناً يكون الموت هو أول سعادته، وقد عرّف الله هؤلاء الرجال فقال:

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾[2] .

فرجال الله هم أصحاب أهل البيت الذين لا تشغلهم أمور الدنيا وبهارجها، ولم يمنعهم كل ذلك عن ذكر الله.

ونجد هذا النموذج المثالي الفريد في أصحاب الحسين (ع).

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٢) سورة النور، آية: ٣٧.

الدين ثورة تغييريّة فاعلة

الدين في معناه ومبناه وكما نزل على قلوب الأنبياء والرسل هو ثورة تغييريّة للفرد وللمجتمع في سبيل حياة إنسانية أفضل وأكمل وأنبل.

فبعد أن شوّهت المفاهيم، وقلبت الحقائق، وأخذت المصالح الشخصية والأهداف السياسية تحتل الواجهة في البناء الاجتماعي، قام الدين متصدّياً لكل هذه الانحرافات بثورة متحركة فاعلة تدكّ عروش الظالمين، وتحرق كل الماكرين، وتعمل جاهدة على مساعدة ونصرة المظلومين ضد المستكبرين.

هذا الوجه الحضاري الجديد جاء به الإسلام ونفّذه رسول الإسلام محمد بن عبدالله (ص)، فقد جسّد الدين على حقيقته، وحطّم الطواغيت والآلهة المصطنعة من الحجر والبشر، وردّهم إلى وضعهم الطبيعي الذي أراده الله لهم.

لقد غيّر النبي محمد (ص) برسالته السماوية السمحاء وجه الحياة الجاهلية، وأعطاها معناها اللائق بها، فأعطى للإنسان كرامته التي سلبتها منه الجاهلية الظالمة وغطّتها بركام أضاليلها وظلام مفاسدها.

وبذلك يكون الدين قد حرّر الإنسان من العبودية والظلم، ورسم له طريق السعادة والخلاص بصراط مستقيم خطّه رب العالمين ونفّذه الرسول الأمين.

فمحمد هو رسول الإسلام ورسول السلام، ومحمد هو رسول المحبة والإنسانية، وأمة محمد الهادية المهدية، هم موحّدون وأصحاب عقيدة تحدّد صلتهم بالله، وتوضّح نظرتهم إلى الحياة، وتنظّم أمورهم في الداخل بالعدل

والمساواة، وتحدّد صلاتهم بالخارج بأصول ثابتة تحفظ للمسلمين حقوقهم وكرامتهم[1].

ومن تعاليم الإسلام في المجتمع الحضاري الجديد الاعتقاد بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، فهو ليس إله قبيلة أو عشيرة، ولا يخص المسلمين دون سائر الناس، ولا إله الناس وحدهم، بل هو فاطر السماوات والأرض و ﴿رب العالمين﴾، وكل شيء في الوجود خاضع لأمره:

﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾[2].

فلا سلطان على الناس غير سلطان الله.

ومن تعاليم الإسلام أن ليس لأي طائفة سلطان على الناس في عقائدهم ولا أي صفة من صفات التسلّط والربوبية، حتى الرسول نفسه ليس إلا مبلّغاً، قال تعالى:

﴿فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمصيطر﴾[3].

ومن تعاليم الإسلام بالحياة الأخرى، يوم الحساب ويوم القيامة، فكل الأعمال مسجلة إلى يوم الحساب، يعاقب الفرد على عمله السيء، ويكافأ على عمله الصالح:

﴿كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[4]

هذا عرض سريع للتعاليم الإسلامية النظرية، أما التعاليم التطبيقية فهي أساسية أيضاً، وقد غيّرت الحياة الجاهلية تغييراً جذرياً، وهي:

أ ـ الصلاة. ب ـ الزكاة. ج ـ الصوم. د ـ الحج. هـ ـ الجهاد في سبيل

---

(١) راجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج ١ ص ١٠٧.
(٢) سورة النحل، آية: ٣٧.
(٣) سورة الغاشية، آية: ٢١.
(٤) سورة الإسراء، آية: ١٣.

الله[1] .

والأمر الآخر الذي أحدثه الرسول في بناء المجتمع الجديد الأخوّة بين المؤمنين فكانت خطوة جديدة بنّاءة، محت الأنانية الفردية بوحي الإخاء الكامل وروح الجماعة ومصلحتها وآمالها، فذابت العصبية الجاهلية، وسقطت فوارق النسب واللون والوطن، ولا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بتقواه وعمله الصالح.

وقد كانت الرابطة الجديدة من القوة بحيث فاقت حتى صلة الدم بين الأخوة والأشقاء، فحلّت الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية، ولم تفرض على الناس بقوانين ومراسيم، وإنما خلّصتهم من نوازع الإثرة والشحّ والضعة، قال الدكتور جواد علي:

«أوجد الإسلام مفاهيم أخلاقية جديدة للبشرية، وبشّر برسالة قائمة على أن الدين لله، وأن الناس أمامه سواء، لا فرق بين فرد وآخر وجنس وآخر»[2] .

نتج عن ذلك **المساواة** التي تلاشت أمامها كل فوارق الجنسية، **والعدل** الذي هو أساس الملك وقوامه، وعدته ونظامه.

ومن تعاليم الإسلام في المجتمع الجديد الحث على مكارم الأخلاق بعد الحث على الاستزادة من العلم قال تعالى:

﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[3]

وقال تعالى: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾[4]

---

(١) راجع التفاصيل في نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، للمؤلف ج ١ ص ١١١ وما بعدها.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص ١٥٩.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.
(٤) سورة طه، آية: ١١٤.

وقال الرسول الأعظم:

«العلم خليل المؤمن، والحِلْم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيِّمه، واللين أخوه، والرفق والده، والصبر أمير جنوده»[1].

وقال (ص):

«ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطَّؤن أكنافاً الذين يألفون ويُؤلفون»[2].

هذه التعاليم الإنسانية السامية، وهذه النظم الحضارية المتطورة، شوّهها الحكام الأمويون[3]، ومسخوها، وغيّروا أحكامها بما يلائم واقعهم ويحفظ عليهم وجودهم، فاحتالوا على الأحاديث النبوية وحرّفوها، وأوّلوا الآيات المحكمات من كتاب الله واستغلوها لمصالحهم الدنيوية موهمين العامة أنهم يحكمون باسم الدين، وأول هؤلاء: «معاوية رائد الضلال».

«لقد مارس معاوية في خلال حكمه مختلف الأساليب، وشتى الطرق للقضاء على النزعة الإسلامية بجميع مناحيها، ولم يتوان في سبيل ذلك، بل استعمل كل الوسائل التي تخدم هدفه وتساعده في الوصول إلى هذه الغاية، وقد كان في طليعة همّه ومن أوائل أعماله تجهيل الناس بهذا الدين وتمويهه لهم وتشويهه في أفكارهم، حتى إذا تشوّشت مفاهيم هذا الدين ولُبّست عليهم هان عليه بعدها أن يدخل في عمليات أخرى يبتغيها...»[4].

ومن تزويرات الوجه الإسلامي والانحرافات ما شرحه الشيخ محمد مهدي شمس الدين تحت عناوين: «سياسة معاوية الإرهاب والتجويع، وإحياء النزعة القبلية والتخدير الديني»[5].

---

(١) المجازات النبوية ص ١٩٥.

(٢) المجازات النبوية ص ١٨٧، الكنف: الجانب، الموطّئون: ليّنو الأخلاق.

(٣) ما عدا عمر بن عبد العزيز ٩٨ هـ ـ ١٠٠ هـ.

(٤) دروس من ثورة الحسين للسيد عباس علي الموسوي ص ١٩٩.

(٥) ثورة الحسين ص ٤٧ ـ ٦١ ـ ٧٨.

وكما جرى في الإسلام جرى مثله بين الحاكمين باسم المسيحية، فقد صنعت المسيحية، بقيادة رجال الدين صكوك الغفران دون أن يأذن الله بذلك واستغلّت هذا النوع من الانحراف لتكريس هيمنتها وعلوّ مقامها في الأرض، فمنعت المغفرة عن أناس كثيرين، ومنحت الجنة لآخرين، وكيف لا؟ والمفتاحان بيدها، بل كل المفاتيح، ثم تعاونت مع السلطات الزمنية وأصحاب الجاه والسلطان، التي نصبت المشانق لرجال الفكر الأحرار، والمجاهدين الثوار وألبست كل تلك الأعمال لباس الدين، وزيّفت الحقائق، وشوّهت الوجه الجميل للدين القويم الذي أنزله رب العالمين لإسعاد البشرية جمعاء، ولو أردنا استقصاء الانحرافات والممارسات الشاذة المخالفة للدين لجئنا بمجلدات كبار ولكننا هنا لسنا في وارد ذكر المعايب وبيان النقائص.

ولا ننكر استغلال الدين وتحريفه عن واقعه من أجل مصالح الحاكمين الشخصية وأغراضهم الدنيوية الرخيصة، ولكن هذا الانحراف وذلك الاستغلال لا يؤثر في قوة الثورة ولا يعوق مسيرتها، لأن الغيوم مهما تكاثفت على القمر لا تستطيع أن تحجب نوره البهي عن أعين البشر، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن نتأفّف أو نيأس من هذا الواقع المرير، بل علينا أن نعيد لأذهان الناس معاني الدين السامية، ومفاهيمه التحررية النبيلة، وروحه الثورية الفاعلة وإمكاناته التغييرية الهائلة.

فهل يجوز أن نرفض فكرة الحرية لأنها استغلّت في القضاء استغلالاً معيباً على كثير من الأحرار والمحررين؟

كذلك لا يجوز أن نرفض فكرة الدين وإن قضت على كثير من أهل الدين والثوريين المتحررين، فالدين في جانب والمستغلون للدين في جانب آخر، والحرية في جانب والمدّعون للحرية الذين ذبحوا الأحرار في جانب آخر.

فإذا أردنا الدين في جوهره الصحيح وعلى حقيقته الفطرية الناصعة فعلينا

أن نهتدي بالأئمّة الأطهار، والعلماء الأعلام، فنقرأ الدين قراءة واعية فاعلة من خلالهم، نعانق بطون النصوص، ونعيش مع روح المعاني بشوق ومحبة وإدراك، لأن هؤلاء العلماء الأفاضل قد قاموا بنشره وبيانه كما تلقّوه من صاحب الشرع، من منبعه الأصيل، وقدّموه للناس من أجل الخير والإصلاح والفائدة العامة، لا يريدون جزاءً ولا شكوراً.

إنهم الأمناء على أحكام الدين، أمناء على التمسك بشريعة الله، لقد اقتدوا بالأئمة المعصومين الذين نذروا أنفسهم لهداية الناس، وكانوا مثلاً أعلى في العفّة والنبل والطهارة والاستقامة، فأبوا أن يساوموا على عقيدتهم مهما كان الثمن، وأبوا إلا أن يقاوموا حكام الضلال الطغاة مستشهدين في سبيل الحق، في سبيل الله.

لقد أئتمنهم الإسلام على أحكامه، وقدّمهم نماذج خير ورسل حق، والأمانة ثقيلة على كاهل الأمناء الأوفياء، قال تعالى:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[1] .

هؤلاء هم كواكب الأرض التي يهتدي بها التائهون، وهؤلاء هم تراجمة الدين الذين ينهل من مواردهم الناهلون.

وكما قلنا، إن السلطة المنحرفة والفاجرة استغلّت الدين وجعلت منه غطاءً لأفعالها الشنيعة، فعمدت إلى المخلصين الواعين تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، وعلى رأس هؤلاء سيد الشهداء الذي أبى المساومة، ورفض العروض المغرية، وأكد على تنفيذ رسالة جده (ص).

عندها صممت السلطة الأموية الخارجة عن الدين القضاء عليه، فغلّفت

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ص ٢٧.

ذلك بفتاوى شرعية، وأحاديث نبوية مزورة، عن طريق سماسرة الباطل، وبائعي الضمير، ومنهم من كذب ليرضي أربابه فقال:

«من رأىٰ من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية»[1] .

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية ج ١ ص ٢٧.

بين الله والإنسان

إذا تأملنا فكرة التاريخ من خلال القرآن الكريم وجدنا أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً مؤسساً على علاقة الألوهية بالعالم، ووجدنا أيضاً أن للإنسان دوراً هاماً بوصفه خليفة الله في أرضه، وكثيرة هي النصوص القرآنية التي تؤكد هذا المعنى.

وما هذا الجزء الدنيوي العارض في عمر الإنسان إلا مرحلة اختبار تجتازه البشرية نحو النعيم الدائم أو الشقاء الدائم، فحياة الإنسان على الأرض آنية فانية، ومن الحكمة أن تكون نظرته لنفسه وللعالم من حوله متصفة بالشمول، وأن يدرك إدراكاً تاماً أن وجوده متصل إلى ما بعد هذه الحياة الدنيوية.

فعمران الأرض وإقامة الحق والعدل عليها بين عباد الله يكمن فيه معنى التعبّد الذي يحقّق أمانة الخلافة الواجبة على بني الإنسان.

ويرى علماء العمران أن يتأمل كل منّا فعل الإنسان على الأرض، أي تاريخه عليها وإنجازاته، فذلك أدعى إلى فائدة أكبر من أجل بناء حياته الروحية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية.

لذلك كان التاريخ في القرآن الكريم مصدراً للعبرة والعظة التي يجب أن يتلمّسها الإنسان في أخبار الأمم الماضية بتدبّر وإمعان.

وقد أكدت النصوص القرآنية ما في هذه الحياة الدنيا من متاع وغرور إذا تناسى أو جهل الإنسان نفسه، وفصل بين هذا العالم وبين حقيقته الكبرى، وهي أنه خلق الله.

وما يلاحظ أن في تاريخ الإنسانية أمم نسيت هذه الحقيقة، واقتصرت

فلسفتها للحياة على هذا الوجود الموقوت، فقدت بذلك المبدأ الأخلاقي الذي هو زيت العطاء الخيّر، وقوامه ونماؤه.

وقد قضى الله سبحانه وتعالى بسعادة بعض الأمم وشقاء بعضها وفقاً لما قدّم أبناؤها من عمل طيب أو خبيث، والفعل الإنساني في التاريخ، والتفاعل الإيجابي أو السلبي مع مجرى الأحداث، والفاعلية الروحية، كل ذلك سبّبَ للتاريخ نتائجه، وللبشرية مصيرها، والناس بذلك المعنى القرآني هم صانعوا تاريخهم.

وما يهمّنا بيانه والتأكيد عليه هو الفائدة المرجوّة من التاريخ، أو بعبارة أوضح العبرة من التاريخ والعظة المتلمّسة من التاريخ.

ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات الكريمة تكشف عن طبيعة الاستعمال القرآني لها، نذكر بعضها على سبيل الذكر لا الحصر، منها: قال تعالى:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾[1].

وقال أيضاً: **﴿إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾**[2].

وقال أيضاً: **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**[3].

وقال أيضاً: **﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم من بطونها﴾**[4].

هذه الاستعمالات المختلفة لكلمة عبرة تصب كلها في أصل واحد، فيه إيحاء الحركة، والانتقال الجسدي والعقلي والنفسي من الحالة الخفية إلى الحالة الجليّة بعد توجيه الجهد الكافي لكشف الهدف المنشود.

وهكذا نجد في كلمة «عبرة» ما يفيد تجاوز باطن الشيء الخفي إلى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

ظاهره الجلي الذي هو غايته وهدفه، يمكن أن تدركه الأبصار والألباب ببعض من الجهد.

والمسلمون ـ على أساس هذا التفسير لكلمة «عبرة» في القرآن الكريم ـ مدعوون إلى البحث عن معنى التاريخ، فعليهم الكشف عن المعنى الدقيق والخفي لكل ما حدث في تاريخ البشرية ليستنتجوا فكرة الدرس الإنساني في التاريخ.

وكما نرى أن القرآن الكريم يثبت معنى معيّناً علينا أن نتلمّسه دائماً لنعرف مغزى وجودنا على هذه الأرض المباركة.

وهذه سُنّة الله في خلقه، وطريقته في تدبير شؤون الكون ونظامه. يقول تعالى:

﴿سنّة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[1].

ويقول سبحانه: **﴿يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾**[2].

وهناك تظهر مسؤولية الفرد ومسؤولية الجماعة في صناعة تاريخهم، وسنة الله في التاريخ تقضي بحتميّة المصير.

فقد ظهرت أمم كبرى مختلفة كان لها حضارات نشطت وازدهرت ثم أفسد أهلها فحقّ عليها العذاب وقضي عليها بالدمار، يقول تعالى:

﴿وقوم نوح لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعاداً وثموداً وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكلاًّ ضربنا له الأمثال وكلاًّ تبّرْنا تتبيرا﴾[3].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ وأصحاب الرس: أصحاب البئر الذين رسوًا نبيهم ودسوه فيها.
وتبرنا تتبيراً: أهلكنا إهلاكاً عجيباً.

ففناء بعض الحضارات السابقة يؤكد قانوناً تاريخياً محدداً، والمسؤولية تقع على عاتق المجتمع بكل ما يلحقه من خير أو شر، والتغيير الذي يحصل في المجتمعات يتمّ بلا ريب على أيدي الأفراد قال تعالى:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾(١) .

ولا يزال الكثير من الناس يُخدعون ويتوهّمون أن السعادة وسعة الثروة وكثرة البنين لا تُسلب منهم، وكما فضّلهم الله بها على غيرهم بابتدائها كذلك فضلهم بدوامها عليهم، قال تعالى:

﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين. قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٢) .

ثم ظهر أقوام آخرون يرون أن الله قد فضّل بعض أجدادهم على غيرهم بنبوّة فآتاهم السيادة والملك والسعادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إلى مللهم، كما كان شأن بني إسرائيل في تفضيل أنفسهم على جميع الشعوب فيتوهّمون أنهم هم شعب الله المختار، وما زال هذا الاعتقاد والغرور فيهم حتى اليوم.

حتى بيّن الله خطأهم، وأثبت لهم أن نعمه سبحانه وتعالى منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات وعقائد وأعمال تقتضيها، فمادامت هذه الأخلاق الطيّبة يتمتّعون بها، ويقدّرون نعمتها بقيت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعاً بغير ظلم ولا ذنب منهم، فإذا هم غيّروا ما بأنفسهم من تلك الأخلاق وتلك العقائد، وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غيّر الله ما بأنفسهم، وسلب نعمته منهم، وحجب بركته عنهم.

من هنا تتأكّد مسؤولية المجتمع في تقدّم الحضارات أو انهيارها، فالتقدم والنماء والخير والفلاح يتحقق وينمو ويستمر إذا التزم القوم بالمبادىء الأخلاقية والقيم الروحية التي تنصّ عليها الشريعة الإسلامية.

---

(١) سورة الانفال، الآية: ٥٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٥ ـ ٣٦.

فهذه هي المبادىء السليمة، والقواعد الحصينة التي تكفل للأمة وحدتها وقوّتها وسلطانها، وتكون هي التي عناها الله «خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر».

أما إذا انحرفت عن الخط الرسالي، وظلمت وجارت، فإنها سوف تنهار ويذهب ريحها، وبذلك تكون قد تخلّت عن حمل أمانة الخلافة، ولكن هذا الانهيار لا يتم فجأة ودفعة واحدة ـ وهذه من حكم الله جلّ وعلا ـ بل يسبقه تمهيد ومقدمات، وقد جاء وصف بعضها في القرآن الكريم، قوله تعالى: **﴿وتلك القرى أهلكناهم لمّا ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾**[1] .

وكلّنا يعلم أن الحضارات التي تعاقبت على المجتمع البشري لم تكن أبداً وليدة فرد، ولا وليدة صدفة، إذ لو كان الأمر كذلك لتعرّضت هذه الحضارات للانهيار السريع.

ومن السنن الإلّهية في الحياة أن العاقبة في التنازع بين الأمم على الأرض للمتقين، أي الذين يتقون أسباب الفشل والخذلان ويتمسّكون بحبل الله، ويستعينون به سبحانه، فبيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[2] .

فمن هم العباد الصالحون، المؤمنون، المتقون، الطاهرون؟ هم ولا ريب الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله الخيّرة وسننه في عمارة الأرض، وهو ما يسمّيه علماء الاجتماع بقاء الأصلح والأفضل والأمثل في كل تنازع.

هذه هي بعض السنن الإلّهية في الاجتماع الإنساني، وهذه هي بعض الدورات المتتالية في قيام حضارة وانهيار حضارة عبر التاريخ، ولقد اعتمد قيام هذه الحضارات وسقوطها على فكرة الصراع بين الحق والباطل، أو بين

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

الخير والشر، وذلك منذ وجود الإنسان على الأرض، فعليه أن يقاوم قوى الشر المتمثّلة بالشيطان، بإرادة قويّة وعقل مستنير، وقد استمرّ هذا الصراع بين الإنسان والشيطان وما زال حتى الآن يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس، فوجود الشيطان تحدٌّ روحي لبني البشر المؤمنين، وعليهم أن يواجهوا هذا التحدّي عملاً بقوله تعالى:

﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[1].

وهذه هي المواجهة التي يتحقق بها معنى الخلافة، وكما ترى أن الله عزّ وجلّ لم يترك عباده وحدهم في معركتهم مع الشيطان على هذه الأرض، بل أمدّهم بشريعته، شريعة السماء العادلة وصراطه المستقيم.

وهكذا كان الأنبياء في هذه الحضارات الصاعدة إلى القمة الروحية المثالية المؤيدة بالعناية الإلّهية، والمستهدية بنوره سبحانه في صراعها ضد الظلم والشر والطغيان، فكانت دائماً في حركة مُتقدمة في خط متوازن صاعد لا رجوع فيه إلى الوراء.

لقد كان الوحي الإلّهي في كل حضارة نورها الهادي الذي تنبعث منه ملامح المجتمع الجديد الذي لا بد له من صراع مرير ضد قوى الظلم والطغيان، ويمضي متقدّماً ومركّزاً قواعده الثابتة وركائزه المتينة ماضياً في البناء والتقدم والازدهار.

وبعد الازدهار والتقدم قد يجنح هذا المجتمع إلى نسيان ذاته ونسيان أمانة الخلافة المنوطة به، ويستمرّ النسيان فيتحوّل إلى نكران، ثم يستمر النكران فيتحول إلى انحراف في الأخلاق، ومنه إلى انحلال حضاري وتخلّف اجتماعي وضياع لا مفرّ منه.

من هنا كانت حاجة المجتمع مرّة جديدة إلى وحي سماوي جديد يذكّر

---

(١) سورة الاعراف، الآية: ٢٧.

الإنسانية بحقيقتها، ويذكّرها بمسؤوليتها وأمانتها في خلافة الأرض، حتى ولد الهدى وبزغ نور الإسلام نور الرسالة، المحمدية خاتمة الرسالات، والله أعلم حيث يجعل رسالته وهو العليم الخبير.

وانطلاقاً من المفهوم الإسلامي فإن تاريخ الإنسانية يصبح حلقات من الانحلال والتجديد.

فمصدر الانحلال هو الجنوح عن الحق تحت تأثيرات فاسدة في هذه الحياة الدنيوية، كحبّ الأرض والطين، وجذب الأشياء إلى أسفل، وانحلال في القوى الروحية، وابتعاد عن منشئها وفطرتها وأمانتها.

ومصدر التجديد من السماء بلاغ الناس عبر الأنبياء المرسلين الذين أرسلهم الله بوحي من نوره ليجدّدوا الحياة الحرّة الكريمة، ويحيوا الناحية الدينية والروحية في قلوب الناس كل الناس.

وهذا مفهوم التاريخ في القرآن الكريم، يقوم بدورات حضارية متتابعة تهتدي كل دورة منها بنور النبوة، وكانت آخر الرسالات وكان خاتم النبيين نوراً هادياً إلى يوم الحساب.

لم يكن (ص) داعياً إلى عقيدة وشريعة فحسب، بل كان مؤسس حضارة إنسانية، حمل الرسالة الإلّهية، وقاوم الباطل وصارعه حتى صرعه وأهله، وانتصر الحق وزهق الباطل، ﴿**إن الباطل كان زهوقاً**﴾[1].

وكان الانتصار مظهراً من مظاهر البطولة الروحية، وقفزة عالية من قفزات الحضارة الإنسانية، وهذا هو مغزى التاريخ في الإسلام، الحق هو المنتصر في نهاية الصراع دائماً، ومن خلال هذا المعنى كان طموح الإنسانية في الإسلام إلى المثل العليا التي تعلو فوق الأعراف الاجتماعية والمبادىء الفلسفية والنظريات المذهبية، إلى قيم غيبية مطلقة، وشريعة كونية ترتبط بوجود العناية الإلّهية ارتباطاً مباشراً.

ومهما طال أمر الشرّ وتمادى أهل الشر فإن فلسفة التاريخ في الإسلام

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨١.

تقوم على تأكيد اتجاهه الصحيح في الماضي والمستقبل نحو قيم الحق والخير والنصر، والأنبياء في القرآن هم الذين اختارهم الله مظهراً لانتصاراته، ورفع كلمته وتثبيت شريعته، وجعل من مكذّبيهم مثلاً لمصير الشر والباطل، فسلّط عليهم ظواهر الطبيعة من طوفان وصواعق ورياح وطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل.

من أجل ذلك أصبح التاريخ في الإسلام مصدراً حضارياً تستمدّ منه قيم الأخلاق مضمونها الروحي، وتستلهم منه الإنسانية مستقبلاً مطمئنّاً متفائلاً سامياً.

ومتى يتمسّك المسلمون بطاعة الله تتحسن أمورهم، ويطمئنّون إلى مستقبلهم، وينتصرون على أعدائهم بإذن الله، مهما تمادى الظالمون فلن يفلحوا في نهاية الأمر، والإسلام دين شمولي جُعل للناس كافة.

ونلفت الأنظار إلى أمرٍ هام وهو أن الحكم على وجود التقدّم أو التخلّف لا يقاس بظواهر المدينية والقشور دون اللب، ولكن بجوهر النفوس، وأخلاق الناس، واتجاههم مع الله.

ومن اطمأنت نفسه إلى أن الله معه فلا غالب له، فالنصر مؤيّد من العلي القدير، والعمل من أجل إعلاء كلمته سبحانه وتعالى إنه العزيز الحكيم يثبت قلوب المؤمنين، ويلقى الرعب في قلوب الكافرين.

قال تعالى في غزوة بدر الكبرى حيث كانت أول مظهر لوعد الله تعالى بنصر رسوله (ص) ونصرة المؤمنين:

﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يُغشّيكم النعاسَ أمنة منه وينزّل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا

الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾[1]

هكذا تجلّت عناية الله بالمؤمنين في هذه الغزوة المباركة، فقد أيّدهم بنصره، بعد الاعتماد عليه والاستعانة به، وسؤاله النصر والتوفيق.

قال الطبري في تفسير إمداد الملائكة للمؤمنين:

«لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضاً، وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون ـ مدداً لكم ـ إلا بشرى لكم أي بشارة لكم تبشّركم بنصر الله إياكم على أعدائكم»[2].

فعلى المسلم أن يعتمد على عون الله ونصره وهدايته، لأن الله هو العزيز الغالب، والقاهر الذي لا يقهر، حيث يضع النصر في موضعه.

من هنا نرى الإسلام يسلّح الإنسان بقوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، ولا يتركه عنصراً سلبياً في نظامها، بل هو مخلوق مستخلف فيها، ليحقّق منهج الله في صورته الواقعية.

فلقد أعطي دوراً هاماً في عمارة الأرض وخلافتها وفي نظام الكون كله، ومنحه قدرة هائلة للعمل المثمر، والفاعلية الخيّرة، والتأثير الإيجابي، لكن ذلك لن يتم إلا في توازن تام مع الاعتقاد المطلق بالمشيئة الإلّهية وتفرّدها بالفاعلية الحقيقية في هذا الوجود.

لقد جعل الإسلام مسؤولية الإنسان المسلم الروحية أمام الله مباشرة دون أن يكون هناك واسطة من رجال الدين كما هو حاصل في الدول الغربية.

وبمثل هذا المفهوم لم تعرف الحضارة الإسلامية ذلك الصراع المشهور عند الغربيين بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، بل حقّقت التعاون المنشود بين الضمير الروحي والوعي الاجتماعي في وجدان الأمة وضميرها على أهون سبيل وأفضل النتائج.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٩ ـ ١٢.
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٢٨.

من الأدب الحسيني

نشأ الحسين(ع) في بيئة أدبية رفيعة المستوى، جده هو النبي محمد(ص) أفصح العرب، وأعلمهم، وأرقاهم، وأبينهم لساناً، وأقواهم حجة، وأرفعهم أخلاقاً: أدبه ربه فأحسن تأديبه.

وأبوه هو علي بن أبي طالب، ملتقى الذوق الأدبي والفني، فقد كان سيد الأدباء ومعلم البلغاء، وإمام الفصحاء صاحب نهج البلاغة، ينهل منه المتأدبون ويقتدي به المقتدون، يتحلى بقسط وافر من الذوق، مطبوع يحمده عليه المتذوّقون مهما طالت بينه وبينهم السنون، فقد كان أديباً حكيماً، وخطيباً مبيناً، يلتقي عنده الحق والجمال في القمّة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود.

والحسين هو ابن جدّه وأبيه، قالوا عنه

«لو خطب الحسين عليه السلام في موقف لو حضره قس بن ساعدة لحُصر وتلعثم، ولو شهده فصحاء قريش لخرّوا له سجداً، فلعمري إنه موقف يعجز عن المنطق فضلاً عن الخطابة، ولكنه ابن أبي طالب»[1].

وإذا تأملت كلمة عمر بن سعد:

«ويلكم كلّموه فإنه ابن أبيه، والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حُصر»[2].

لعرفنا أهمية خطبه في ذلك اليوم التي زعزع بها أركان جيش الكوفة،

---

(١) أئمتنا لعلي محمد علي دخيّل ص ١٩٧ ج ١.
(٢) المصدر نفسه عن أعيان الشيعية ج ٤ ص ٢٥٦.

فقد انحاز إليه منهم جمع كثير: كالحر بن يزيد الرياحي، وسعد بن الحارث، وأخيه أبي الحتوف، وأبي الشعثاء الكندي، والحرث بن امرىء القيس الكندي، وبكر بن حي بن تيم الله، وغيرهم...

كل هذا مما حدا بابن سعد التعجيل بالحرب، خوفاً من أن يقلب الحسين(ع) الجيش بأسره.

والإمام الحسين(ع) هو إنسان موهوب ذو حساسية خاصة تستطيع أن تلتقط الألفاظ الخفية اللطيفة، التي لا تدركها عقول الناس العاديين، ويضعها في مكانها اللائق المناسب، وليس ذلك بكثير على سيد الشهداء(ع) فعقيدتنا في الأئمة المعصومين أن يكونوا أجمع الناس للفضائل والمكارم، والعلوم والمعارف.

والإمام الحسين(ع) هو خطيب ذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحوّل إحساسه بالحياة وتفاعله معها إلى لون من الأداء الجميل والقول البليغ الذي يحرّك في النفس حاسة الجمال، وفي الفكر التأثير والإقناع.

وللذوق الأدبي بسيرته ملتقى، كملتقى الفكر والخيال والعاطفة.

وسوف نجتزىء من خطبه ورسائله ووصاياه وحكمه ببعض القبسات الحسينية علّنا نفي بالغرض المطلوب.

خطبه

قال في يوم عاشوراء بعد أن صف ابن سعد أصحابه للحرب:

أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ، وحتى اعتذر إليكم من مقدمي هذا وأعذر فيكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، واعطيتموني النصف من أنفسكم، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوني النصف من أنفسكم **﴿. . . فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾**[1].

ثم تابع قول الله تعالى:

﴿إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾[2].

ثم قال:

الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته، والشقي من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد اسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد صلى الله عليه وآله، ثم إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٩٦.

لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين.

أيها الناس، انسبوني من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟!

ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟!

أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟!

أو ليس جعفر الطيار عمي؟!

أو لم يبلغكم قول رسول الله (ص) لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟!

فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحق، فوالله ما تعمدت الكذب منذ أن علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرُّ به من اختلقه، وإن كذّبتموني فإن فيكم من إذا سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري[1] وأبا سعيد الخدري[2] وسهل بن سعد الساعدي[3] ، وزيد بن أرقم[4] ، وأنس بن

---

(١) جابر بن عبدالله: هو ابن عمر الأنصاري، أبوه أحد النقباء الاثني عشر، استشهد يوم أحد، وجابر وأبوه من السبعين الذين شهدوا العقبة الثانية. شهد جابر تسع عشرة غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجابر من علماء الصحابة وأهل الفتوى منهم، كانت له حلقة من مسجد رسول الله(ص) لأخذ العلم، وروى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً، كانت وفاته سنة ٧٨هـ عن ٩٤ سنة.

(٢) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري، من أعيان الصحابة ووجوهها، مات بالمدينة سنة٦٣هـ.

(٣) سهل بن سعد: هو ابن سعد بن مالك بن خالد الخزرجي الأنصاري من مشاهير الصحابة، كان اسمه حزنا فغيّره النبي (ص)، مات بالمدينة سنة ٩١ هـ، قال الواقدي: عاش ١٠٠ سنة.

(٤) زيد بن أرقم: بن زيد بن قيس بن النعمان الخزرجي، غزا مع النبي (ص) سبع عشرة غزوة، وهو الذي رفع إلى الرسول (ص) عن عبدالله بن أبي بن سلول قوله: لئن رجعنا

مالك[1]، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!

ثم قال عليه السلام: فإن كنتم في شك من هذا القول، أفتشكّون في أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم.

ويحكم اتطلبوني بقتيل قتلته؟ أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص جراحة؟

فأخذوا لا يكلّمونه، ثم قال:

أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث[2]: أولاً تنزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه.

إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، فأكذبه عبدالله، فأنزل الله تصديق زيد بن أرقم.

شهد زيد صفين مع الإمام علي بن أبي طالب (ع) وهو معدود من خاصة أصحابه.

مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ.

(١) أنس بن مالك: هو ابن النضر الأنصاري الخزرجي خادم النبي (ص) مات سنة ٧١ هـ وعمره ١٦٣ سنة.

(٢) الأشعث بن قيس الكندي: هو أحد المرتدين بعد وفاة رسول الله (ص)، روى السيد الرضى في نهج البلاغة: كان الإمام (ع) على منبر الكوفة يخطب فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث. فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك. فخفض عليه السلام بصره فقال: ما يدريك ما عليّ مما لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين. حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منها مالك ولا حسبك. وإن امرءاً حلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحريّ أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد.

يشير الإمام عليه السلام إلى غدره بقومه حتى قتل منهم ثمانمائة.

وابنه قيس قاتل مسلم بن عقيل رضوان الله عليه، وابنته جعدة سمّت الإمام الحسن (ع).

فقال (ع): أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد.

عباد الله، إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم إنه (ع) أناخ راحلته فعقلها عقبة بن سمعان[1].

وبعد خطبتي برير بن خضير الهمداني وزهير بن القين خرج إليهم الحسين(ع) ممتطياً فرس رسول الله (ص)، وقد أخذ مصحفاً ونشره على رأسه، فوقف بإزاء القوم وقال:

يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله، وسنّة جدي رسول الله (ص).

ثم قال: هل تعرفوني من أنا؟.

وأخذ يعدّد عن جده وأبيه وأمه وأخيه وعم أبيه حمزة وجدته خديجة، وعمه قالوا: قد علمنا ذلك، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً.

عند ذلك ضاق ذرعاً بهم وقال عليه السلام:

تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحا، أحين استصخرتمونا والهين، فاصرخناكم موجفين[2]، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم[3] علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً[4] لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلاّ لكم الويلات، تركتمونا والسيف مشيم[5]، والجأش طامن، والرأي لمّا يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا[6]، وتداعيتم اليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها،

---

(١) يوم الحسين (ع) لعلي محمد علي دخيّل ص٢١.
(٢) موجفين: مسرعين في السير.
(٣) حششتم: أوقدتم.
(٤) إلباً: مجتمعين.
(٥) مشيم: مسلول.
(٦) الدبا: الجراد.

فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونَبَذَة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنّا تتخاذلون؟!!!

أجل والله غدر فيكم قديم، وشجت عليه أصولكم، وتأزّرت[1] فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجى للناظر، وأكلة للغاصب، ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين: بين السلّة[2] والذّلة، وهيهات منّا الذّلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد، وخذلان الناصر.

ثم قال (ع): أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهدٌ عهده إليَّ أبي عن جدي رسول الله (ص) ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾[3] . ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾[4] .

ثم رفع يديه نحو السماء قائلاً:

اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف[5] ، يسقيهم كأساً مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير.

ثم قال عليه السلام:

والله لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه، قتلة بقتلة، وضربة بضربة وإنه

---

(١) تأزرت: أي نبتت عليه فروعكم.
(٢) السلّة: استلال السيوف.
(٣) يونس: ٧١.
(٤) هود: ٥٦.
(٥) الحجاج بن يوسف الثقفي.

لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي.

واستدعى عمر بن سعد فدعي له، وكان كارها لا يحب أن يأتيه، فقال (ع):

أي عمر، أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعي بلاد الري وجرجان!! والله لا تتهنّأ بذلك، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضاً بينهم.

فضرب بوجهه عنه ابن سعد مغضباً[1].

هذه خطبة هامة من خطب الحسين بن علي بن أبي طالب سيد الشهداء وسيد الخطباء، ولهذه الخطبة في الخطب الحسينية ما للقلب في الجسم الكبير من منزلة، بالقلب يقوّم الجسد كله، منه حركتان تتناوبان أخذاً وعطاء فتكون عنهما الحياة عبر الدورة الدموية الدائبة، يجول دم القلب في كل أنحاء الإنسان ليغذيه ويدافع عنه ويبنيه عبر الشرايين والأوردة، فإذا كفّ عن إشرافه كفّت الحياة أنسامها عن الهبوب في أشواق المحبين.

ولكن هل الإنسان جسد يجول به دم القلب فحسب، أم هو وعاء كريم تعبئه الحياة بأنسامها العلوية السامية؟

تأتي منزلة هذه الخطبة الحسينية جواباً شافياً لما نريد بيانه.

إذا تعب جيل من الأجيال وقعدت به الهمّة عن التطور عاد علماؤه ومفكروه إلى الينابيع الأصيلة، ليستمدّوا منها نسغ الحركة المنمية ودم العزيمة المطوّرة.

هؤلاء المفكرون يصنعون تاريخ الإنسان ليبعثوا الحياة في جيلهم، وينهضوا بالإنسان المنحرف والمستضعف والضال للعودة إلى انسانيّته الكريمة

---

(١) يوم الحسين (ع) لعلي محمد علي دخيّل ج ١ ص ٢٨، وتاريخ ابن عساكر ج ١٣ ص ٧٤.

التي فطره الله عليها، كل ذلك يتم عن طريق الأنبياء والأوصياء والعلماء والمصلحون الاجتماعيون.

والحسين (ع) هو واحد من هؤلاء، مصلح اجتماعي، وعالم معصوم، ووصي ابن وصي ابن نبي صلّى الله عليه وآله وسلم، لم يكن يوماً طالباً لسلطان، أو رئاسة، أو مال، أو لذة من لذائذ الدنيا، بل هو صاحب مقام آلهي، وداع إلى الله سبحانه وتعالى.

إن مهمة من يؤرخ للأدب معانقة باطن النصوص لرؤية «الإنسان التاريخ» الذي يبدع وجوده ويفسره ويطوره بالمعاناة الحية، لذلك نحن بحاجة لهذا العالم الجديد المتطوّر، عالم الإنسان الحي، عالم الجوهر.

لكن العناق هذا يلزمه طاقة هائلة من التعاطف والمعرفة والمحبة في إهاب من العزيمة المتقدة بالطموح والبصيرة النافذة.

فكيف نعانق النصوص الحسينية؟

بالرغم من اختلاف المواضيع نلاحظ أن الأسلوب الخطابي الغني للإمام الحسين (ع) هو واحد في جميع خطبه، ولقد رأينا أن نتولّى هذه الخطبة ونُنعم في درسها وتحليلها محاولين أن ننفذ إلى روح ذلك الأسلوب الحسيني المستمد من الأسلوب العلوي، والذي لا يقل إعجازاً في أحيان كثيرة عن الحديث النبوي وخطبه.

باعث الخطبة:

في عاشوراء بعد أن صف ابن سعد جيشه للحرب بأمرٍ من يزيد الذي طلب من الحسين مبايعته وإطاعته أو يقتل، دعا الإمام الحسين (ع) براحلته فركبها ونادى بصوت عال يسمعه جلّهم، وغايته أن يعظهم ويشرح سبب مجيئه إليهم من المدينة إلى كربلاء.

مضمون الخطبة:

أولاً: - المعاني المهمة التي تضمّنتها الخطبة تبدو في مجملها شائعة يسيرة الفهم، إلا إننا ونحن نتلوها وهي في حلّتها البلاغية، نشعر أننا أمام أثر فني متكامل، بالرغم من تصدّيه (ع) لجماعة قلّما صفت ذائقتها الفنية، وإن عناية الإمام بالأداء الأدبي لم تصرفه عن العناية بالواقع النفسي، كما أن نقمته عليهم لم تثنه عن التوسل بما يثير عواطفهم، ويصوّر ضلالهم وعنادهم وجبنهم.

وقد بدت أفكاره في البدء وكأنّها أفكار واعظة، تحدّث إليهم بأمور دينهم، وأن الشيطان استحوذ عليهم فأنساهم الحق وأنصار الحق، فتبّاً لهم ولما يريدون.

ثانياً ـ الترهيب:

عمد الإمام الحسين (ع) إلى تذكير القوم بنسبه وشأنه ومنزلته علّهم يرجعوا عن غيّهم ويحاسبوا أنفسهم، فهو ابن نبيّهم وابن وصيّه وابن عمه وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه، وهو أخو الحسن.

قال عنهما جدهما الرسول: سيدا شباب أهل الجنة.

أما في كل هذا حاجز عن سفك دمه؟!

ثالثاً ـ إصرار القوم على الانتقام:

قال الأجلاف الطغاة، المتحجّرة قلوبهم: نحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً.

عندها أيقن الإمام الحسين، فإما أن يبايع الفاجر العاهر وإما أن يقتل، ولا يكفيه مجرد السكوت، فالجماعة سيطر على قلوبهم حب الدنيا والمال الذي وعدهم به يزيد، ونسوا ذكر الله وعبدوا الشيطان بدل عبادة الله. فهل يترك الإمام الحسين (ع) وظيفته الآلهية ومسؤوليته تجاه أمته وتجاه أبيه وجده،

وتجاه الله عزَّ وجل، ويصير من أتباع يزيد، ويصبح مطيعاً ومؤيداً ليزيد بعيداً عن التقوى؟!

أبداً، إنه الإمام المعصوم، ابن الإمام المعصوم نذر نفسه كأبيه وجده من أجل إصلاح الأمة الإسلامية وهداية الناس إلى سواء السبيل.

في هذا الجزء من الخطبة اعتمد الإمام على الألفاظ المتكررة لتتركز في أذهان السامعين، وقد توسل بالأفكار العارية شبه المجردة، ولكن النتيجة كانت عارية أيضاً من الإيجابية الصحيحة وإذعان القوم لرأيه وحكمه.

رابعاً ـ النقمة:

في هذه المرحلة يئس الإمام من إصلاح القوم لتحجّر قلوبهم وبعدهم عن أتباع الحق، فثار عليهم وأنّبهم:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحا، أحين استصرختمونا والهين، فاصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم؟!

فسحقاً لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن» لقد بدت النقمة مبثوثة في طيّات هذا الجزء من الخطابة بصورة واضحة، نقمة ثورية تقريرية تلتفت إلى واقع الأمور وتنقله، وقد بعثت به إلى ذلك الغلو والتكرار عندما أعلن لهم أنهم عبيد الأمة، ونفثة الشيطان، وزادت النقمة، وطفح الكيل، فظهرت في الأثر الفني المتولد من المضاعفات العميقة البعيدة الغور، التي تقمّصت في ظلمة الوجدان، وأعلنت عن نفسها دون أن يقصد الفنان الأصيل إلى ذلك.

وإذا ما تمثّلنا الإمام في هذه اللحظة من خطبته لرأينا في قسماته تربّداً وتجعّداً لن يعتم إلى أن يتحوّل إلى شرر يتطاير من عينيه!

«ألا إن الدعي[1] ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلّة وبين الذلّة، وهيهات منّا الذلة».

هو شعار طرحه الإمام من خلال ثورته المباركة، أراد أن ينبّه الأمة من خلاله إلى أصالتها الرسالية، وعقيدتها القرآنية، لأن «العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» والمحاولات الأموية التي سعت إلى إفراغ الأمة من محتواها العقائدي هي محاولات جاهلية يرفضها الإسلام ويرفضها المؤمنون، أراد الحسين أن يصحّح مفهوم العزّ والذل في شعاره هذا، فيزيد ومن قبله معاوية والأسرة الأموية ساروا على خطى السنّة الفرعونية والقارونية والجاهلية العمياء.

فقد فرضوا الذل على المسلمين وألبسوهم هذا الثوب البعيد عن إسلامهم وإيمانهم، فبعض الناس كعمر بن سعد وغيره... تنازلوا عن هذه العزة والكرامة من أجل حفنة من المال قدّمها الطاغية فألجمهم عن قولهم الحق واستعبدهم.

وبعض آخر استهواهم بالمناصب والمراتب فذلّوا له وأطاعوه طاعة الحيوانات، فتعطّلت حواسهم وإدراكهم وتفكيرهم.

وقسم ثالث رفضوا كل أعطيات الحاكم الظالم، ونظروا إلى الحق بعين الإسلام التي تأبى الذل والهوان، وترفض المساومة والاستعباد على مقومات عزتها وكرامتها، وأبت أن يقودها يزيد وأتباعه، ومن هم على شاكلته، لأن الذلّ لا يسمح به الله لعباده، فإذا كانت العزّة بهذا العمق وهذا التأصّل فهل يتنازل عنها سيد الشهداء وابن الأكرمين ليزيد الدعي ابن الدعي!!.

---

(١) الدعي: هو المنسوب إلى غير أبيه وقد كانوا يفعلونه حتى جاء الإسلام فجعل الولد للفراش وللعاهر الحجر.

خامساً ـ الأدلة والبراهين:

بدأت الخطبة تجري بأسلوب تصاعدي يتدرج فيها الإمام بإظهار نقمته درجة درجة، حتى إن الفكرة اللاحقة تطأ الفكرة السابقة وتسامى عليها، ويكاد لا يصل إلى المقطع الأخير حتى يكون قد عبّر عن جميع ما كان يضطرب في نفسه، ويلهج في صدره من أفكار وآراء معتمداً على البراهين المنطقية والآيات القرآنية:

﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾.

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾.

هذه الأدلة القاطعة، والبراهين المنطقية، ضرورية للتأثير في الخطابة، لأنها تضع السامع أمام واقع يشاهده ويتلمسه بحواسه، وتسهم في إقناعه عن طريق العقل والمنطق.

وهكذا نرى الأدلة والبراهين وإدخال الآيات القرآنية شواهد دامغة تمثل اللحمة في الخطبة، وقد ظهرا في خطب الإمام علي (ع) كما ظهرت أيضاً في خطب النبي (ص) وهي تدلّ على أن الخطبة أصبحت أقرب إلى الحياة الواقعية وأكثر ارتباطاً بعضها ببعض من الخطب الجاهليّة، المتشبّهة في أحيان كثيرة بأسجاع الكهّان.

سادساً ـ المقابلة والتمثيل:

كما استعان الإمام بالأدلّة الشائعة في الخطابة آنذاك، فإنه توسل أيضاً بما يدعونه «المقابلة»، فهو إذا أراد أن يمثّل حبّهم الدنيا والمناصب وتهافتهم عليها وصفه بأنّه كتهافت الفراش الذي يسرع إلى النور ليحترق به، وهذا دليل رعونتهم وضلالهم ونهايتهم المحزنة، لذلك دعا عليهم دعاء من قلبه لأن

يحبس الله عنهم المطر، ويبعث عليهم سنين محل وضيق كسنّي يوسف، ويسقيهم كأساً مصبّرة لأنهم خذلوه وكذبوه.

والخطيب الناجح في خطبته هو الذي يعتمد المنطق في تحليله وأمثلته وقد يتحقق الإبداع الخطابي ويظهر في قدرة الخطيب على اكتشاف النتائج التي تستميل عقول السامعين وتؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً.

سابعاً ـ التجربة الوجدانية:

إن النتيجة التي انتهى إليها الإمام (ع) لا تدلّ على واقع المسلمين بقدر ما تدلّ على واقعه، فبعد أن ابتلى بقوّاد يزيد، أمثال عمر بن سعد وغيره، وجنودهم الذين أعمى حب الدنيا قلوبهم، وباتوا لا يفكرون إلا بالغنائم والمال والمناصب، تأثر الإمام الحسين كثيراً لواقعهم المرير وأشفق عليهم، قال لعمر بن سعد:

أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعي بلاد الري وجرجان!!!.

فالبلاغة في هذا المقطع لا تعتمد على ابتكار أفكار جديدة، بل في التعبير عن الأفكار من خلال حالة نفسية وجدانية وأسلوب نفسي منطقي يجعلها تنفذ إلى نفوس السامعين، وتؤثر في قلوبهم حتى تصبح الحالة التي يعانونها شبيهة بحالة الخطيب نفسه، وهذا منتهى ما تتوصّل إليه بلاغة الخطابة حيث حقّقت هدفها في إيصال ما تبغيه إلى قلوب السامعين وعقولهم.

ثامناً ـ الجهر بالنقمة:

بعد أن عرض الإمام (ع) الوقائع دون أن يعلن صراحة نقمته على القوم الظالمين الضالين، وإن كان السامع يشعر بها شعوراً مباشراً حياً، من خلال أسلوبه وبعض ألفاظه، أما الآن فقد آن الأوان ليظهر تلك النقمة جهراً بعد أن ضاق ذرعاً بهم فقال (ع) بعد أن رفع يديه إلى السماء:

«اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف،

وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة».

ثم قال لعمر بن سعد: ... فاصنع ما أنت صانع وكأنّي برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضاً بينهم.

كل هذا الدعاء المؤثّر يرمز إلى أن انتصارهم هو انتصار الباطل على الحق، ويؤدي بهم إلى تمثّل الخزي الذي لحق بهم.

ولا شك أن الإمام الحسين لم يكن يتمرّس بالمقابلة الخطابية تمرس الخطباء المعروفين في عصره، وذلك لأن الفنّان العبقري يضمر في نفسه الأصول الفنّية ويدأب على العمل بتأثيرها دون أن يعيها، فهيْ تحدس له حدساً وجدانياً غامضاً من خلال تمرّسه بالأثر الفني، وقد وفّق الإمام بهذا الأسلوب الداخلي للخطابة بالرغم من أنه لم يتمثله تمثلاً نظرياً كخطباء اليونان.

تاسعاً ـ الغيظ واليأس من القوم:

يظهر واضحاً الحالة التي يعبر عنها الإمام في النهاية وهي مفعمة باليأس من القوم الضالين، فقال (ع):

ألا وإني زاحف بهذه الأسرة، على قلّة العدد، وخذلان الناصر... والله لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه، قتلة بقتلة، وضربة بضربة، وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي... وأنت يا ربنا عليك توكلنا وإليك المصير.

أسلوب الخطبة وصفاتها:

١ ـ الألفاظ: معظم ألفاظ الخطبة دانية المعنى متداولة، وهي وإن فصلها عنّا زمن بعيد فليست عسيرة الفهم، لكنها تنمّ عن تضلّع الإمام باللغة وتخيّره منها اللفظة المباشرة التي تصل إلى أذن السامع بيسر وسهولة.

٢ ـ العبارة: تلوّنت عبارات الخطبة بألوان نفس الكاتب وانفعالاته، وهي تتراوح بين الركود والعنف والصخب، وقد اعتمد فيها التعجب والنداء والاستفهام الإنكاري، والتمنّي، وأفعل التفضيل، والأمر المطلق، بالإضافة

إلى الأسجاع والجناس والطباق، وأكثره جاء طبيعياً دون تعمّد.

وهو يعني أن الخطيب يعيّن المعنى في لفظه ثم يخبر عنه وينعته بعد أن يجمع عليه الأفكار والخواطر، مثل قوله: ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟...

ثم تتوالى الجمل بالنعوت، وهو مقطع تقريري هادىء مستكين (المقطع الأول).

٣ ـ الصورة والفكرة: عندما يمتنع عقل الخطيب عن إيضاح ما يعتلج في صدره من خواطر تتولّد الصورة ليجسدها بمشهد أو حادثة أو مثل، وهذه الخطبة تراوح بين الأفكار الذهنية المتحركة في إطار العبارات الإنشائية: كالتمنّي والاستفهام والنداء والتعجّب، ففي قوله:

«لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد» نرى هنا توحيداً بين المشهد الحسّي والمضمون النفسي، فالذليل يعطي بيد صاغرة، والعبد يفرّ من المعركة خوفاً من القتل لأنه لا يقاتل عن اقتناع بعقيدة أو مبدأ.

وهذا يفيد أن الإمام كان يستفيد من تجاربه وخبراته في العالم الحسي وما يقابلها في عالمه النفسي.

٤ ـ الإيقاع: الإيقاع بالنسبة إلى الخطبة كالوزن والقافية بالنسبة إلى الشعر، وإذا كانت الخطبة من الفنون النثرية في ظاهرها فإنها في روح أدائها أقرب إلى الشعر لصدورها عن الإنفعال وأخذها بالصور اللفظية والخيالية، وبخاصة لأنها تهدف إلى التأثير والإنفعال، والجذب والاقتناع.

والإيقاع في الخطب كان متداولاً ومعروفاً في ذلك العصر، عرف في الجاهلية عبر أسجاع الكهان الظاهرة الصنع، ومن أهم مقوّمات الإيقاع:

ـ الجناس والطباق والأسجاع: مثل: فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال... تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، ثم سللتم علينا سيفاً لنا في

أيمانكم، وحششتم علينا ناراً. . .

ـ **التوازن في الجمل**: فالمغرور من غرّته، والشقي من فتنته ـ فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها ـ وأحلّ بكم نقمته وجنّبكم رحمته ـ ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟!.

ـ **تشابه صيغ الألفاظ**: المغرور من غرّته، والشقي من فتنته ـ نقمته ورحمته ـ ألست ابن وصيه وابن عمّه والمصدق لرسوله ـ وشجت عليه أصولكم وتأزّرت فروعكم ـ وأنوف حميّة ونفوس أبيّة ـ طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ـ **التكرار**: قد يعمد الخطيب إلى التكرار تعبيراً عن إلحاحه بالفكرة وتأكيده لها: قبلتم عذري، وصدّقتم قولي، واعطيتموني النصف من أنفسكم. . .

ولم تقبلوا منّي العذر، ولم تعطوني النصف من أنفسكم.

وأحلّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته ـ يا عبيد الأمة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفىء السنن. . . وكل هذه المعاني لها دلالة واحدة وإن تغيّرت ألفاظها.

ولا يقتصر هذا التكرار على غايته المعنوية، بل له غاية إيقاعية من توافق صيغ الألفاظ وتركيب الجمل، وهذا ما يعطي للخطبة وقعاً مستساغاً للسامعين.

الخلاصة: يهدف الإمام الحسين (ع) في خطبته هذه لنزعات ثلاث وهي: النزعة الدينية، والنزعة الاجتماعية، والنزعة البلاغية.

وقد أدى الإمام غرضه في النزعات الثلاث دون أن تطغى إحداها على الأخرى، وإن اشتهر الإمام الحسين في الدين بتقواه فقد اشتهر أيضاً في الأدب ببلاغته، وفي السياسة ببطولته، ولعل الخطب التي ألقاها وإن كانت أقل من خطب أبيه وجدّه عدداً فلا تقلّ عنها صدقاً وبلاغة وتأثيراً.

وقد خطب في المقاتلين، وخطب في المؤمنين، فظهر حيناً بروح المتقشّف الورع، المتفقّه بأمور الدين، وظهر حيناً آخر بروح الفروسيّة الحقّة والبطولة النادرة، والشهادة الفريدة من نوعها في التاريخ الإنساني، وبالرغم من اختلاف المواضيع فإن أسلوبها الفني واحد.

نظر الحسين (ع) للحق بعين الله، وعمل مجاهداً من أجل إعلاء كلمة الله وتثبيت شريعة الله، فلم يخرج لا أشراً ولا بطراً، وإنما خرج من أجل الإصلاح في أمة جدّه التي ضلّلها معاوية بن أبي سفيان، وتابع بعده ابنه يزيد في الإنحراف والظلم والضلال، فكان لا بد للإمام الحسين المعصوم إلا أن يقوم بالمسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقه، فقال مصرّحاً في نهاية هذه الخطبة:

«عهد عهده إليّ أبي عن جدي رسول الله (ص)».

رسائله

كتب الحسين (ع) عدّة كتب اخترنا منها كتابه إلى معاوية بن أبي سفيان وفي هذا الكتاب صورة صادقة عمّا أصاب الأمة الإسلامية من تعسّف واضطهاد طيلة الحكم الأموي الجائر والمنحرف عن خط الرسالة الإسلامية والكتاب هو جواب عن كتاب كتبه إليه معاوية، قال (ع):

«أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر أنه قد بلغك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، فإنّ الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلا الله.

وأما ما ذكرت أنه انتهى إليك عنّي، فإنه إنما رقاه إليك الملاّقون، المشّاؤون بالنميمة، وما أريد لك حرباً، ولا عليك خلافاً، وأيم الله إني لخائف الله في ترك ذلك، وما أظن الله راضياً بترك ذلك، ولا عاذر بدون الإعذار فيه إليك، وفي أوليائك القاسطين الملحدين حزب الظلمة وأولياء الشيطان.

ألست القاتل حجراً أخا كندة والمصلّين العابدين؟! الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلّظة، والمواثيق المؤكّدة، أن لا تأخذهم بحدث بينك وبينهم، ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم.

أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص)؟! العبد الصالح الذي أبلته العبادة فانحلت جسمه، وصفّرت لونه، بعدما أمنته وأعطيته عهود الله ومواثيقه، أما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جرأة على ربك، واستخفافاً بذلك العهد.

أولست المدّعي زياد بن سميّة؟! المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنه ابن أبيك، وقد [خالفت ما] قال رسول الله (ص) تعمّداً، واتبعت هواك بغير هدى من الله، ثم سلّطته على العراقين، يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم، ويسمل أعينهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك.

أولست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية أنهم كانوا على دين علي فقتلتهم ومثّل بهم بأمرك بعد أن كتبت إليه؟! ودين علي والله الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي جلست، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف أبيك الرحلتين.

وقلت فيما قلت: «أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد (ص)، واتق شق عصا هذه الأمة، وأن تردّهم إلى فتنة» وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعلم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد (ص) علينا أفضل من أن أجاهدك، فإن فعلت فإنه قربة إلى الله، وإن تركته فإني استغفر الله للذنبي، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري.

وقلت فيما قلت أني إن أنكرتك تنكرني، وإن أكدك تكدني، فكدني ما بدا لك، فإني لأرجو أن لا يضرّني كيدك فيّ، وأن لا يكون على أحدٍ أضرّ منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتلك هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان، والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا، قتلتهم مخافة أمرٍ لعلّك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا، فابشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب.

واعلم أن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالظنّة، وقتلك أولياءه على التهمة، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك الناس ببيعة ابنك غلام حدث، يشرب الخمر، ويلعب

بالكلاب، لا أعلمك إلا وقد خسرت نفسك، وبترت دينك، وغششت رعيّتك، وأخربت أمانتك، وسمعت مقالة السفيه الجاهل، وأخفت الورع التقي لأجلهم. والسلام[1].

الباعث على كتابة الرسالة:

أرسل معاوية رسالة إلى الإمام الحسين (ع) يطلب فيها إليه أن يبتعد عن موضوع السياسة ولا شأن له فيها، وقد كان يخافه على ابنه يزيد بعد موته، وكأنّه يحضّر لهذا الولد الضليل لتسلم الخلافة من بعده، وليس من عقبة كأداء عليه سوى الإمام الحسين، بما له من محبة وكرامة في قلوب المؤمنين، وبما يتمتع من شخصية فذّة، وعقل نيّر وعزيمة ماضية كحدّ سيف أبيه.

فرد عليه الإمام الحسين بهذا الكتاب، اجتزأنا منه ببعض الفقرات.

مضمون الكتاب:

بدأ بالرّد مباشرة دون أي تمهيد أو مقدمة، وهذا الاستعجال دليل واضح على سخط الإمام الحسين (ع) من تصرفات معاوية المنحرفة، وألاعيبه التي كان يعرفها منذ زمن بعيد، فقد كان يبطل الحق، ويعمل بالباطل، ويعطّل حدود الله من أجل السلطة والمال والحكم، وزخارف الدنيا الفانية.

ولم يكفه أن استلم الحكم اغتصاباً وزوراً بعيداً كل البعد عن الشريعة الإسلامية، إلا أنه يريد أن يورث كرسي الحكم إلى ابنه يزيد بعد موته مهمّا كلّفه ذلك من ألاعيب سياسية، وبرامج كلّها غش وخداع ونفاق.

خوف معاوية من نشوب الثورة الحسينية:

معاوية الداهية يعلم جيداً من هو الإمام الحسين (ع)، ويعلم أنه لا يسكت عن الظلم، ولا يهادن الظالمين، لذلك كان يتحسّب له، ويخاف من

---

(١) بحار الأنوار ج ١٠ ص ١٤٩.

قيام ثورة في أي وقت مناسب، يقودها الحسين بما له من محبة واحترام في قلوب الناس، ولا يخفى ما لمعاوية من عيون تراقب بحذر، وتوصل ما تراه إلى معاوية لقاء دريهمات معدودة، وإلى جانب هؤلاء هناك المشّاؤون والملاّقون والمتاجرون.

بيان مظالم معاوية: الإمام الحسين (ع) الذي تخرّج من مدرسة أبيه وجده لا يخجل من قول الحق، ولا يخاف من إظهار الحقائق مهما كان الثمن.

فقد أظهر على الملأ كل مظالم معاوية، وكل مخازيه وجرائمه وغدره، فقتل الأبرياء العابدين المصلّين، وغدر بالصالحين المؤمنين، وسلّط ولاته الظالمين على رقاب الناس الملحدين، حزب الظلمة وأولياء الشيطان.

إظهار النقمة العارمة: لقد طفح الكيل، وسال السيل، فردّ الإمام الحسين ردّاً عنيفاً مفحماً، ووضع النقاط على الحروف، وسدّ الطريق أمام كذب معاوية وترّهاته، منها أنه يخاف على الأمة الإسلامية من شقّ العصا! ويحرص عليها من وقوعها في الفتن! فيا سبحان الله من هذا الكلام الذي يقوله معاوية من لسانه، فماذا كان ردّ الحسين (ع)، قال:

«إني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك» فأنت الداء، ومنك الفساد، ومنك بلوى المسلمين!.

وليس لي إلا أن أجاهدك[1] «فإن فعلت فإنه قربة إلى الله، وإن تركته فإني استغفر الله لذنبي».

جرأة حسينية وموقف حسيني:

قال معاوية محذّراً وهو على عادته يراوغ ويحذّر ويصطاد في الماء العكر، قال الحسين (ع): وقلت فيما قلت أني إن أنكرتك تنكرني، وإن أكدك تكدني.

---

(١) نفصّل عدم قيام الثورة الحسينية في عهد معاوية في فصل آخر بإذن الله.

فماذا كان جواب الإمام؟ بجرأة تامة وصراحة كاملة قال:

«فكدني ما بدا لك، فإني لأرجو أن لا يضرّني كيدك فيَّ، وأن لا يكون على أحدٍ أضرّ منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك، وتحرّصت على نقض عهدك».

اعمل ما تريد، فإن الأذى الذي تفكّر فيه سوف ينقلب عليك وينالك منه، وطابخ السم آكله، وأنا لا أخاف إلا الله، ولا أعمل إلا في سبيل الله، وانظر إلى الحق بعين الله وأدافع قدر طاقتي عن سنّة رسول الله، والحكم العادل بيني وبين خصومي هو كتاب الله.

«واعلم أن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناسٍ لأخذك بالظنّة، وقتلك أولياءه على التهمة».

الرجوع عن الخطأ فضيلة:

مع علم الإمام الحسين بما هو عليه معاوية من ضلال وظلم وانحراف فقد ترك له متنفّساً علّه يحاسب نفسه، ويتراجع عن جوره وضلاله، ذلك أن محاسبة النفس من أهم العوامل في تدارك الأمور، والوقوف ولو لساعات قليلة أمام الضمير، أمام المحكمة الداخلية التي لا يعرف سرّها إلا صاحبها، وماذا يستفيد الإنسان المدرك العاقل إذا ربح العالم وخسر نفسه؟!

أكد الإمام الحسين (ع) لمعاوية:

«لا أعلمك إلا وقد خسرت نفسك، وبترت دينك، وغششت رعيّتك، وأخربت أمانتك».

وماذا بقي لمعاوية الظالم الضال بعد أن بتر دينه، وغشّ رعيّته، وخرّب أمانته، وخسر نفسه؟!.

أسلوب الرسالة:

توضّح أسلوب الإمام الحسين (ع) في خطبه، ولا نرى فارقاً يذكر في أسلوب رسائله، أسلوب فصيح بليغ، بعيد عن الصنعة إن من حيث الزخرف البديعي أو التصنّع البياني، تستسيغه الأذن المرهفة، ويرتاح إليه الذهن المثقّف.

وصاياه

الوصية هي خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه، وآخر ما يقدّمه إلى أبنائه وذويه وأصحابه في حياته أو نهايتها، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومرّ، وشؤون وشجون، وأثّرت أحداثها في نفسه، فيوصي بإعزاز الجار، وإغاثة الملهوف، وقرى الضيف، والحفاظ على سمعته بين قومه، وكل الأمور التي يرى فيها مخايل السيادة والرفعة.

والوصايا الحسينية تمثّل جانباً من جوانب حياة الإمام الكريمة الحافلة بالتوجيه والإرشاد لإصلاح المجتمع الإسلامي، كما أن بعضها مرتبط بنهضته المباركة، وهدفه السامي من ثورته التاريخية على الحكّام الجائرين، والطغاة الظالمين.

وقد اخترنا من وصايا أبي عبدالله الحسين (ع) نماذج خيّرة، وقبسات منّورة، يستفيد منها كل أديب مدرك يرغب في حياة حرّة كريمة، ولا غرو فالحسين لم يكن يطلب سلطاناً، أو حكماً، وإنما خرج ليصلح أمة جده (ص):

١ ـ من وصيّة له عليه السلام فيها الحكمة الخالدة الموزونة بميزان العقل الناضج والإحساس المرهف قال (ع):

لا تتكلّف ما لا تطيق، ولا تتعرّض ما لا تدرك، ولا تعد بما لا تقدر عليه، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت،

ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً[1].

فعلى الإنسان أن يقدّر إمكاناته تقديراً دقيقاً، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلّفنا إلا بقدر طاقتنا، قال تعالى:

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها...﴾[2].

فعلى العاقل أن يتصرّف في تصريف أمور حياته قدر طاقته.

وعندما يعرف قدره يعد ما يقدر على تحقيقه، لأن الذي يعد ولا يفي يخسر سمعته الإجتماعية، وينقلب أصحابه إلى أعداء فينظرون إليه بعين السخرية والازدراء.

ولا ينفق إلا بقدّر ما يستفيد، لأنه يعرف إمكاناته ويقدر طاقاته.

ولا يطلب من الجزاء على أعماله إلا بقدر ما صنع، أيضاً لأنه يعرف حدود إمكاناته.

أما السعادة الحقيقية، والفرح الأصيل، فهو في طاعة الله سبحانه وتعالى، هذه السعادة الإيمانية لا ترقى إليها أية سعادة أخرى.

والله عزّ وجلّ لا يرضى إلا على المؤمنين العابدين المتقين، الذين لا يعملون إلا بما يرضيه، ويسعد عباده الصالحين وينفعهم، ذلك أن الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله.

«ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً».

ما زلنا داخل الحلقة نفسها، الذي يعرف قدره يحبّه الناس، ويبعد نفسه عن مجالات التهم، قال رسول الله:

رحم الله امرءاً عرف حدّه فوقف عنده.

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٣٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

فمعرفة الحدود أمر لازم لكل فرد منا، الحدود الأدبية، والحدود القانونية، والحدود الإنسانية، والحدود الدينية... وهذا بلا ريب يتطلّب استزادة في المعرفة، معرفة الحقوق والواجبات، ما لنا وما علينا.

أما الذي يتجاوز حدوده سواء عن علم أو عن جهل فهو إما من الطمّاعين الأنانيين، أو الجاهلين المضللين.

٢ ـ ومن وصية له عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية لمّا عزم على الخروج إلى مكة.

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد، المعروف بابن الحنفية.

إن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنّة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص)، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين.

وهذه وصيّتي يا أخي إليك، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ثم طوى الحسين (ع) الكتاب، وختمه بخاتمه، ودفعه إلى أخيه محمد، ثم ودّعه وخرج في جوف الليل[1].

تقسم الوصية إلى قسمين من حيث المضمون: القسم الأول حتى... «الله يبعث من في القبور» تظهر شهادة العبد الصالح المؤمن بربّه

(١) بحار الأنوار ج ١٠ ص ١٧٥.

وبرسالة نبيه المصطفى (ص) وباليوم الآخر، البعث والحساب، وتظهر جانب الإيمان والتقية والورع من إمام معصوم، هادي مهدي، عاش في بيت النبوة، وتخرّج من جامعة أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

والقسم الثاني من الوصية يظهر فيها الإمام سبب قيامه بالثورة فقال (ع):

لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي (ص).

غايته الأولى والأخيرة إصلاح ما أفسده الحكام الأمويون حيث خرجوا عن الخط الإسلامي، وعطلوا سنّة رسول الله، وظلموا الناس، وأفسدوا في الأرض، والأئمة عليهم السلام مسؤولون أمام الله، مسؤوليتهم مسؤولية إلّهية، وقد صرح بذلك الإمام الحسين في خطبة له سابقة قال فيها:

«عهد عهده إليَّ أبي عن جدي رسول الله (ص)»[1].

يريد أن ينفذ الحكم الإلّهي فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

أراد الحسين (ع) أن يكشف أمام جميع الناس العقلاء أنه على منهاج جدّه، وسيرة أبيه، فهو بعد شهادته لله بالوحدانية، وللنبي بالرسالة، يثنّي بالاعتراف بأن كل ما جاء به جده هو حق، ولذلك هو سائر على ذلك الحق، وهو أشد الناس وعياً لسيرته وسلوكه، فهل نسي قوله (ص) فيه:

حسين منّي وأنا من حسين؟

وهل نسي وسام سيادة شباب أهل الجنة:

«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة»[2].

لقد خرج الحسين من أجل أمر يطلبه الإسلام، خرج ليقضي على المنكر الذي ساد في المجتمع الأموي، ويأمر بالمعروف الذي قامت به السماوات

---

(١) يوم الحسين (ع) لعلي محمد علي دخيّل ص ٢٨.
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٦.

والأرضين، وجاهد من أجله الأنبياء المصلحون.

إن الحق أحقّ أن يتّبع وأحق أن يجاهد من أجله، ومن أجل إحقاقه انطلق الحسين في ثورته، وفجّرها ضد الظالمين الذين حكموا باسم الدين والدين منهم براء... لقد كشف الحسين بثورته الخالدة عن الأقنعة المزيّفة التي يرتديها الحكام في عصر يزيد وفي كل عصر يشبه عصر يزيد.

فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين.

هذا الشعار طرحه الإمام الحسين (ع)، وبادر فور صدوره إلى تجسيده وإعطائه صفة الحركة الفاعلة، والتجسيد الصادق، فأعلن بأعلى صوته أن هناك انحرافات في المجتمع الإسلامي، ومنكرات فادحة لا يجوز السكوت عنها ويجب على كل القوى الإسلامية الفاعلة العمل على ضرب هذا الفساد والقضاء عليه، لقد أعطانا الحسين (ع) درساً عالياً في منهجية الثورة، درساً كتبه بدمه الطاهر ودم أهل بيته الأطهار، وصحابته الأبرار، فهل أدركنا معاني تلك الثورة؟! وهل استوعبنا وهج ذلك الدم الزكي الطاهر؟!.

وصية الحسين، سيد الشهداء، معلم كبير لكل الثوار والمستضعفين في العالم، كي يثوروا في وجه المنكر والبغي والظلم والجور، هدفهم الإصلاح العام وغايتهم السير بسيرة النبي المصطفى (ص)، وخليفته الإمام علي أمير المؤمنين وإمام المتقين (ع) .

هذا هو الخط العريض الذي سار من أجله الحسين (ع)، وهذا هو رسم المخطط الذي من أجله انطلقت الثورة الحسينية، إنه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«هذه هي وصيّتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

٣ ـ ومن وصية له أيضاً (ع):

«إياك وما تعتذر منه، فإن المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر»[١].

بلا ريب أنه يشير إلى المؤمن العاقل المتبصّر الذي يعلم، ويعلم أنه يعلم هذا لا يسيء إلى أحد ولذلك لا يوجب عليه الاعتذار، لأن الاعتذار لا يكون إلا على ذنب اقترفه، أو خطأ ارتكبه، وارتكاب الخطأ والذنب سببه الجهل، والجاهل ذليل بين قومه، والذلّة يأباها الله ورسوله للمؤمنين، لأن كرامة المؤمن ليست ملكاً له يتصرّف بها كيفما يريد، بل هي أمانة بين يديه من واجبه المحافظة عليها وصونها من أي مهانة أو ابتذال.

أما الذي يسيء فعليه أن يعتذر لمن أساء إليه، وبالإعتذار مذلّة له وعدم تقدير، وإذا ما تكرّر الخطأ تكرّر الاعتذار، وتكررت معه الإهانة.

وهذه بلا ريب صفة المنافق اللعين الحقير الذليل، قال تعالى:

﴿. . . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً﴾[٢].

وقال تعالى أيضاً عن منزلتهم وعذابهم:

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾[٣].

هذه بعض وصاياه (ع) بقيت خالدة على مدى الزمان لأنها كتبت بنور العقل، وزيت الحكمة، وعطر الإيمان.

---

(١) تحف العقول ص ١٧٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

حِكَمه

يؤخذ الشيء من مصادره، وأهل البيت هم أهل الحكمة والمعرفة، وهم أهل العلم بأصنافه وأنواعه، نهلوا العلم من مصادره العميقة وطبّقوه في مناهجهم العريقة، والعلماء كما قيل عنهم هم ورثة الأنبياء.

لقد اختبروا الحياة، وعانقوا أسرارها، وخاضوا غمارها، وعرفوا كل ما فيها، وحكمة أهل البيت دليل رقي عقليّتهم، وسمّو طرق تفكيرهم، ومدى فهمهم لقضايا الإنسان في شتى مجالات الحياة وأسرار الكون.

والحكمة الحسينية هي إحساس دقيق بكل ما تتفتّق به الحياة من ولادة أفكار تزهر وتعقد وتثمر على الأرض الإسلامية التي ولد عليها المؤمنون، وقد أخذت زخماً في النّمو والعطاء من إبداع قائلها، وحسن فهمه لأسرار الوجود.

وقد ورد عن الإمام الحسين (ع) مجموعة قيمة، من الحِكَم القصار التي تحثّ على التحلي بالأخلاق العالية، والآداب الإنسانية، وممارسة الفضائل، والتحذير من الرذائل، وإني أعتقد بأن هذه الحِكَم نحن اليوم أحوج ما نكون للعمل بها، وأخذها مأخذ التطبيق فيه البلسم الناجع لأمراضنا الأخلاقية ومعضلاتنا الاجتماعية والسياسية.

١ ـ قال (ع):

الصدق عزّ، والكذب عجز، والسرّ أمانة، والجوار قرابة، والمعونة صدقة والعمل تجربة، والخلق الحسن عبادة، والصمت زين، والشحّ فقر، والسخاء غنى، والرفق لب[1].

---

(١) راجع أئمتنا لعلي محمد علي دخيل ص ٢١٠ وتحف العقول ص ١٧٨ وبحار الأنوار ج ٢٧ ص ١١٩.

٢ ـ وقال (ع):
للسلام سبعون حسنة تسع وتسعون للمبتدىء وواحدة للراد.
والبخيل من بخل بالسلام.
٣ ـ وقال (ع):
من عبدالله حق عبادته أتاه الله فوق أمانيه وكفايته.
٤ ـ وقال (ع):
من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو، وأسرع لمجيء ما يحذر.
٥ ـ وقال (ع):
مالُكَ إن لم يكن لك كنت له، فلا تبقِ عليه، فإنه لا يبقي عليك، وكله قبل أن يأكلك.
٦ ـ وقال (ع):
إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وأهل الفضل.
٧ ـ وقال (ع):
إن المؤمن اتخذ الله عصمته، وقوله مرآته، فمرّة ينظر في نعت المؤمنين وتارة ينظر في وصف المتجبّرين، فهو منه في لطائف، ومن نفسه في تعارف، ومن فطنته في يقين، ومن قدسه في تمكين.
٨ ـ وقال (ع):
صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك فاكرم وجهك عن ردّه.
٩ ـ وقال (ع):
شرّ خصال الملوك الجبن عن الأعداء، والقسوة على الضعفاء، والبخل عن الإعطاء.

فتأمل معي هذه الحِكَم الإنسانية الخالدة وكأنها حِكَم العصر وحِكَم كل عصر، لأنها تعبر عن صدق تجربة قائلها، وعن شعور إنساني عام عاناه الحكيم وعاشه، ففي المثل الأول يقول الحسين (ع):

الصدق عز: ففي عصر الإمام وفي العصور التي تلت وفي عصرنا وفي

كل العصور الصدق هو كذلك، والصادق إنسان محترم يعزّه الناس العاقلون المنصفون ويقدّرونه حق قدره.

والكذب عجز: والكذب يدلّ على عجز صاحبه، لأن الكذّاب ضعيف أمام مجتمعه وأمام نفسه وأمام الله عزّ وجلّ.

والسر أمانة: بلا ريب السرّ كالمال يؤتمن عليه عند المخلصين المحبّين الأوفياء، وعلى المؤتمن أن يحافظ على هذه الأمانة الغالية محافظته على نفسه، ومن أفشى بالسرّ خان الأمانة، والخيانة خطب جلل، وفتق لا يرقع.

وكذلك القول في الحِكَم الباقية كلّها تجارب حياتية صادقة، وهي صادرة عن فكر راجح، وقلب سليم مفعم بحب الناس، وإفادتهم، والإحسان لهم، انطلاقاً من القاعدة التي تقول: المؤمن هو مرآة أخيه، وهي قاعدة نحتاجها في أي زمن من الأزمان.

ولا غرو فهذه الحِكَم الإنسانية الخالدة صادرة عن إمام معصوم من أهل البيت عليهم السلام، ورثة الرسول الأعظم (ص)، وسدنة هذا الدين القويم، وحملة علم الكتاب المبين، وما جاءت به السور، فقد كانوا خزنة المعرفة ومصدر هداية، ومفزع الناس في وقت الشدائد، واللسان الصادق الجريء عند توضيح الحقائق.

وهذه بعض أجوبة للإمام الحسين نعطّر بها أفواهنا، ونحيي بها قلوبنا، ونثبت بها أقدامنا، ونستفيد منها في حياتنا.

سأله أبوه أمير المؤمنين عليهما السلام:

يا بني، ما السؤدد؟

قال: اصطناع العشيرة، واحتمال الجريرة.

فما الغنى؟ قال:

قلّة أمانيك، والرضا بما يكفيك.

فما الفقر؟

قال: الطمع وشدّة القنوط.

فما اللوم؟

قال: إحراز المرء نفسه، وإسلامه عرسه.

فما الخرق؟

قال: معاداتك أميرك، ومن يقدر على ضرّك ونفعك.

فالتفت أمير المؤمنين (ع) إلى الحارث الأعور فقال: يا حارث، علّموا هذه الحِكَم أولادكم فإنها زيادة في العقل والحزم والرأي[1]

ومن أجوبته عليه السلام:

سأله نافع بن الأزرق وهو من رؤساء الخوارج، قال له: صف لي إلّهك الذي تعبد.

فقال (ع): يا نافع، إن من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الارتماس، مائلاً عن المنهاج، ظاعناً في الإعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل.

يا ابن الأزرق، أصف إلّهي بما وصف به نفسه، وأعرّفه بما عرّف به نفسه، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير متقصّ، يوحّد ولا يُبعّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إلّه إلا هو الكبير المتعال.

فبكى ابن الأرزق وقال: ما أحسن كلامك[2].

سأله رجل عن معنى قول الله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، فقال (ع): «أمره أن يُحدّث بما أنعم الله عليه في دينه»[3].

---

(١) راجع أئمتنا لعلي محمد علي دخيل عن معاني الأخبار ص ٤٠١.
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٢٣.
(٣) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٣٦٤.

وسئل: كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟

قال: أصبحت ولي رَبّ فوقي، والنار أمامي، والموت يطلبني، والحساب محدق بي، وأنا مرتهن بعملي، لا أجد ما أحب، ولا أدفع ما أكره، والأمور بيد غيري، فإن شاء عذّبني، وإن شاء عفا عنّي، فأي فقير أفقر منّي؟[1].

قيل له: ما أعظم خوفك من ربك؟

قال: لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف الله في الدنيا[2].

إن رجلاً من أهل الكوفة كتب إليه: يا سيدي، أخبرني بخبر الدنيا والآخرة، فكتب (ع):

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن من طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، والسلام[3].

وسأله ملك الروم عن سبعة أشياء خلقها الله لم تخلق في رحم؟ فقال (ع):

فأولها آدم، ثم حواء، والغراب، وكبش إبراهيم، وناقة الله، وعصا موسى، والطير الذي خلقه عيسى بن مريم[4].

وهذا غيض من فيض لمن نهل من المدرسة العلوية، وارتشف العلوم النبوية وتخرج من جامعة أهل البيت الكرام عليهم السلام.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص ٤٨٨.
(٢) بحار الأنوار ج ١٠ ص ١٤٤.
(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٥١.
(٤) تحف العقول ص ١٧٤.

من أدعيته القصار

في كتب التاريخ والسير والتراجم أدعية كثيرة لأهل البيت عليهم السلام وهي تتسم بصيغة أدبية رفيعة، ونفحة روحية تحمل شحنات إيمانهم وبصمات أصابعهم، وهناك بون شاسع بين أدعيتهم وأدعية غيرهم، وقد ورد للإمام الحسين (ع) أدعية كثيرة، وحسبنا منها دعاؤه الكبير في يوم عرفة، فهو من مفاخر تراثنا الإسلامي.

وقد جمع الميرزا محمد حسين الشهرستاني أدعيته في كتاب مستقل يحسن الرجوع إليه.

من دعاء له عليه السلام لطلب التوفيق:

«اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى، وأعمال أهل التقى، ومناصحة أهل التوبة وعزم أهل الصبر، وحذر أهل الخشية، وطلب أهل العلم، ونيّة أهل الورع، وحذر أهل الجزع، حتى أخافك اللهم مخافة تحجزني عن معاصيك، حتى أعمل بطاعتك عملاً استحق به كرامتك، وحتى أناصحك في القوة خوفاً لك، وحتى أخلص لك في النصيحة حباً لك، وحتى أتوكّل عليك في الأمور حسن ظنٍ بك، سبحانك خالق النور، وسبحان الله العظيم وبحمده»[1].

ومن دعاء له (ع) بعد صلاة الفريضة:

«اللهم إني أسألك بكلماتك، ومعاقد عرشك، وسكان سماواتك وأرضك وأنبيائك ورسلك، أن تستجيب لي، فقد رهقني من أمري عسر،

---

(١) عن الصحيفة الحسينية ص ٨٨ راجع أئمتنا لعلي محمد علي دخيّل ص ٢١٥.

فاسألك أن تصلّي على محمد وآل محمد، وأن تجعل لي من عسري يسرا»[1].

ومن دعاء له عليه السلام قبل بدء الحرب:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدّة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منّي إليك عمّن سواك، فكشفته وفرّجته، فأنت ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة»[2].

ومن دعاء له (ع):

بسم الله الرحمن الرحيم: «اللهم ارزقني الرغبة في الآخرة حتى أعرف صدق ذلك في قلبي بالزهادة منّي في دنياي، اللهم ارزقني بصراً في أمر الآخرة حتى أطلب الحسنات شوقاً، وأفرّ من السيئات خوفاً يا رب»[3].

ومن دعاء له في الصبح والمساء (ع):

«بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله، وإلى الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، صلّى الله عليه وآله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وأنا أسألك العافية من كلّ سوء الدنيا والآخرة، اللهم إنك تكفيني من كل أحد ولا يكفيني منك أحد، فاكفني من كل أحد ما أخاف وأحذر، واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت على كل شيء قدير، برحمتك يا أرحم الراحمين»[4].

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩.
(٢) يوم الحسين (ع) لعلي محمد علي دخيّل ص ١٧.
(٣) المرجع السابق عن كشف الغمة ص ١٩٤.
(٤) الصحيفة الحسينية ص ٨٦.

من دعاء له عليه السلام لما حمل ولده علي الأكبر على أهل الكوفة رفع (ع) سبّابتيه إلى السماء، وأرخى عينيه بالدموع، وهو يقول: «اللهم كن أنت الشهيد عليهم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلْقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك صلّى الله عليه وآله، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه.

اللهم فامنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلونا، ثم تلا قوله تعالى:

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[1] وصاح عليه السلام بعمر بن سعد:

قطع الله رحمك كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلّى الله عليه وآله، وسلّط عليك من يذبحك على فراشك»[2].

هذه النماذج من الأدعية القصار يمكن اعتبارها نمطاً أدبياً يحمل انطباعات الإمام الحسين (ع) وبصماته إن من حيث أسلوب التعبير أم من حيث منهجيّة الأفكار التي رسمتها ظروف الثورة الحسينية السياسية والاجتماعية.

وهي نموذج يُحتذى ويستفاد منه من أكثر من جانب.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣.
(٢) يوم الحسين ص ٥٧.

من جوامع الكلم الحسيني

قال (ع) في الإخوان:

الإخوان أربعة: فأخ لك وله، وأخ لك، وأخ عليك، وأخ لا لك ولا له.

فسئل عن معنى ذلك؟ فقال (ع):

أ ـ الأخ الذي هو لك وله فهو الأخ الذي يطلب بإخائه بقاء الإخاء، ولا يطلب بإخائه موت الإخاء، فهذا لك وله.

لأنه إذا تم الإخاء طابت حياتهما جميعاً، وإذا دخل الإخاء في حال التناقض بطل جميعاً.

ب ـ والأخ الذي هو لك فهو الأخ الذي قد خرج بنفسه عن حال الطمع إلى حال الرغبة، فلم يطمع في الدنيا إذا رغب في الإخاء فهذا موفّر عليك بكليّته.

ج ـ والأخ الذي هو عليك فهو الأخ الذي يتربّص بك الدوائر، ويغشى السرائر، ويكذب عليك بين العشائر، وينظر في وجهك نظر الحاسد، فعليه لعنة الواحد.

د ـ والأخ الذي لا لك ولا له فهو الذي قد ملأه الله حمقاً فابعده سحقاً، فتراه يؤثر نفسه عليك، ويطلب شحاماً لديك.

وقال (ع):

من دلائل علامات القبول الجلوس إلى أهل العقول، ومن علامات

أسباب الجهل المماراة لغير أهل الكفر[1] ، ومن دلائل العالم انتقاده لحديثه، وعلمه بحقائق فنون النظر[2] .

وقال (ع):

«من جاد ساد، ومن بخل رذل، ومن تعجّل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً، وإن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه»[3] .

وقال (ع):

«الحلم زينة، والوفاء مروءة، والصلة نعمة، والاستكثار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغلو ورطة، ومجالسة أهل الدنائة شر، ومجالسة أهل الفسوق ريبة»[4] .

وقال (ع) لابن عباس:

«لا تتكلّمن فيما لا يعنيك فإني أخاف عليك الوزر، ولا تتكلّمن فيما لا يعنيك حتى ترى للكلام موضعاً، فربّ متكلّم قد تكلّم بالحق فعيب، ولا تمارينّ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحلم يقلبك، والسفيه يؤذيك، ولا تقولن في أخيك المؤمن إذا توارى عنك إلا ما تحب أن يقول فيك إذا تواريت عنه، واعمل عمل رجل يعلم أنه مأخوذ بالإجرام، مجزى بالإحسان.

وكان (ع) دوماً ينشد هذه الأبيات الداعية إلى حسن الخلق، وعدم العناء في طلب الدنيا، ويزعم بعض الرواة أنها من نظمه وهي:

لئن كانت الأفعال يوماً لأهلها	كمالاً فحسن الخلق أبهى وأكمل
وإن كانت الأرزاق رزقاً مقدّراً	فقلّة جهد المرء في الكسب أجمل
وإن كانت الدنيا تعد نفيسة	فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أنشئت	فقتل امرىء بالسيف في الله أفضل

---

(١) ورد في بعض النسخ: لغير أهل الفكر وهو الأصح.
(٢) راجع تحف العقول ص ١٧٨.
(٣) نهاية الإرب ج ٣ ص ٢٠٥.
(٤) حياة الإمام الحسين بن علي لباقر شريف القرشي ص ١٥٦ عن نور الأبصار ص ١٦٦.

وإن كانت الأموال للترك جمعها   فما بال متروك به المرء يبخل[1]

وقال (ع):

«دراسة العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل، والشرف والتقوى والقنوع راحة الأبدان، ومن أحبّك نهاك، ومن أبغضك أغراك»[2]

وقال (ع) في الصدقة، حيث تصدّق رجل من بني أمية بأموال كثيرة ولم تكن تلك الأموال من حلال، وإنما كانت من حرام، فقال الإمام في ذلك:

«مثله مثل الذي سرق الحاج وتصدّق بما سرق، إنما الصدقة صدقة من عرق فيها جبينه، وأغبرّ فيها وجهه»[3].

ومن الأمور التي اهتم بها الإمام الحسين (ع) الوعظ والإرشاد، كما كان أبوه من قبله، والهدف من ذلك تنمية القوى الخيّرة في النفوس، وتوجيه الناس نحو الخير والحق، وإبعادهم عن الميول الخبيثة، ونزعات الشرّ والطيش والباطل.

قال (ع):

«عباد الله اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرضاء، وأرضى بالقضاء، غير أن الله خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلها للفناء، فجديدها بالٍ، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفّر، والمنزل بلغة، والدار قلعة، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى»[4].

وقال (ع):

«يا ابن آدم تفكّر وقل: أين ملوك الدنيا وأربابها الذين عمّروا خرابها

---

(١) الأنوار البهيّة ص ٤٦.
(٢) حياة الإمام الحسين للقرشي عن بحار الأنوار ص ١٦٠.
(٣) دعائم الإسلام ج ١ ص ٢٩٢.
(٤) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣.

واحتفروا أنهارها، وغرسوا أشجارها، ومدّنوا مدائنها؟! فارقوها وهم كارهون، وورثها قوم آخرون، ونحن بهم عمّا قليل لاحقون».

يا ابن آدم، اذكر مصرعك، وفي قبرك مضجعك بين يدي الله، تشهد جوارحك عليك يوم تزول فيه الأقدام، وتبلغ القلوب الحناجر، وتبيّض وجوه، وتبدو السرائر، ويوضع الميزان القسط.

يا ابن آدم، اذكر مصارع آبائك وأبنائك، كيف كانوا، وحيث حلّوا وكأنك عن قليل قد حللت محلّهم، وصرت عبرة المعتبر...

ثم انشد هذه الأبيات[1] :

أين الملوك التي عن حفظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
تلك المدائن في الافاق خالية عادت خراباً وذاق الموت بانيها
أموالنا لذوي الورّاث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

هذا بعض ما أُثر عنه من المواعظ الهادفة، والإرشاد الرامي إلى إصلاح النفوس وتهذيبها، وتحضير المجتمعات ورقيّها.

---

(١) الإرشاد للديلمي.

خاتمة

الثورة الحسينية نموذج الثورات التحررية

الثورة الحسينية هي رأس الحرية في التاريخ الثوري، ورأس الحرية في التطور الاجتماعي.

والثورة الحسينية هزّة عنيفة في وجدان التغيير الحضاري.

والثورة الحسينية إرادة جبارة في وجه الانحراف وعامل هام في الإصلاح.

والثورة الحسينية ثورة مستمرة على أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

بثّت الثورة الحسينية الروح النضالية في الشعب المسلم فقضت بذلك على روح التواكل والخنوع والتسليم لأمر الحاكمين الظالمين، فجعلت من الأمة الإسلامية قوّة صلبة معبّأة في أي وقت للإنفجار في وجه الطغاة المستكبرين بعد فترة طويلة من الهمود والتسليم.

ولا شك أنه كان هناك آفات نفسيّة واجتماعية تحول بين الإنسان المسلم وبين نضاله عن ذاته وعن إنسانيته، فجاءت الثورة الحسينية، وحطّمت كل حاجز نفسي واجتماعي يعيق مسيرتها التاريخية.

حطّمت الإطار الديني الذي أحاط به الأمويون حكمهم الفاسد العفن وكشفت كل معايبه وانحرافاته.

قدمت الثورة الحسينية حافزاً جديداً، وأخلاقاً جديدة تقول للإنسان المسلم: ناضل قوى الشر بكل ما عندك من قوة، ضحِّ بكل شيء في سبيل

عقيدتك ومبدئك، لا تستسلم للجبابرة الطغاة، ولا تساوم على كرامتك وإنسانيتك.

خلقت الثورة الحسينية في نفوس المسلمين المتقاعسين عن النضال شعوراً بالإثم، وتأنيباً للنفس، ورغبة عارمة في التكفير والتوبة.

ونختصر فنقول: من فوائد الثورة الحسينية أنها أعدّت الناس إعداداً كاملاً للثورة، وأحيت في نفوسهم الروح النضالية العظيمة، وكلّنا يعلم ما لهذه الروح من شأن كبير وخطير في حياة الأمم المتطورة.

ولقد كان الإمام علي بن أبي طالب (ع) حريصاً جداً على أن تبقى روح النضال حية نامية في نفوس الناس لتبقى لهم القدرة على الثورة حين تدعو الحاجة وتسمح الظروف، ولنا في كلمته الخالدة التي قالها وهو على فراش الموت:

«لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[1].

لقد أخلد المجتمع الإسلامي إلى السكون مدّة عشرين عاماً لم يقم خلالها بأي ثورة مع توفر الدواعي والأسباب، فمنذ مقتل أمير المؤمنين (ع) وتسليم الحكم للأمويين، إلى حين قيام الثورة الحسينية لم نلحظ في هذا المجتمع أي احتجاج جدّي جماعي مع وجود ألوان من الاضطهاد والتقتيل ونهب الأموال، وظلم الأبرياء، من سنة ٤٠ هـ إلى سنة ٦٠ هـ، حتى كانت ثورة الحسين (ع) ففتحت العيون على أخطاء الحكام وأخذت تترقّب قائداً مخلصاً يقودها، وزعيماً وفياً ينقذها من جور الحكم الأموي وتسلطه.

التمرّد الوحيد الذي حدث طيلة عشرين عاماً وعلى فترات متعاقبة هو تمرّد الخوارج، ولكنه لم يكن ناجحاً، ولم يكن متجاوباً مع المجتمع الإسلامي.

---

(١) راجع نهج البلاغة ج ١ ص ١٣٣ وقد قال هذه الكلمة معرضاً بمعاوية بن أبي سفيان.

من وحي الثورة الحسينية تفجّرت ثورات كثيرة نذكرها على التوالي:

١ ـ ثورة التوابين، سليمان بن صرد وأصحابه، رأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم إلا بقتل من قتله (ع) أو القتل فيه.

٢ ـ ثورة المدينة، كانت رد فعل آخر لمقتل الحسين (ع)، كانت تستهدف تقويض سلطان الأمويين الظالم الجائر المنحرف عن الخط الرسالي.

٣ ـ ثورة المختار الثقفي بالعراق طالباً الثأر للحسين (ع)، حدثت سنة ٦٦ هـ.

٤ ـ ثورة مطرف بن المغيرة، حدثت سنة ٧٧ هـ، ثار على الحجاج بن يوسف وخلع عبد الملك بن مروان.

٥ ـ ثورة عبد الرحمن بن محمد الأشعث على الحجاج سنة ٨١ هـ، وقد هزّت هذه الثورة أركان الحكم الأموي.

٦ ـ ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع)، حدثت سنة ١٢٢ هـ هيّأها في الكوفة ولكنها خنقت في مهدها بسبب الجيش الأموي المرابط في العراق.

كل هذه النماذج الثورية سببها ما بثّته ثورة الحسين (ع) في الشعب المسلم، وقضت بذلك على روح التواكل والخنوع، ولقد استمرّت طيلة الحكم الأموي حتى اقتلعته من جذوره بثورة العباسيين التي لم تغيِّر ولم تبدل من واقع الشعب المسلم سوى وجوه الحاكمين، وهذا ما حدا بأحد الشعراء إلى القول:

فليت جور بني مروان دام لنا ... وليت حكم بني العباس في النار

ولكن هذا لم يخمد الرغبة في الثورة بقدر ما كان حافزاً عليها.

وما يجدر ملاحظته أن هذه الثورات كانت صادرة عن وعي للواقع، واحتجاج عليه ومحاولة تغييره وتطويره.

وقد يسأل سائل: إن الروح النضالية التي بعثتها ثورة الحسين (ع) في نفوس الشعب المسلم لم تطوّر واقعه بواسطة الثورات التي أشعلتها.

والجواب: صحيح، إنها لم تطوّر واقع هذا الشعب تطويراً سريعاً، ولم تقدم أي نتائج قريبة، ولكنها حفظت له إيمانه بنفسه، وإيمانه في الحياة الحرة

الكريمة، وهذا باعتقادي نصر عظيم وربح كبير.

ماذا يرجى من شعب يفقد شخصيّته، ويذوب في خضم الفاتحين كما قدّر لشعوب كثيرة فقدت كيانها، وفقدت روح النضال فيها، وفقدت مقوّمات وجودها المعنوي، فذابت واضمحلّت، ولم يحفظ لنا التاريخ إلا أسماءها.

ولو أنها بقيت مؤمنة بمبادئها ومقوماتها، ولو احتفظت بروح النضال حية في أعماق نفوسها، لما استطاع الطغاة إبادتها وإذابة كيانها، وهذا ما حققته ثورة الحسين (ع)، لقد أجّجت الروح النضالية في نفوس أنصارها، وبقيت مستمرّة حية تعبّر عن مبادئها ضد الحكام الأمويين الذين حاولوا بشتّى الطرق إخماد جذوتها فما استطاعوا، بل ظلّت باقية صامدة تقول للطغاة: إني هنا مرفوعة الجبين، لا أخاف الموت، ولا أهابه، فهو مطلبي والشهادة منيتي.

لقد بقي الشعب الحسيني ثائراً ضد المستكبرين، معبراً عن إنسانيته بالدم الزكي المسفوح، ولم تفلح في إخضاعه وسائل القمع الحديثة، ولم يجرفه التاريخ، بل بقي صامداً ليصنع التاريخ. التاريخ المشرق المجيد.

هذا صنيع الثورة الحسينية، وهذه هي روحه النضالية التي خلقتها الثورة ونمّتها، وخلقت بعدها ثورات متتالية صنعت تاريخ الكفاح الدامي من أجل التحرّر، فانحلّ الحاكمون، ودكّت عروشهم، وسحقوا وأبيدوا، وبقيت الثورة الحسينية ناراً ونوراً تشقّ طريقها النضالي.

وما نريده نحن اليوم أن تكون الثورة الحسينية مثالاً نحتذيه ونحافظ عليه وأن يكون النهج الحسيني نهجنا في كل ما يحيط بنا من مؤامرات داخلية ومؤامرات دولية، تسعى بكل وسائلها الخبيثة لتفكيك أمتنا الإسلامية وثنيها عن تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية والعيش الكريم، والحقيقة أن تاريخ الثورات التي نهجت نهج الثورة الحسينية هو تاريخ الشعوب الصحيح، وذلك حتى تبقى في يقظة وجدانية دائمة، وفي وعي مستمر لنضالها الذي يجب أن تمارسه في الداخل والخارج.

في التاريخ الحسيني نجد المبادىء الأصولية للتاريخ الإسلامي المجيد

الذي يعصمنا من الزيغ والانحراف، ويجعلنا على استعداد تام للتمرّد على أي سلطة ظالمة، وأي حاكم ظالم على أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي.

فكل المستضعفين في العالم هم إخوة لنا، وكل المحرومين هم جماعتنا، علينا إنصافهم ومساعدتهم ونصرتهم بكل ما لدينا من قوة، وعلينا نحن أن نصحح كتابة تاريخنا فنكتبه كتابة صحيحة نكشف به انحراف الحكام واضطهادهم الذي كان يدفع الناس إلى الثورة.

يجب أن نكشف عن الشخصية التاريخية للأمة الإسلامية، وعن محور ارتكازها العقائدي والنضالي عبر التاريخ.

كما يجب أن نكشف عن مناقبية الثائرين المتمسّكين بمبادئهم، والذين اعتصموا بحبل الله ولم تغريهم المغريات المادية، ولم تخفهم تهديدات السلطة الحاكمة.

إن تاريخ أمتنا تاريخ مشرق مجيد يعبّر تعبيراً حراً عن إنسانية هذه الأمة واحترامها لشخصيتها، لتعيش عيشة الأحرار الشرفاء، وتأتي ثورة الحسين لتتوج كل الثورات التي سبقتها، فهي أغنى ثورة عرفها التاريخ، عرفت بالعزم والتصميم على المضي في النضال الدامي، وكلّنا يعلم كم يكلف هذا الجهاد في سبيل نصرة الحق من صبر وتضحية وبذل وعطاء.

وهي ثورة إنسانية دربها شاق، امتحن إبطالها بأقسى ما امتحن به الثائرون على مدى التاريخ، فلم يضعفوا ولم يهنوا، بل ثبتوا صامدين حتى استشهدوا في سبيل الحق «والجود بالنفس أسمى غاية الجود».

والثورة الحسينية أنبل ثورة قام بها جماعة من الناس، لأن الثائرين لم يستهدفوا من ثورتهم مغنماً شخصياً لأنفسهم، ولا مركزاً اجتماعياً يبغون من ورائه الوجاهة والافتخار، وإنما كانت غايتهم سامية شريفة، لأنهم أرادوا تحرير مجتمعهم من جور الظالمين، وظلم المنحرفين، وانحراف الحاكمين عن الحق المبين.

وهي أعرق ثورة في تاريخ الثورات لأن قائدها كان متأكداً من مصيره

الذي وصل إليه وتابع المسيرة بعزم وحزم وثبات، لقد كان يعمل في سبيل الله ومن أجل تثبيت شريعة الله.

لقد سجل الموقف الشريف، الموقف النبيل، الموقف البطولي، وقف وقفة عزّ لم يقل فيها: «إلّهي إلّهي لماذا تركتني» بل صاح بجرأة علوية كسبها من أبيه وجده، «إلّهي أنا قادم إليك». وكأنه يرى دمه ودماء رفاقه الشهداء أمام بصره رياضاً غنّاء طفحت ورداً وفلّاً وشقائق نعمان.

كلمة الحسين الشاهدة والمتلزمة تقول «الموت البطولي» كما لم تقله شهادة في تاريخ الأرض، لأنه عبارة جده النبي (ص) التي كتبها من فوح القرآن وبوح قلبه السماوي ليعبر الضفة قبالة والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فريد الزمان في حب الحق الأعلى.

ولما كانت الثورة الحسينية النموذج الكامل المحتذى لكل المناضلين وجب أن تنال عناية خاصة من القيّمين على شأن الكلمة في أيامنا هذه، ليشرحوا الدور الذي أسهمت به في تغذية الروح النضالية، وما أحرانا أن نستخدم تاريخنا الثوري في تطوير مجتمعنا، وإعطائه الدور اللائق به في طريق الخير والسعادة والشرف والكرامة، فإيمان بالله وحب للإنسانية وتضحية في سبيل الدفاع عنها حتى النصر أو الشهادة.

والثورة الحسينية من بدايتها إلى نهايتها لم تستغرق سوى بضعة أيام فقط من حيث المدّة الزمنية.

وحدودها لم تتجاوز منطقة كربلاء من حيث المكان، ذلك الوادي على شاطىء الفرات المحاط بسلسلة من التلال المتصلة على امتداد الصحراء.

وأما من حيث عدد الثائرين فإنه لم يتجاوز الثلاثمائة والثلاثة عشر على أبعد الحدود بين رجل مقاتل، وصبي وطفل وشيخ كهل.

فمن ينظر إليها من هذا المنطلق يرى أنها ثورة بسيطة كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً.

لكنها أعظم ثورة في العالم كله من حيث المفهوم والمضمون، من حيث

التجرّد والواقعية، من حيث المثالية والقدسية، ومن حيث الإخلاص لله سبحانه وتعالى، ومن حيث العطاء والفداء، وذلك رغم محاولات الأمويين وغيرهم طمس معالمها، وإعفاء آثارها، وكأنها لم تكن شيئاً مذكوراً **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نُورِه ولو كره الكافرون﴾**[1] .

وقف الإمام الحسين (ع) وأصحابه يوم عاشوراء ذلك الموقف الشاق والحرج علماً أنه كان في وسع كل واحد منهم أن يتجنّب القتل بكلمة يقولها أو بخطوة يخطوها، ولكنهم جميعاً آثروا الموت عطاشا مناضلين من دون أن يكون لهم أي أمل في النصر العاجل والانتصار العسكري.

ولكن وقفوا مع الحق لوجه الله تعالى، مخلصين له بالجهاد في سبيله، في سبيل دينه، وفي سبيل شريعته، مضحّين بأنفسهم وعيالهم وكل ما عندهم. كما وصفهم أحد الشعراء بقوله:

وقفوا والموت في قارعةٍ	لو بها أرسى ثهلان لزالا
فأبوا إلا اتصالاً بالضيا	وعن الضيم من الروح انفصالا
أرخصوها للعوالي مهجاً	قد شراها منهم الله فغالا

قال عباس محمود العقاد في كتابه «أبو الشهداء»: «وباءَ الحسين في ذلك الموقف بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الإنسان، غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي، ولا قديم ولا حديث».

وجميل جداً ما شبّه به بعض الكتّاب موقف الحسين (ع) وموقف خصومه يوم كربلاء فقال:

«إن ساحة الصراع في كربلاء كان أشبه بمعرض عالمي أقيم على تلك البقعة، وكان لذلك المعرض جناحان فقط: جناح الحسين (ع) وأصحابه وجناح أعدائه ومقاتليه، وقد عرض كل من الجانبين في جناحه الخاص نماذج وصور عن هذا الجنس البشري في طرفي صعوده وسقوطه، فوقف الحسين (ع) وأصحابه للعالم نماذج مثالية خالدة عن أقصى مراحل التكامل البشري

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

والكمال الإنساني من مصنع الإسلام وصناعة القرآن، كما عرض أعداؤه في الجانب الآخر نماذج خالدة للعالم عن أسفل درك المسخ والسقوط والانتكاس البشري من مصنع الجهل وصناعة الحكم الأموي.

فكربلاء إذاً معرض بشري عالمي قائم ومفتوح حتى يومنا هذا دون منافس ولا نظير»[1].

---

(١) راجع مأساة الحسين بين السائل والمجيب للشيخ عبد الوهاب الكاشي ص ١٤٩.

فهرس المصادر والمراجع

ألف

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ أئمتنا، علي محمد علي دخيّل.
٣ ـ أبو الشهداء، عباس محمود العقاد.
٤ ـ اتجاهات المعارضة في الكوفة، د. إبراهيم بيضون.
٥ ـ الأخبار الطوال، الدينوري.
٦ ـ الإرشاد، الشيخ المفيد.
٧ ـ الإرشاد، الديلمي.
٨ ـ أعلام في العصر العباسي، للمؤلف.
٩ ـ أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين.
١٠ ـ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني.
١١ ـ الإصابة، ابن حجر العسقلاني.
١٢ ـ أصول الكافي، الكليني.
١٣ ـ أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق.
١٤ ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة.
١٥ ـ الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي.
١٦ ـ الإعجاز والإيجاز، الثعالبي.

ب

١٧ ـ البداية والنهاية، لابن كثير.
١٨ ـ بحار الأنوار للمجلسي.

١٩ ـ بطلة كربلاء، د. بنت الشاطىء.
٢٠ ـ البيان والتبيين، الجاحظ.
٢١ ـ بلاغات النساء، لابن طيفور.

ت

٢٢ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمن.
٢٣ ـ تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن.
٢٤ ـ تاريخ ابن عساكر.
٢٥ ـ تاريخ ابن كثير.
٢٦ ـ تاريخ الشعر السياسي، د. أحمد الشايب.
٢٧ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي.
٢٨ ـ تاريخ الأمم والملوك، الطبري.
٢٩ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان.
٣٠ ـ تاريخ اليعقوبي.
٣١ ـ تحف العقول.

ث

٣٢ ـ الثورة الحسينية، السيد عبد الحسين دستغيب.
٣٣ ـ ثورة الحسين، الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

ج

٣٤ ـ جوهرة الكلام مع مدح السادة الأعلام، للقراغولي.

ح

٣٥ ـ الحجاز والدولة الأموية، د. إبراهيم بيضون.
٣٦ ـ الحسين بن علي، د. علي شلق.

٣٧ ـ حياة الإمام الحسين، القرشي.

خ

٣٨ ـ خصائص الحسين، للتستري.

د

٣٩ ـ دائرة المعارف، للبستاني.
٤٠ ـ دروس من ثورة الحسين، السيد عباس علي الموسوي.
٤١ ـ دلائل الإمامة، لمحمد بن جرير الطبر
٤٢ ـ دعائم الإسلام، لأبي حنيفة المغربي.
٤٣ ـ ديوان المتنبي.
٤٤ ـ ديوان أبي تمّام.
٤٥ ـ ديوان حيدر الحلي.

ر

ريحانة الرسول، أحمد فهمي.

ص

٤٧ ـ صحيح البخاري.
٤٨ ـ الصواعق، لابن حجر.

ع

٤٩ ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة.

ف

٥٠ ـ في الأدب الجاهلي، د. طه حسين.
٥١ ـ الفتنة الكبرى، د. طه حسين.
٥٢ ـ فجر الإسلام، أحمد أمين.
٥٣ ـ الفصول المهمة، لابن الصباغ.

ك

٥٩ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.
٥٥ ـ كشف الغمة، للأربلي.

م

٥٦ ـ مروج الذهب، المسعودي.
٥٧ ـ المجازات النبوية، الشريف الرضى.
٥٨ ـ مختصر تاريخ العرب، السيد أمير علي.
٥٩ ـ المعجم الكبير، للطبراني.
٦٠ ـ مصابيح السنّة، للبغوي.
٦١ ـ مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني.
٦٢ ـ مقتل الحسين، للمقرّم.
٦٣ ـ المرأة في الإسلام، لمريم نور الدين فضل الله.
٦٤ ـ مسند الإمام أحمد.
٦٥ ـ منهاج السنة لابن تيمية.

ن

٦٦ ـ النظام التربوي في الإسلام، للقرشي.
٦٧ ـ نظام الأسرة في الإسلام، للقرشي.
٦٨ ـ نظم إسلامية، للمؤلف.

٦٩ ـ نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف.
٧٠ ـ نهاية الإرب، أحمد بن عبد الوهاب النويري.
٧١ ـ نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد لعلي بن أبي طالب.
٧٢ ـ نور الأبصار، للشبلخي.

و

٧٣ ـ وفاء الوفاء، علي بن أحمد السمهوري.

ي

يوم الحسين، علي محمد علي دخيّل.

مؤلفات الكاتب المطبوعة:

١ ـ علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية ١٩٨٣.
٢ ـ أدب العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية ١٩٨٤.
٣ ـ حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية ١٩٨٤.
٤ ـ أعلام في العصر العباسي، المؤسسة الجامعية ١٩٨٥.
٥ ـ نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، مؤسسة الوفاء ١٩٨٦.
٦ ـ نظم إسلامية، المؤسسة الجامعية ١٩٨٧.
٧ ـ الأسطورة عند العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية ١٩٨٨.
٨ ـ حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية ١٩٨٨.

الفهرس